ناصر الدين النشاشيبي

عربي في الصين



عربي في الصين

◎ الغلاف بريشة الفنان يوسف فرنسيس
◎ الرسومات للفنـان مكرم حنين
◎ الخرائط من عمل قدرى عبد القادر كبير خطاطى الأهرام

١٩٦٥

الإهداء

إلى بقية البقية : أخي عصام

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة

« إننى أعتقد أن الصين قد أصبحت دولة تقوم بدور خطير فى هذا العالم . . وإننى أدعو إلى إدخالها فى الأمم المتحدة وأنادى بخطأ السياسة الأمريكية تجاهها . . »

« أرنولد توينبي »
فى التليفزيون الأمريكى
١٩٦٤

قال لى المتحدث باسم « رابطة الصحافة والصحفيين فى كل الصين » وأنا على وشك السفر إلى أوروبا فى إجازة صيف عام ١٩٦٤ :

— لك عندنا دعوة لزيارة الصين ، فهل تقبلها . . ؟

قلت على الفور : أجل !

قال : وهل نتفق على الموعد من الآن . . ؟

قلت : سأقضى فى أوروبا مدة شهر ثم أعود إلى هنا فى شهر سبتمبر للبقاء على مقربة من مؤتمرى « القمة » و « عدم الانحياز » ، وفى أوائل شهر نوفمبر تكون المؤتمرات قد انتهت ، وأكون أنا فى انتظار أول طائرة أستقلها إلى . . بكين !

وضحك مندوب رابطة صحافة « كل » الصين وقال وهو يشد على يدى مودعا :

— اتفقنا !

ثم استطرد على الفور يؤكد لى الموعد قائلا :

— لقاؤنا فى أول نوفمبر . .

ومضت الأيام . .

وكدت فى غمرة ما طرأ على الصحيفة التى « كنت » أنتسب إليها وأتشرف برئاسة تحريرها ، من « تنظيمات » جديدة . . كدت أنسى بعد عودتى من إجازة الصيف ، حديثى مع مندوب الصحافة الصينية ، والدعوة التى عقدنا شبه اتفاق على تنفيذها . .

ولكن جرس التليفون قرع فى منزلى ذات صباح من شهر نوفمبر وبينما الدنيا بأسرها تتحدث عن قنبلة الصين و « قنبلة » خروشوف ، يحمل لى ما ذكرنى بما كدت أنساه . .

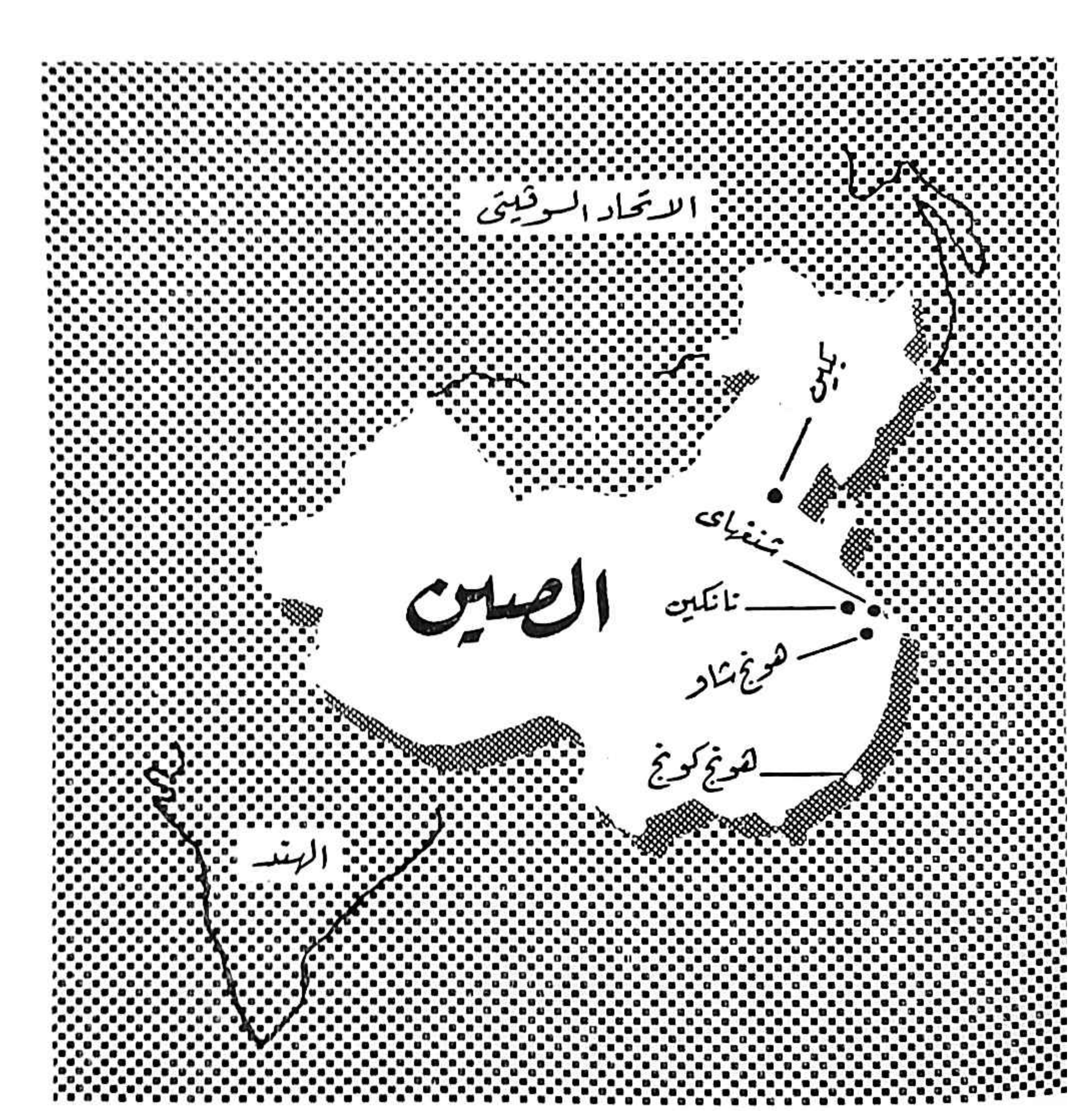
صوت سفارة الصين فى القاهرة تطلب جواز السفر لإعطاء التأشيرة !

ثم صوت شركة الطيران تقول لى إن هناك باسمى تذكرة طيران مفتوحة إلى . . هونج كونج !

ورأيت نفسى أحزم حقائبى وأنا أردد حكمة « كونفشيوس » فيلسوف الصين وحكيمها الخالد .

— « كلما كان ذلك البلد بعيداً ، كانت زيارته عزيزة غالية ! »





الصين . . وجاراتها



كانت « آسيا » فى دنياى تنتهى عند مدينـة « ديـكا » فى شرق البا كستان ! وكان أعظم ما رأيته فى البا كستان و بالتالى فى آسيا كلها ، هو غابة « ساندربن » الشهيرة التى تضم بين أحراشها ومجهولها أشهر وأقـوى وحش فى العـالم وأعنى به « النمر » البنجالى . . !

إلى أن رأيت . . هونج كونج !

وعرفت أن هونج كونج أعظم من غابة ساندربن !

فالغابة يسكنها « نمر » واحد ، وهونج كونج — فى هذا المعنى — كلها وحوش !

الغابة خطرها محصور فى أهلها . . وهونج كونج خطرها فى أهلها وفى زوارها وضيوفها أيضاً !

الغابة شرها فى دروبها ومسالـكها ! وشر هونج كونج داخل بيوتها . . أ كثر من طرقها ومسالـكها !

ولا لزوم للشرح والاستطراد . .

فقد هبطت بى الطائرة على مطار هونج كونج مع الغروب قادمة بى من بانـكوك . .

عالم جديد ، وشعب جديد . . !

الفصل الأول

على باب الصين

« .. لم يخترع العقل البشرى ما هو أتفه من الاتفاقية التجارية .. »

« دیزرائیلی »

ولم يكن مندوب « شركة الصين للسياحة » وحده ينتظرنى فى المطار .. !
كان هناك معه شاب باكستانى يتولى أعمال صديقى رئيس بلدية كراتشى فى هونج كونج ، وكان مديره قد أبرق إليه بوجوب مرافقتى طيلة إقامتى فى المدينة . .

وركبت مع مندوب الشركة الصينية إلى فندق « البريزيدانت » وسط الجزء المسمى « بالكاولون » حيث دلنى المندوب — بكل وقار وجد — على الغرفة المحجوزة باسمى ، ثم ودعنى — بكل وقار وجد أيضاً — على أن يلقانى فى صباح اليوم التالى لمرافقتى إلى القطار المسافر إلى الصين ! أما الشاب الباكستانى فقد تبعنى بسيارته إلى الفندق ووضع نفسه وسيارته تحت تصرفى قائلا بلغة إنجليزية متقنة :

— الناس فى هونج كونج لا ينامون . . مبكراً !

قلت ضاحكا :

— بل لعلهم لا ينامون . . أبداً !

وركبنا سيارته ورحنا نجوب شوارع هونج كونج !

وسألنى الشاب الباكستانى بعد لحظة وبعد أن عرف أنها أول مرة أزور بها هونج كونج :

— هل أحدثك عن قصة هذه المدينة . . ؟

وعندما لم يسمع جوابى على سؤاله ، استطرد يقول :

— لا أظن أن قصة هونج كونج تحتاج إلى حديث . . بقدر ما تحتاج إلى « ممارسة » !

ثم ضحك ضحكة عالية أراد بها أن يشدنى إلى حديثه قائلا :

— أريد أولا أن أتأكد أنك لن تسافر غداً إلى الصين لكى تستطيع أن تتعرف إلى هذا البلد وتفهم سر مليونى امرأة . . من أهله !

قلت أسأله :

— وكم عدد جميع سكانه . . ؟

قال ضاحكا :

— لم نقرأ بعد عدد آخر فوج من الصينيين الهاربين إلينا عبر الحدود الصينية هذا الأسبوع ، ففى كل يوم طوفان بشرى جديد . . ولكن عدد السكان لا يزيد على أربعة ملايين !

واقترحت على مرافقى أن نترك السيارة ونمشى فى الشوارع العامة . .

ولا يحتاج المرء إلى أكثر من خطوات معدودة يقطعها فى شوارع هونج كونج حتى يدرك سرها ومجهولها . .

فسرها أنها بلد كل ما فيه يباع ويشترى !

وكل شىء له ثمن . .

وكل شىء رخيص ، حتى الشرف !

وقد أرادها « الكابتن إيليوت » وزير خارجية بريطانيا عام ١٨٤٢ أن تكون قاعدة للتجارة البريطانية مع الصين . . فإذ بها تتحول مع الأيام وحتى عام ١٩٦٤ إلى قاعدة للتجارة فى كل شىء . . كل شىء . . ولا يقتصر سكانها على طبقة التجار وحدهم بل تعدتهم إلى طبقات غريبة من المغامرين والجواسيس والعملاء وتجار الأعراض والأسرار و . . . !

وقال مرافقى بعد أن قطعنا « شارع شاتام » الرئيسى ودخلنا إلى شارع « سالزبرى » المزدحم بالمتاجر والملاهى :

— هه ! ما رأيك ؟ ألا ترى هنا تفاعلا واضحاً لأعظم حضارتين فى هذه الدنيا وأعنى بهما ، الصين الخالدة الأبدية ، والغرب المتطور المندفع . . ؟

قلت وأنا أتلقى رذاذ المطر المتساقط بكف يدى :

— بل إنى لا أرى أمامى إلا تفاعلا للذات مصطنعة مفتوحة، طرفها الأول امرأة بائسة من الصين، وطرفها الثانى سائح ثرى من . . الغرب!

قال جادا وكأنه يدافع عن سمعة المدينة :

— ولكن فى هونج كونج أشياء أخرى غير ما ترى! هنا أعظم وأرخص السلع التجارية فى العالم . . !

قلت :

— هذه أجدها أيضاً فى جنيف . . وجبل طارق . . وعدن . . وعدة مدن أخرى فى هذه الدنيا . .

قال مقاطعاً :

— ولكنها ليست فى مثل رخص أسعارها هنا . .

قلت :

— الرخص وحده ليس سر شهرة هونج كونج . . والناس لا يمرون بها للاستفادة من رخصها . . أليس كذلك . . ؟

قال :

— ولكنها أعظم مثل للإدارة الناجحة . . حيث لا أمراض ولا حوادث ولا فواجع رغم أنها بلد مفتوح . . !

قلت :

— لم ننكر يوماً أن الإنجليز يستعمرون . . جيداً!

وكنا قد وصلنا فى سيرنا إلى حافة الشاطىء المواجه لجزيرة « فيكتوريا » وقد بدت الجزيرة أمامنا تتلألأ كعروس فى ليلة زفاف، فقلت لمرافقى ومياه بحر الصين تضرب الأرض تحتنا :

— هل نكمل الرحلة إلى هناك . . ؟

قال :

— بل أقترح أن نبقى هنا و نقضى السهرة فى هذا الجزء من هونج كونج ، على أن نقطع البحر غداً و نصعد إلى قمة الجزيرة التى تراها أمامك . .

ووافقت . .

وعدنا نمشى عبر الكورنيش إلى داخل المدينة مارين بمتاجرها وفنادقها ولافتاتها الملونة التى لا تعد ولا تحصى . .

وسألنى مرافقى :

— هل تريد أن تتناول العشاء فى مطعم أوروبى أو صينى . . ؟

قلت وكأنى أطلب المستحيل :

— بل فى مطعم . . إيطالى . . !

قال على الفور :

— نذهب إذن إلى مطعم « جو » فى شارع الكاميرون !

قلت وكأنى أستعيد ذكريات قديمة مرت بخيالى :

— يقولون إن قصوراً عائمة فى هذا البحر قد خصصها أصحابها لكى تكون مطاعم لكل ما فى البحر من ثمار وسمك . . فلماذا لا نذهب إليها . . ؟

قال وهو ينظر إلى ساعة فى يده :

قد نحتاج من أجل ذلك إلى أن نركب الباخرة فى اتجاه ساحل قريب اسمه « أبردين » . . ولكن السماء تمطر ، والريح تصفر ، وأخشى عليك من هواء البحر البارد . .

قلت وأنا أكمل السير إلى داخل المدينة :

— إذن نكتفى من الأربعمائة كيلومتر مربع التى هى مساحة هونج كونج

وضواحيها ، بما مشيناه حتى الآن على أن نكمل الشوط غداً ..

قال وكأنه ذهل لكلامى :

— ألا تريد أن تتناول عشاءك .. ؟ تعال معى إلى مكان نطل منه على هونج كونج كلها ، ونأكل فيه أشهى الطعام ..

وركبنا السيارة فى اتجاه حدود الصين .. ووقفنا عند فندق عال تتصاعد منه رائحة السياح الأمريكان .. ودخلنا إلى شرفة مرتفعة فوق رأس جبل يمتزج فيها الحديث بلهجات كثيرة سمعت خلالها صوت مرافقى يصيح أمامى :

— هنا تسمع كل لهجات هونج كونج .. اللهجة « المندرين » .. لهجة أهل بكين .. واللهجة « الكنتونيز » لهجة أهل كانتون .. واللهجة « الشنغانيز » لهجة أهل شنغهاى .. وكلها لهجات صينية تضاف إلى عشرات اللغات الأجنبية الأخرى .. !

وجلسنا عند أول مائدة فى طريقنا ..

ورأينا هونج كونج أمامنا .. بكل أجزائها .. بكل أضوائها .. بكل لافتاتها . وما أكثر لافتات هونج كونج وما أحلاها ..

وقال لى وكأنه يسألنى :

— هل تعتزم أن تشترى شيئاً معيناً من هونج كونج .. ؟

قلت :

— أنا أسألك كرجل اختصاص — أى شىء أشتريه .. ؟

قال على الفور :

— البدل هنا جيدة ورخيصة .. كذلك جواهر « الجاد » .. كذلك المصنوعات اليابانية والحرائر الصينية .. ولكن عليك أن تعلم شيئاً واحدا وتتصرف بموجبه ، وهو أن تجار هونج كونج هم أكذب تجار فى العالم !

إنّ السلعة التى يطلبون ثمناً لها مائة جنيه ، لا تساوى أكثر من خمسين جنيها ، وعليك أن تساوم . . وتعرق . . وتناقش وإلا وجدت نفسك مغشوشا إلى حد يذهلك ! إن التجارة هنا لا تخضع للضرائب ولكنها تخضع لأكاذيب تجار هونج كونج ومكرهم وحيلهم . . !

ومع العشاء ، والحديث ، ومنتصف الليل ، قلت لمرافقى وأنا أغالب تعب طيران دام ساعات طوال :

— أريد أن أعود إلى فندقى . . وأنام . . !

وهبطنا من الجبل عائدين إلى قلب المدينة . .

وقال لى مرافقى وهو يصافحنى على باب فندق « بريزيدانت » المزدحم بعشرات الداخلين والخارجين وكأنهم فى يوم الحشر :

— سأحاول غدا أن أفرغ من عملى مبكرا فى الصباح وأوافيك إلى هنا ، وإذا لم أستطع سأبعث إليك بزميلتى فى المكتب وهى فتاة صينية تتكلم الانجليزية بطلاقة وتستطيع أن تحدثك عن تاريخ هونج كونج أكثر منى ..!

وضحك مرافقى الباكستانى وهو يدخل من باب سيارته قائلا :

— إلى اللقاء غدا . .

ودخلت غرفتى لأجد نفسى وسط سرير عريض تحيط به آلات تليفزيون ، وراديو ، وتليفون ، و . . وأعلام شركات السياحة . . وكتالوجات متاجر المدينة . . وثلاث زجاجات مياه معدنية . . وعلبة شيكولاته تحمل تحيات إدارة الفندق !

ونمت . .

ولم أصح إلا فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى على صوت نسائى رقيق يقول لى فى التلفون ، باللغة الانجليزية :

— صباح الخير . . !

وظننتها عاملة تليفون الفندق توقظنى من النوم حسب موعد سابق ، فقلت لها :

— أرجو أن تبعثى لى بالخادم لكى يحضر لى فنجانا من الشاى . . !

قالت وهى تضحك :

— أنا أقترح أن نتقابل أولا ثم نتناول الشاى معاً . .

قلت فى ضجر :

— مع الاحترام الشديد ، ولكنى أبحث عن فنجان شاى لا عن . . فتاة من هونج كونج !

قالت :

— ومع الاحترام الشديد ، ولكنى جئت خصيصاً لأراك . .

قلت وكأنى أصحو من حلم طويل :

— أنا . . ؟

قالت :

— أجل . . أنت . . !

ثم راحت تذكر لى اسمى . . متقطعا . . متلاحقا . . وكأنها تغنى .

قلت وأنا أرفع نفسى لأجلس فى وسط سريرى فى ذهول :

— أنا أتحدث الآن مع عاملة تليفون الفندق . . أليس كذلك . . ؟

قالت وضحكتها ترف فى أذنى :

— لا ياسيدى ! إنك تتحدث الآن مع الآنسة « كواى » زميلة صديقك الباكستانى ومندوبة مكتب رئيس بلدية كراتشى للترحيب بك . .

وصحت من مكانى :

— حالا ! سأهبط إليك بعد خمس دقائق . .

وبعد عشر دقائق لقيتها واقفة فى بهو الفندق . .

عمود من نور الصين كلها سحر ، وحياة ، وجمال !

وأنا لا أزعم لنفسى الاختصاص فى فن الجمال ، ولكن الجمال الصينى — كالجمال الانجليزى — إذا وجد ، كان أجمل ما فى جمال الدنيا كلها . وكانت « كواى » من نفس هذا الجمال . . وعندما سمعت نفسى أقول لها وأنا أمد لها يدى مصافحاً :

صباح الخير . .

أجابت على الفور وكلها أدب ومجاملة :

صباح الخير . . يا سيدى !

ولكنى لم أكد أفتح فمى لكى أبدأ معها الحديث ، حتى رأيت مندوب شركة الصين للسياحة — وهو أيضاً مندوب الحكومة الصينية — يدخل من الباب الرئيسى ويتجه إلينا ويقول وكأنه يستعجلنى للسفر :

— أمامنا نصف ساعة فقط ، ويتحرك بعدها القطار المسافر إلى الصين .

قلت وكأنى أستغيث وأرجوه :

— هلا سمحت لى بتأجيل السفر لمدة ٢٤ ساعة فقط . .

قال وأمارات الجد التى رأيتها مرتسمة على وجهه منذ أول لحظة على حالها لم تتغير :

— إذن . . موعدنا صباح غد الساعة التاسعة .

وصافحنا وانصرف . .

وسألتنى « كواى » وكأنها تشفق على من نفسى :

— هل ستسافر غدا إلى الصين . . ؟

وبعد عشر دقائق لقيتها واقفة فى بهو الفندق . .

عمود من نور الصين كلها سحر ، وحياة ، وجمال !

وأنا لا أزعم لنفسى الاختصاص فى فن الجمال ، ولكن الجمال الصينى — كالجمال الانجليزى — إذا وجد ، كان أجمل ما فى جمال الدنيا كلها . وكانت « كواى » من نفس هذا الجمال . . وعندما سمعت نفسى أقول لها وأنا أمد لها يدى مصافحاً :

صباح الخير . .

أجابت على الفور وكلها أدب ومجاملة :

صباح الخير . . يا سيدى !

ولكننى لم أكد أفتح فمى لكى أبدأ معها الحديث ، حتى رأيت مندوب شركة الصين للسياحة — وهو أيضاً مندوب الحكومة الصينية — يدخل من الباب الرئيسى ويتجه إلينا ويقول وكأنه يستعجلنى للسفر :

— أمامنا نصف ساعة فقط ، ويتحرك بعدها القطار المسافر إلى الصين .

قلت وكأنى أستغيث وأرجوه :

— هلا سمحت لى بتأجيل السفر لمدة ٢٤ ساعة فقط . .

قال وأمارات الجد التى رأيتها مرتسمة على وجهه منذ أول لحظة على حالها لم تتغير :

— إذن . . موعدنا صباح غد الساعة التاسعة .

وصافحنا وانصرف . .

وسألتنى « كواى » وكأنها تشفق على من نفسى :

— هل ستسافر غدا إلى الصين . . ؟

قلت :

أجل . .

قالت وكأنها لا تصدقنى :

— وهل تترك كل هذا — وأشارت بيدها إلى صالونات الفندق وزواره — لكى تذهب إلى كل . . ذلك . . ؟ — وأشارت بإصبعها فى اتجاه . . الصين !

قلت وأنا أخاطب فيها عاطفتها وغريزة حبها للوطن :

— ولكننى ذاهب إلى بلدك . . إلى أهلك . . أليس كذلك . . ؟

قالت وهى تنتفض غضبا :

— لا . . : إنها لم تعد بلدى . . وأهلها ليسوا أهلى . . أنا من هنا . . ولا يربطنى بما وراء تلك الحدود رابط . !

ولعلها أدركت أنها قد تسرعت فى الإفصاح عن رأيها تجاه بلد من المفروض أن أكون أنا ضيفا عليه ابتداء من الغد ، فقالت وكأنها تعتذر :

— لأجل السماء دعنا من موضوع الصين ، ولنحصر همنا فى مناقشة برنامجنا لهذا اليوم . . أين تريد أن تذهب . . ؟

قلت :

أنا أولى منك بهذا السؤال . .

قالت :

— يجب أن نتفق أولا على المكان لأن صديقك الباكستانى ينتظر منى إشارة تليفونية لكى يوافينا إلى المكان الذى سنذهب إليه . .

قلت وكأنى أهرب بها من « صديقى » الباكستانى :

— دعيه ينتظر . . !

وخرجنا إلى الشارع العام نمشى بخطوات تائهة فى قلب هونج كونج . .

وقطعت « كواى » صمتنا وقالت وهى تشير إلى جزيرة « فيكتوريا » أمامنا :

— هل تريد أن تصعد إلى رأس تلك الجزيرة وترى أجمل منظر للبحر والمدينة ؟

قلت :

— هل هناك شىء آخر . . ؟

قالت :

— الجو بارد . . وإلا لرافقتك إلى شاطىء « ريبلز » . . أجمل مكان للسباحة فى شواطىء الصين كلها . .

قلت :

— وماذا غير الجزيرة ، والسباحة . . ؟

قالت :

— نبقى هنا ، فى « كاولون » التى كانت ذات يوم من القرن الثالث عشر عاصمة للصين كلها . . وملجأ لآخر امبراطور من أسرة « صنج » . .

قلت :

— أنا أكره الأباطرة . . وأكره عواصمهم . !

قالت وهى تشير إلى تمثال بعيد فوق قمة الجبل :

— هل تريد أن نذهب لزيارة ذلك التمثال .. اسمه بالصينية : « وان فوشان » . . وهو يرمز إلى سيدة تقف مرفوعة الرأس ، وقد حملت ولدها خلف ظهرها ووقفت تنتظر عودة زوجها الذى سافر بحثاً عن المال والشهرة ولم يعد . .

قلت وكأنى أسألها عن شىء آخر :

دعيها تنتظر زوجها فى هدوء . .

قالت :

— لم يبق إلا السوق . . والمناطق الجديدة خلف ذلك الجبل . . حيث عشت أنا مع أهلى فى القارب لمدة خمس سنوات . . هل تريد أن ترى أول منزل لى فى هونج كونج . ؟

قلت على الفور :

— أجل !

وركبنا سيارة تاكسى وقالت « كواى » للسائق :

— اصعد بنا إلى . . « شاتين » . .

وبعد لحظات كنا فى الطريق الشمالى صوب حدود الصين . .

ولم أقل « لكواى » لماذا اخترت أن أرافقها لزيارة تلك الضاحية النائية من ضواحى هونج كونج على كل ما عداها من مناطق أخرى تفوقها سحراً وجمالا . ! ولكنى أردت من خلال زيارتى لمنطقة « شاتين » أن أقترب إلى القصة — بل إلى المأساة — الأزلية التى يمثلها آلاف الصينيين فى كل شهر عندما يتسللون تحت جنح الخطر والظلام من وراء حدود الصين إلى هونج كونج . ! إن عائلة « كواى » قد مرت فى مثل هذه الرحلة واشتركت فى نفس الرواية عندما هربت من وراء الحدود وجاءت إلى هنا . ! ولكن مالى استبق الحوادث ولا أدع « كواى » نفسها تروى على مسمعى تلك القصة . ؟ إذ لم تكد السيارة تصعد بنا وراء الجبل وتترك خلفنا هونج كونج ، حتى سمعت كواى تقول وكأنها تبدأ القصة من أولها :

— منذ عشر سنوات وكنت أنا فى التاسعة من عمرى ، قررت والدتى أن تهجر شنغهاى وتهرب بنا إلى هونج كونج . .

قلت مقاطعاً :

— وأين كان أبوك . . ؟

قالت :

— قتله الشيوعيون خلال الحرب الأهلية التى قامت إثر نهاية الحرب العالمية الثانية . .

ثم أكملت تقول . . .

— وكانت أسرتنا تتألف من أمى وثلاث شقيقات وشقيقين اثنين . . وفى الطريق من شنغهاى إلى « كانتون » اعتقلت السلطات أخى ولم نعد ندرى من أخباره شيئاً . ! وفى « كانتون » أخذوا أخى الثانى للخدمة العسكرية ولم نره من ذلك اليوم . . وبقينا وحدنا . . ثلاث بنات مع أمهم ، بلا مال ، ولا عمل ، ولا عائل ! وبدأنا نمشى إلى الجنوب باتجاه البحر . . حتى وصلنا إلى الساحل بالقرب من مصب نهر « البيرل » عند نقطة لا تبعد كثيراً عن المستعمرة البرتغالية المعروفة باسم « مكاو » . . وهناك عبرنا البحر بواسطة السماسرة إلى تلك المستعمرة شأننا فى ذلك شأن الآلاف الذين سبقونا إليها . . وفى « مكاو » قضينا أياما ننام فيها بالقرب من كنيسة « سانت بول » حتى استطعنا الانتقال بالمركب الصغير إلى هونج كونج بعد أن قطعنا أكثر من خمسين ميلا فى البحر . . وفى هونج كونج لم نجد لنا مأوى سوى هنا . . هنا !

وأشارتْ كواى إلى آلاف من السفن الصغيرة المنتشرة داخل الخلجان المحيطة بهونج كونج وقالت وشىء كالدموع يلمع فى عينيها :

— هنا . . فى هذه المراكب الصغيرة عشنا . . ننام ونأكل ونطبخ ونستحم . . نحن وأمى لمدة خمس سنوات طوال تعرضنا فيها للذل ، والجوع والمرض ، والآلام . . حتى استطاعت أمى أن تجد لى عملا عند أحد التجار

الانجليز ، بينما التحقت شقيقتاى بخدمة إحدى شركات السياحة الانجليزية ، وعندما تجمع لدينا بعض المال هجرنا ذلك المركب التعس الذى أضنى حياتنا وانتقلنا إلى المدينة وتزوجت شقيقتى الكبرى من شاب صينى ثرى يعمل فى التجارة ، وهو بدوره استطاع أن يجد لى عملا فى مكتب صديقه الباكستانى . . وها أنت ترى أن شمس حياتنا قد بدأت تشرق بعد عذاب طويل . . . !

وكانت السيارة قد عبرت بنا منطقة « شاتين » ومرت حول الخلجان المتراصة على الشاطىء ووقفت عند منظر عجيب من الصعب أن ينساه المرء لو رآه مرة واحدة . . منظر الآف من السفن المغطاة بالقماش الأسود ، وبداخلها آلاف من الصينيين الذين هربوا إلى هونج كونج من الحكم الشيوعى . فلم يجدوا أمامهم إلا البحر . والسمك . . والأمل !

وقالت لى « كواى » وهى تنظر إلى سفينة قريبة تكاد تلمس قدمها على الشاطىء :

— أليس من حقى بعد هذا أن أعجب من سفرك إلى الصين ، وأن أعود وأسألك : « هل هناك من يترك الأمن والراحة والرخاء ، لكى يعيش الخوف والقلق والجوع ؟ ؟

وأردت أن أنقذ « كواى » من منظر يثير ألمها وينبش ذكرياتها الحزينة فسحبتها من يدها إلى داخل السيارة ، وأنا أقول لها :

— ليس أمامى إلا يوما واحداً أرى فيه هونج كونج . .

قالت وقد بدأت السيارة تعود بنا إلى قلب المدينة :

— لم ترد على سؤالى ولم تقل لى لماذا أنت ذاهب إلى الصين . . ؟

قلت ضاحكا :

— لكى أرى الصين . .

قالت :

— هل أنت شيوعى . . ؟

قلت :

— أبداً . .

قالت :

— وهل هناك من يحب زيارة الصين إن لم يكن شيوعياً . . ؟

قلت :

— بودى لو ترين بلدك بعين عقلك لا بعين عاطفتك . .

قالت :

— وهل أنسى أنهم قتلوا أبى . . وسرقوا أخى . . وجندوا أخى الثانى وصادروا أموالنا . . وحطموا أسرتنا . . ؟

قلت :

— ليس ذلك ذنبهم بل هو ذنب الحرب . والحرب التى قتلت لك والدك لأنه عدو الشيوعية ، هى الحرب التى قتلت السيدة « يانج كاى وى » زوجة الزعيم ماوتسى تونج الثانية عندما قطعوا رأسها لأنها شيوعية ! ! والحرب التى قضت عليك بالمعيشة فوق مركب صغير لمدة خمس سنوات ، هى نفس نفس الحرب التى حكمت على زعيم الشيوعية — ماو — بالسجن فى عام ١٩٢٧ ! والحرب التى رمت بك مع أسرتك إلى الضياع فى رحلة هروب مضنية بدأت بشنغهاى وانتهت بكم على شاطىء تلك المستعمرات البرتغالية . . هى نفس الحرب التى أرغمت خصمك اللدود وزعيم الصين — ماوتسى تونج — على أن يقطع فى عام ١٩٣٤ ذلك « السير الطويل » مشياً على الأقدام لمسافة ستة آلاف ميل على رأس جيش قوامه ثمانين ألف محارب قضى منهم موتا وتشردا أكثر من ستين ألف من بينهم خمسة . . خمسة بالتمام من أطفال « ماوتسى تونج » نفسه . . سقطوا قتلى ! !

قالت « كواى » وكأنها تصيح :

— ولكنى أكرههم .. أكره حكام بلدى لأنهم طغاة .. وأنا أكره الطغاة . !

قلت وكأنى أرى أمامى شبح « شيانج كاى شيك » :

— ولكن الطغيان — إذا صح — لم يكن صفة هؤلاء الحكام الجدد وحدهم . لقد سبقهم إلى ذلك ، بل بزهم وتفوق — بالطغيان — عليهم الرجل الذى كان والدك يحارب فى صفوفه ثم مات بسببه .. وأعنى به شيانج كاى شك . ! إن طغيانه — قبل أى شىء آخر — هو الذى أضاع منه الصين ! فى عام ١٩٢٧ اتفق مع أصحاب البنوك فى شنغهاى على خطة سرية لسحق خصومه الشيوعيين فشهدت الصين مذبحة مروعة تشيب لها رؤوس الأطفال. وبينما كان الزعيم « صن » قد وعد شعب الصين بالديمقراطية والإصلاح والحرية ، جاء حكم شيانج كاى شيك مليئا بالفساد والرشوة والديكتاتورية والبوليس السرى مما جعل صفوف الجيش الصينى تهرب من الخدمة وتنضم إلى صفوف الشيوعيين . !

وسكت قليلا وأنا أتحسس أثر كلامى فى وجه « كواى » قائلا لها :

— ولولا غرور حاكم مثل شيانج كاى شك ، لما كان أمثالك يقيمون هنا فى هونج كونج بعيدا عن وطنهم . إنه هو الذى رفض حكومة ائتلافية مع الشيوعيين بعد الحرب العالمية الأخيرة رغم موقفه المتدهور الخطير . إنه هو الذى استأنف الحرب الأهلية ضد الشيوعيين بعد أن ضرب باقتراحات الأمريكيين للتوسط بينه وبينهم ، عرض الحائط ، وكانت النتيجة على النحو الذى تعرفين . وهرب شيانج كاى شك إلى « فرموزا » فى إبريل عام ١٩٤٩ تاركا وراءه بلداً مخربا مليئا بالدم والحقد والجوع والآلام ..

وقالت « كواى » وكأنها تحاول الوصول معى إلى رأى وسط :

— إن هجومى على الشيوعيين لا يعنى دفاعا منى عن حكم رجل مجنون كشيانج كاى شك . ولكنى كما تعلم صينية الأصل والدم .. وقد علمنا فيلسوفنا « كونفوشيوس » أن نكون مخلصين لأنفسنا وهو ما نسميه عندنا بـ «شنج » Chung ثم أن نجعل علاقاتنا مع الآخرين على أرفع مستوى من إخلاصنا للحقيقة وهو ما نطلق عليه اسم « شو » Shu . ! لقد علمنا كونفوشيوس أن ندعو للرحمة وللكرم وللشجاعة وللحق .. لقد نادى بالمحبة والحب ، ولكن حكامنا الحاليين فى بلادنا قد حطموا كل هذه التعاليم فكانت المذابح والإرهاب والقلق وحمامات الدم على عهدهم ، مما لم يترك لنا خياراً إلا أن نترك لهم البلد ونهرب إلى هنا » ..

ثم سكتت كواى قليلا قبل أن تقول :

— ونحمد الله أن حاجتهم إلى بلد مثل هونج كونج ، يطلون منها على العالم ، ويبيعون بواسطتها منتجاتهم ، ويكسرون من خلالها الحصار المضروب عليهم قد جعلهم يرفعون أيديهم عنها ويحافظون على طابعها القائم على الأقل لمدة لا تقل عن ٣٥ سنة قادمة حسب الاتفاق القائم بينهم وبين الإنجليز فى أواخر القرن الماضى ..

وإلى هنا ، كانت السيارة قد وصلت بنا إلى أمام فندق « البريزيدانت » فقالت لى « كواى » :

— ألا ننزل هنا لكى أتصل بصديقك الباكستانى وأطلب منه المجىء إلى الفندق . ؟

قلت مسرعا :

— بل نستمر فى اتجاهنا ونركب البحر ونصل إلى جزيرة فيكتوريا ثم نركب من هناك القطار المعلق ونصعد به إلى قمة الجبل ونتطلع إلى ماحولنا ، إلى كل ما حولنا ، أنت تنظرين أمامك عبر الحدود تسألين عن أهلك

المشردين فى الصين ، وأنا أنظر إلى الغرب عبر القارة والمحيط أسأل عن أهلى المعذبين فى الدنيا . .

وهكذا كان . .

ولم تكد الباخرة الصغيرة تقطع بنا المسافة بين شاطىء « الكاولون » والجزيرة حتى سمعت « كواى » تقول لى :

— ألا تريد أن تزور المقهى الذى عاشت واشتغلت فيه الشهيرة البائسة « سوزى وونج » . . ؟

قلت وأنا أحاول أن أستعيد قصة « سوزى وونج » فى خيالى :

— وماذا كانت تفعل « سوزى وونج هنا » . . ؟

قالت :

— كما تفعل كل فتاة . . شقية . . معذبة . . جريحة الشرف . . رخيصة المنال . . !

قلت ضاحكا :

— آسف . . ولكنى أشعر أن كل امرأة فى هونج كونج . . تكاد تمثل دور « سوزى وونج » . . أليس كذلك ؟

وظننت أنى بمثل هذا الكلام قد جرحت كبرياء « كواى » فحاولت أن أستدرك وأتراجع لولا أن رأيتها تهز رأسها وتقول :

— هذا صحيح . . ولا تنس أننا فى هونج كونج والمسألة ككل مسألة اقتصادية تخضع لقانون العرض والطلب . فالنساء كثيرات . . والعمل قليل .. والطلب أقل .. وليس أمامهن إلا .. فصلا آخر من فصول حياة الليل الدنسة الشقية . !

وبدأ القطار المعلق يصعد بنا إلى السطح مخترقا الضباب والغيوم حتى

وصل بنا إلى محطته الأخيرة فنزلت « كواى » ونزلت وراءها .. ورأيت نفسى أطل على أجمل منظر فى الوجود ..

مئات من البواخر الكبيرة والصغيرة تمر حولنا فى الطريق إلى اليابان .. والغرب .. وأمريكا !

عشرات من الطائرات تهبط وتصعد من وإلى أنحاء العالم !

وشوارع هونج كونج ، تحتنا بأعلامها وجنونها وفتنتها .

وهواء البحر ممزوجا بهواء الصين يلفح وجوهنا بقوة وعنف !

وصوت « كواى » يمتزح بكلمات أغنية بالإنجليزية عن هونج كونج تقول وكأنها تصلى :

« يا لؤلؤة الشرق .. يا نبع الحب » ..

« لو مللتك .. مللت الحياة » ..

« ولو هجرتك .. هجرت الجنة » ..!

قلت أسأل « كواى » مقاطعاً غناءها :

— هل هى أغنية عن الصين الشعبية ..؟

قالت كواى وهى تقهقه :

— سأسمعك أغنية عن الصين .. غفواً .. بل سأنظمها أمامك الآن .. اسمع هذه أغنية جديدة عن الصين :

« رأيت أخى فى المصنع » ..

« يقف أمام الفرن » ..

« وأختى فى الحقل تزرع » ..

« وأمى فى « الكوميون! » .. »

وأطلقت كواى ضحكة عالية حتى طفرت الدموع من عينيها ..

ثم قالت وهى تبتسم :

— من نوع هذه الأغانى ستسمع الكثير غداً عندما يحملك القطار إلى الصين ! إنهم لا يعرفون هناك معنى الحب .. أو العطف .. أو الشوق .. أو الفراق .. فكل حياتهم مصنع .. وحقل .. وكوميون !

وأمسكت كواى بيدى قائلة :

— هيا بنا ..

ومشت بى صوب محطة القطار المعلق لنهبط به عائدين إلى قلب الجزيرة !

ومن الشاطىء ركبنا القارب البخارى إلى .. كولون ..

وعلى باب فندقى وقفت كواى تقول لى :

— هل تسمح لى الآن بالانصراف ؟ إن المفروض أن أسجل اسمى على دفتر الحضور فى الشركة قبل عطلة الظهر .. والساعة الآن تقارب الواحدة ..

ومدت يدها تصافحنى قائلة :

— أرجو أن أراك قبل سفرك ..

ثم مشت إلى موقف الأتوبيس ولوحت لى بيدها وهى تدخل فى الطابور الذى ينتظر على المحطة بينما كان بواب فندق البريزيدانت يفتح أمامى الباب ويدعونى للدخول ..

وغابت عنى « كواى » ..

ولم أرها طيلة ما تبقى من ساعات ذلك اليوم ..

وفى تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ، كان صوت صديقى الباكستانى يلعلع فى التليفون الملاصق لسريرى وهو يقول :

— أنا . . وكواى . . ننتظرك فى بهو الفندق . .

وأنهيت إعداد حقيبتى بسرعة ، وارتديت ثيابى ، ونزلت . .

ورأيت العمود من نور الصين . . بكل سحره وجماله ، يقف فى منتصف البهو وفى يده باقة ورد صغيرة وعليها مظروف لم أكد أفتحه حتى قرأت فيه كلمتين اثنين :

« عد بسرعة » . .

والإمضاء : كواى

وشكرتها . .

وركبنا السيارة إلى المحطة . .

وقالت لى والقطار المسافر إلى الصين يطلق صفارته الأخيرة :

— احرص على نفسك من برد الصين . .

ثم غمزت لى بعينها وقالت ضاحكة ويدها فى يدى :

— ولا تصدق كل ما تسمع . . ولا تثق بكل من تقابل . !

وتحرك القطار . .

وغابت هونج كونج . . وكواى . . وذكريات الأمس كلها ، وراء تنهيدة طويلة لم أستطع حبسها طويلا ...



الفصل الثاني

كانتون تروي قصتها !

« الذين عاشوا شرفاء وسقطوا أبطالا »
شوان لاى

« الشهداء يعيشون أبدا »
ماوتسى تونج



بعد ساعة واحدة سأكون على الحدود . .

وكلما اقترب القطار بى من حدود الصين ، كلما تضاعفت وطأة الأسئلة المتلاحقة فى ذهنى تلح على وكأنها تصيح :

ما الذى جاء بك إلى الصين . . ؟

وعلى صوت عجلات القطار المهتز فى نغم رتيب لا يتبدل ، كنت أحاول أن أجيب :

— أنا جئت إلى الصين لأنى صحفى وكاتب يبحث عن كل شىء جديد . .

ثم أسكت قليلا قبل أن أعود وأقول :

لا ! بل إننى جئت إلى الصين لأنها أول دولة كبرى فى العالم قد أعلنت موقفها التأييدى المطلق من حقوق العرب عامة ، وحقوق شعب فلسطين — بلدى — خاصة . .

ثم أعود وأسكت قليلا ، لـكى أعود وأهمس قائلا :

— وهل من المعقول أن أرفض دعوة إلى الصين فى مثل هذه المرحلة الفاصلة من تاريخها ، وعيون العالم كله تتطلع إليها ، ودخان أول قنبلة ذرية يتصاعد إلى السماء فى أرضها ، وفى موسكو يخرج أقوى رجل فى الاتحاد السوفييتى من منصبه ، بسببها . . ؟ ؟

وأتطلع عبر الأرض الواسعة وراء نافذة القطار وكأنى أفتش فوقها عن خبر أسلى به طريق رحلتى ، فلم أجد أمامى سوى مزارع ساكنة لاتكاد تختلف شيئاً عن حقول الأرز فى مصر أو حقول القمح فى سوريا ، أعود فأحدث نفسى قائلا :

— هذا عمل صحفى أولا وأخيراً ، وأنا لا يهمنى إن كنت سأكتب قصة رحلتى هذه على الورق أم سأطويها ، كما لا أدرى إن كنت سأحول الخطوات إلى كلمات ، أو الكلمات إلى صفحات . . ثم لا أدرى إن كان مصير ماسأكتبه ينتهى عند صحيفة يومية أو كتاب خاص . إنّ كل هذا لا يعنينى . أنا جئت إلى هنا لأرى ربع سكان المعمورة . . وقوة أشبه بحمى البراكين مختفية وراء ستار حديدى لن يمضى وقت طويل حتى تنفجر وتنفث حممها ويشعر العالم — كل العالم — بوطأتها وخطورتها . .

ولم أفق من هذا الحديث المتقطع الهامس ، إلا على صوت ركاب القطار وقد بدأوا يجمعون أمتعتهم ويتجهون إلى أبواب القطار وعيونهم تتطلع عبر النوافذ وألسنتهم تقول :

— هذه هى الحدود . .

وأطل برأسى من النافذة ، فإذا بالعلم الأحمر وعلى زاويته النجوم الصفر ، يخفق فى تيه وفخار . .

وأحمل حقائبى ، ومجموعة ما عندى من آلات تصوير ، وسينما ، وكتب وأهبط سلم القطار وراء موظف يقودنا جميعاً إلى قسم الجوازات . .

هنا محطة « شنج شونج » الصينية . .

وهنا — كما يقولون — يبدأ الجد . .

موظف يجمع جوازات السفر ، ولا يعيدها إلا بعد اجتياز الحدود . .

وموظف آخر يوزع علينا أوراق « الاعترافات » التي تتضمن عشرات من الأسئلة . . عن المبلغ الذى يحمله المسافر . . ونوع المبلغ . . وآلات التصوير ، ونوعها ، وعدد الأفلام التى لم تستعمل ، والعدد المستعمل منها . . والكتب ، والأوراق والخرائط ، وعدد الشنط ، وشنط اليد ، والساعة ونوعها وهل هناك جواهر . . إلخ . . إلخ . .

فإذا انتهى كل ذلك ، نادانا الموظف بأن نتبعه ، فيمشى هو أمامنا ونمشى نحن وراءه . . فوق ذلك الجسر الحديدى الضيق الذى يفصل أرض الصين عن هذه المستعمرة البريطانية . .

وأخيرا . . ها نحن فى الصين . .

كل شىء يؤكد ذلك ، حتى انعدام منظر الشحاذين من أمامنا . .

وأتلفت حولى فأجد نفسى وسط مجموعة من التجار الإنجليز وقد جاءوا لزيارة معرض « كانتون » الصناعى الذى يفتح فى كل ربيع وكل خريف من كل عام . .

وفيما عدا ذلك ، لا أحد . .

لا أحد مطلقاً . . !

وصعدنا إلى الطابق الثانى من العمارة التى تتصدر المحطة ، وجلسنا فى بهو صالون واسع ننتظر وصول القطار الذى سيقلنا إلى كانتون . . وإذ بشابين صينيين يدخلان إلى الصالون ويناديان باسمى . . فأنهض واقفاً . . فيتقدم أحدهما نحوى ويحنى رأسه وهو يقدم لى اسمه : « فوسو شان » مندوب « اتحادات عمال كل الصين » لمرافقتى إلى بكين . . ثم يقدم لى رفيقه : « شن رى ان » سكرتير جمعية صحافة الصين فى مدينة كانتون . . والموفد لاستقبالى على الحدود . .

وأقول :

— تشرفنا . .

ويقول أحدهما :

— سنتناول طعام الغداء هنا ، ثم نركب القطار إلى كانتون . .

وأسأل عن حقائبي فيرد مندوب اتحادات العمال وهو ينحني أمامي :

— لقد مرت الحقائب من التفتيش وأصبحت على رصيف المحطة تنتظر القطار . .

قلت :

— وجواز سفري ؟

قال :

— نستلمه في القطار . .

وجلسنا إلى إحدى موائد المحطة نتناول الغداء . .

مندوب اتحادات عمال « كل » الصين عن يميني ، ومندوب جمعية صحافة « كل » الصين عن يساري ، وأنا في الوسط ، والحديث ينطلق باللغة الصينية من جانب مندوب الصحافة فيتولى مندوب الاتحادات مهمة ترجمته إلى الإنجليزية ، فأرد أنا بالإنجليزية ، فيتولى المندوب العمالي ترجمته إلى الصينية فيرد مندوب الصحافة على كلامي بالصينية فيتولى المندوب العمالي ترجمته إلى الإنجليزية . . وهكذا . .

وقد لاحظت أن مندوب الصحافة هو رئيس الوفد ، وأن مهمة مندوب الاتحادات تقتصر على الترجمة . . فقط . . إذ ليس من حقه أن يرد على أي سؤال من أسئلتي إلا بعد ترجمته حرفياً إلى مندوب الصحافة الذي يتولى هو — وحده — مهمة الرد . .

وقد تكررت هذه العملية طيلة مدة إقامتى وتنقلاتى فى الصين .. أعنى وجود فرد واحد يتولى مهمة الرد على الأسئلة وإدارة دفة الحديث مهما يكن عدد المراقبين حولى ومهما يكن نوع الحديث أو نوع الأسئلة التى تدور بيننا ..

لقد تكرر هذا فى كانتون — وفى شنغهاى — وفى « هنج شاوو » — وفى بكين — وفى كل المصانع — والمرافق التى زرتها .! شخص واحد هو الذى يقود الجلسة ، ويمارس حق الكلام .. ويرد على الأسئلة .. ويقدم ما عنده من معلومات ؛ أما الباقون فإنهم — باستثناء المترجم أو المترجمة — يلتزمون الصمت التام .. بعضهم يسجل ما يسمع ، وبعضهم يراقب ما يجرى ، وبعضهم يقرأ أثر الحديث فى وجهى ، وبعضهم يراقب الذى .. يراقب غيره !!

وكان « فوشان » — مندوب الاتحادات — يبدو بجانبى سعيداً ، مرحا ، يحاول أن يجعل كل ما فى بلاده أنشودة حلوة يترنم بها أمامى .! قلت له إننى أرجو أن يكون القطار سريعاً ومريحاً إلى كانتون ، فأجاب على الفور بعد أن نقل السؤال إلى مندوب الصحافة وتسلم منه الجواب :

— قطاراتنا سريعة .. ومريحة .. ونصنعها محلياً فى بلادنا .. ولا نستورد شيئاً منها من الخارج .. وهى تسير على الديزل أو الفحم لا على الكهرباء .. ولكنها — كما هو معروف — تضاهى أعظم القطارات فى العالم !

ونظرت إلى مبنى المحطة حولى فقلت أنه مبنى يضم — كما أرى — جميع أسباب الراحة من مطعم وفندق وغيره ، فأجابنى « فوشان » ، بلسان « شن فو » :

— لقد بنينا هذا المكان بعد حرب التحرير .. أما قبل ذلك ، فلم يكن هنا سوى غرفة واحدة يسكنها ضابط بوليس ومساعده ..

عـال . .

ومضى الحديث بملاحظة عابرة منى ، تتبعها محاضرة لا بأس بها « منهما » حتى كان موعد قيام القطار إلى كانتون ، فنهض « شن فو » واقفاً وكأنه يدلنى على قطار خاص قد وقف فى انتظارى :

— القطار ينتظر . .

وهبطنا إلى الطابق الأرضى ، ومشينا صوب القطار باتجاه آخر جزء منه ، ووجدنا أنفسنا نحن والفرقة التشيكية الرياضية العائدة إلى بلادها من دورة طوكيو ، فى صالون واحد !

وكان بين الفريق « التشيكى » الفتاة التشيكية الرائعة التى فازت بثلاث ميداليات ذهبية دولية فى بطولة الجمباز . . فقلت لمرافقى وأنا أنظر إليها :

— هذه بطلة العالم فى الجمباز . !

قال « فو » بلسان « شن » :

— نحن لم نشترك فى الدورة وإلا لما تركنا لغيرنا « ميدالية » واحدة . !

ولم يكترث أحد منهما بالنظر إلى أجمل جسم رياضى فى العالم . .

وتحرك القطار . .

وكانت الساعة قد أشرفت على الواحدة والنصف . . فقال لى « فو » وكأنه يطمئننى :

— سنصل بعد ثلاث ساعات . . فقط !

وبدأنا حديث الرحلة بموضوع الصحافة عندما طلبت من « فو » أن يحدثنى عن الصحافة فى بلاده ، فقال بعد التشاور مع « تشن » :

— لا أعرف تماما عدد الصحف فى الصين . . ولا أعرف أسماءها . . . ولا أرقام توزيعها . . ولكنى أستطيع أن أحدثك عن الصحافة هنا . .

فى الجنوب . . فى « كانتون » مثلا . . إننى أعمل فى جريدة اسمها « نانج فانج » ومعناها « الجنوب » . . وهى توزع نحو مائتى ألف نسخة فى اليوم . . ورئيس تحريرها « وانج ونج » وقد كان قادماً لاستقبالكم على الحدود لولا انشغاله بزيارة أحد « الكوميونات » فى المنطقة واضطراره للبقاء هناك مدة أطول يدرس خلالها مشكلات الكوميون وأحواله .

قلت متسائلا :

— وهل من مسئولية رئيس التحرير أن يذهب إلى الكوميون ؟

قال :

— كل رئيس تحرير فى الصين يقيم فى أحد الكوميونات شهراً واحداً من كل عام ، وينام ويأكل ويعمل خلال ذلك الشهر مع أهل الكوميون . . فيتعرف على قضاياهم . . ويرى بنفسه أحوالهم ويستطيع عندما يعود إلى مكتبه أن يكتب على ضوء ما رأى وما سمع . . وهذه قاعدة مأخوذ بها . . فى كل الصين .

قلت « لفو » :

— وإذا كتب رئيس التحرير شيئاً لم يوافق عليه الشعب ، فهل من حق الشعب أن يرد على رئيس التحرير . . ؟

قال فو :

— أجل . . من حق أى فرد أن يكتب إلى رئيس التحرير وأن يرد عليه . .

ثم استطرد فو يقول :

— ولكن لا يعنى ذلك — أبداً — أن من واجب رئيس التحرير أن يبادر إلى نشر رد ذلك المواطن فى جريدته .

فقلت وأنا أبتسم :

— مفهوم . .

وفجأة ، انطلق فى داخل القطار صوت نسائى يصيح من وراء المذياع بقوة وعنف واستمرار فسألت فو عن ذلك فقال :

— إنها مذيعة القطار تتحدث إلى الركاب عن فوائد النوم . . وتطالب العمال بألا تقل مدة نومهم عن ثمانى ساعات . . فى اليوم الواحد . . وأن لا يكون موعد النوم بعد انتهاء الأكل مباشرة . . لأن ذلك يؤثر على الصحة . . وصحة العامل شرط أساسى فى حياة الدولة . . بالنسبة للإنتاج والقدرة والمواظبة . . » !

ومضت ساعة وأكثر وصوت مذيعة القطار يغلب على كل صوت آخر . . حتى على صوت عجلات القطار نفسه . . وعندما اقترب القطار من كانتون انتقلت المذيعة فى حديثها الهادر إلى موضوع كانتون — وتاريخها . . وجهادها . . وحروبها ، ولما طلبت من « فو » أن يترجم لى شيئاً من ذلك ، أجابنى :

— إنها تتحدث عن تاريخ « كانتون » وهو الشىء الذى ستسمعه منا عند وصولك بالتفصيل . .

وبعد ثلاث ساعات كان القطار يقف بنا على محطة كانتون . .

إنها — كانتون — أخيراً . .

ورأيت من شرفة القطار وفدا آخر . . ينتظرنى على رصيف المحطة !

وبين أعضاء الوفد فتاة تحمل فى يدها باقة زهور — لم أكد أهبط من سلم القطار حتى تقدمت « سى توشين » وهذا هو اسمها ، وهى نائبة السكرتير العام لاتحاد صحافيي الصين ، فى مدينة كانتون ، وناولتنى الزهور

وكأنها تؤدى أمامى تحية عسكرية ، ثم قدمت لى زملاءها بصورة سريعة ، ومشينا معاً على رصيف محطة كانتون وسط صورة زيتية ضخمة لستالين ولينين وماركس ، وعبارات حمراء بارزة بحروف كبيرة على الجانبين تهتف بحياة الاشتراكية . . والعمال . . ووحدة الشعوب . . وسقوط الاستعمار . . حتى خرجنا من الباب الرئيسى واستقلينا السيارة إلى فندق « يانج شين » وإلى الغرفة ٦١٦ بالذات !

ومن عادة أهل الصين — كما بدا لى — مرافقة ضيوفهم إلى غرفة نومهم . .

فقد صعد معى إلى الغرفة جميع أعضاء الوفد الذى استقبلنى على الحدود ، يضاف إليهم جميع أعضاء الوفد الذى استقبلنى فى محطة كانتون . . وعندما ضاقت بهم مقاعد الغرفة ، جلسوا على السرير ، وعلى الحقيبة ، وعلى خشب النافذة ، وجلست أنا وسطهم لا أدرى سر هذه الحفاوة الغريبة التى تفرض على المضيف أن يلازم ضيفه إلى غرفة النوم ، حتى سمعت السيدة « سى » تسألنى :

— متى تريد أن تتناول طعام العشاء . . ؟

قلت دون اكتراث :

— فى الثامنة . . مثلا . . ؟

وارتسمت علامات التعجب على وجوههم جميعاً وقالت « سى » :

— بل سنمر عليك فى تمام . . السادسة . !

واستسلمت لأمرهم . .

وعادت « سى » تسألنى :

— هل تحب أن تتذوق طبق الأكل الذى اشتهرت به مدينتنا كانتون ؟

قلت على سبيل المجاملة :

— طبعاً . . طبعاً . . كل ما يأكله أهل كانتون يعجبنى . . !

وارتسمت علامات السعادة على وجوه أعضاء الوفد وقالت « سى » بلسانهم جميعاً :

— إذن سنأكل الليلة الطبق الذى نسميه عندنا « الوحش والأفعوان والنمر » . .

قلت وكأنى أستغيث :

— وما هو « مضمون » هذا الطبق . . ؟

قالوا :

— خليط من لحم الكلاب والحية . . والقطة !

وكدت ألفظ جميع أحشائى وأنا أصيح :

— لا . . أنا لا آكل اللحوم . . ولا نوعا من أنواع اللحوم . . أنا مريض . . أعيش فقط على لبن الزبادى والفواكه . . .

قالوا وكأنهم يفسرون الموضوع :

— ولكن لحم الحية الذى نطبخه ليس من الحيات العادية . . إنها « أفاعى » نتولى « نحن » تربيتها على أيدينا . . كذلك الأمر بالنسبة للكلاب والقطط . .

قلت وأنا أرفع يداى مستجيرا :

— ولو . . ولو . !

قالوا :

— ولكننا لا نستطيع أن نقيم لك حفلة تكريم لا تتضمن سوى الفاكهة ولبن الزبادى . . إن أهل مدينة « شانج شا » فى مقاطعة « خونان » فى الصين يأكلون مع ضيوفهم الكلاب فقط أما نحن فنقدم إليهم الكلاب ممزوجة بالأفاعى والقطط زيادة فى تكريمهم . .

قلت :

— أنا مستعد أن أعوض الأكل بالشراب . ! سأشرب من نبيذكم المفتخر على صحة ثورتكم وصحة الرئيس « ماو » وصحة « كانتون » وصحة اتحاد الشعوب وصحة العمال ، وصحة الصين .. وهكذا حتى لا يعود هناك مكان للأكل أو للشراب ..

وتناقشوا جوابى فيما بينهم ثم سألونى وهم ما زالوا جلوسا وسط غرفتى وعيونهم مركزة على جسمى :

— ألا تريد أن تغتسل أو تبدل ثيابك .. ؟

قلت وأنا أنظر إليهم وكأن الأمر لا يحتاج إلى تفسير :

— لا ..

قالوا :

— إذن نبدأ جولتنا فى المدينة ، فوراً ..

وهززت رأسى موافقاً ..

وغادرنا الفندق فى سيارتين نجوب بهما شوارع كانتون حتى وصلنا إلى ربوة عالية تطل على « الاستاد » الرياضى فوقفنا والسيدة « سى » رئيسة الوفد تقول لى :

— هذا هو الـ « ريف شو » .. يتسع لخمسين ألف شخص . !

ولم نكد نقف لحظة حتى جاءت سيارة ثالثة تحمل وفداً ثالثاً .. ونزل من السيارة شاب فى الثلاثين لم نكد نراه حتى صاحت السيدة « سى » :

— هذا هو السيد « شياوتسى شى » رئيس تحرير جريدة « نان فانج » اليومية الصباحية فى « كانتون » ..

ومد السيد « شياو » يده مصافحاً وهو يقول :

— يبدو أنكم ما زلتم فى أول الجولة ..

قلت :

— هذا صحيح . .

قال وهو يشير إلى « الاستاد الرياضى » الذى أمامه :

— نحن نفخر بهذا المكان . . كما نفخر بما تضم مدينتنا من أماكن « ثورية » لم يكن لها وجود قبل انتصار حرب التحرير ! سترى هنا مثلا مقبرة الشهداء التى بنتها الثورة . . وتمثال الجندى المجهول . . وتمثالا آخر لشهداء يونيو ١٩٢٥ . . فمدينتنا — كانتون — كلها ثورات . . وكلها شهداء . . وكلها تماثيل . !

ومشينا إلى مقبرة الشهداء وهى أشبه بالحديقة التى تضم مقبرة القتلى السوفيات فى برلين الشرقية . .

ومنها ، إلى ساحة « هاى شو » وقد توسطها تمثال ضخم للجندى الصينى المجهول . .

ثم إلى شاطىء نهر « البيرل » الذى يخترق المدينة ، وعلى ضفته تمثال كبير لشهداء ثورة ١٩٢٥ الذين « يعيشون أبداً وقد أعطوا حياتهم للنضال ضد الاستعمار » . .

وعاد مرافقى « شياو شى » رئيس تحرير جريدة « نان فانج » يقول :

— بلدنا بلد الثورات . ! هنا بدأت حرب « الأفيون » بقيادة الحاكم الوطنى الثائر « لين تسى سو » الذى حاصر تجار الأفيون من إنجليز وأمريكيين فى مناطقهم واستولى على جميع ما فى حوزتهم من بضاعة الأفيون ، فأعلن بذلك العمل ، الحرب ضد هذا الوباء القاتل فى الثالث من يونيو عام ١٨٣٩ .

ثم قال :

— وهنا ، نزل — أول ما نزل — الاستعمار البريطانى بسفنه الحربية

وبوارجه التى دخلت عبر نهر « البيرل » وراحت تطلق مدافعها على السكان دون تمييز . !

وهنا ، قاومنا نحن أهل كانتون — أعنى : أباؤنا وأجدادنا — هذا العدوان وحاربنا بشجاعة ، وشرف ، وعناد . ! »

« كذلك — هنا — انطلقت أول شرارة فى ثورة صن يات سن !

« وهنا ، وصلت الحركة الشيوعية العمالية إلى ذروتها ، فتعرض أهل هذه المدينة إلى حقد شيانج كاى شك ، وجبروته ونقمته . .

« وهنا — فى هذا البلد — عاشت الجمعيات والأندية السرية ضد الاستعمار وضد الرجعية ، وضد الاستغلال !

« ومن هذا البلد ، انطلق مئات الآلاف من المهاجرين الصينيين إلى بلاد آسيا وأمريكا ، بحثاً عن المال ، والعمل ، والمغامرات . .

« لهذا — وبكل هذا — يحق لنا أن نفخر بمدينتنا . .

وسكت زميلى « شياو شى » وكأنه يسترد أنفاسه الملتهبة وقال :

— انظر . . أمامك من بعيد تبدو الساحة التذكارية لشهداء كانتون . . هل أحدثك عن قصة هؤلاء الأبطال . . إنهم الذين أعطوا حياتهم للوطن ضد حكم الطاغية شيانج كاى شك فى ثورة ١١ ديسمبر ١٩٢٧ بقيادة الرفيق « شانج تاى لى » . ! لقد استطاعوا بعد مرور ساعتين فقط على قيام الثورة احتلال كانتون كلها ، وهرعت النساء والأولاد إلى صفوف الثوار ، وأعلنا حكومة ثورية شيوعية خاصة . . ونشرنا مبادئنا . . وبدأنا نضع منهاجنا الثورى موضع التنفيذ . . لولا أن التجأ الطاغية الرجعى « شيانج كاى شك » إلى دول الاستعمار من الإنجليز والأمريكان والفرنسيين واليابانيين ، فعادوا إلينا بقواتهم العديدة ودخلوا ضدنا فى حرب وحشية دامت ثلاثة أيام متصلة

انتصروا بعدها علينا ، فمضوا فى عملية انتقام رهيبة قتلوا خلالها بالدم البارد أكثر من ستة آلاف شخص من الثوار . . من بينهم عدد من أعضاء القنصلية السوفياتية فى كانتون ! وعلى تلك الساحة . . فوق الربوة التى تمت على أرضها عمليات إعدام الثوار بيد « وحوش » « شيانج كاى شك . . أقمنا الساحة التذكارية محاطة بالأشجار . . ملفوفة بالذكريات يحج إليها كل طالب وكل مفكر وكل عامل يريد أن يؤدى تحية الوفاء « إلى الذين عاشوا بشرف وسقطوا أبطالا » . .

وقلت للسيد « شاو شى » ونحن نعود لنركب سياراتنا وأعضاء الوفد من حولنا فى طريقنا إلى قلب كانتون :

— ولكنى لاحظت أن مدينتكم هذه لم تأخذ من عناية الدولة ما تستحقه بجهادها وطول كفاحها . . ؟

قال :

— ماذا تعنى . . ؟

قلت :

— أرى شوارعها كشوارع « إيران القديمة » مكتظة ، ومهملة . . وأرى شواطىء نهرها مخربة قذرة . . وأرى الأطفال يلعبون فى الشوارع بدلا من الحدائق والميادين . . وأرى النساء على الأرصفة بدلاً من الشرفات !

قال مقاطعاً :

— ولكن كانتون هى اليوم أكبر مدينة صناعية فى جنوب الصين . .

قلت :

— إنك تحاول أن ترى الجانب الآخر من الموضوع . . أليس كذلك ؟

قال مستطرداً وكأنه لم يفهم كلامى :

— إن معرض « كانتون » قد أصبح شيئاً عالمياً بالنسبة للتجار والصناعيين فى العالم ! إن الزوار من خمسين بلد قد جاءوا إليه فى الشهور الثلاثة الماضية ! إنه يضم أكثر من عشرين ألف نوع من المعروضات فيها أكثر من سبعين فى المائة تعرض لأول مرة . . وفى المعرض حوالى أربعة آلاف نوع من الصادرات الحريرية وحدها التى نصنعها فى بلادنا . .

قلت أسأله :

— لعل الإنجليز هم أكثر التجار تعاملا معكم . . ؟

قال :

— لا . ! بل هم تجار اليابان . . إنهم يشترون منا المأكولات . . والمعدنيات . . والأملاح ويحاولون بيع منتجاتهم . . لنا .

وسألنى « شياو » :

— هل تحب أن تطلع على مثل حى من حياتنا الصناعية . . ؟

قلت :

— يا ريت . .

قال :

— نذهب غداً صباحا إلى أكبر مصنع للورق فى جنوب الصين . . إن صناعة الورق جزء من صناعة . . الصحافة ، أليس كذلك . . ؟

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى — والعمل فى الصين يبدأ مع الفجر لأسباب لا زلت أجهلها — كان خمسة أشخاص بانتظارى فى بهو فندق « يانج شين » لمرافقتى إلى زيارة مصنع الورق . .

وحملتنا السيارات إلى الجنوب الشرقى من مدينة كانتون على بعد عشر دقائق من قلب المدينة . .

ووقفنا عند المبنى المخصص لإدارة المصنع فوجدنا المدير المختص يقف على بابه ينتظرنا — وهذه عادة لا يخرج عنها أهل الصين — فرأيت نفسى وسط مجموعة هائلة من الصور المعلقة لزعماء الشيوعية وأقطاب الصين وعلى رأسهم ماوتسى تونج ، وليو شاو شى رئيس الجمهورية وشوان لاى رئيس الوزارة ، ثم زعيم الحزب ورئيس اللجنة الخاصة ونائبه . . إلخ ، صور تملأ جدران الغرفة محاطة بالأعلام الشيوعية والأعلام الصينية والعبارات المنسوبة إلى الزعيم ماو . . فى شكل يدل على كل شىء ، ويفسر كل شىء . ! ومن عادة شعوب العالم أن ترفع صور زعمائها . . أما فى الصين فقد لاحظت أنهم يستعيضون عن صورة الزعيم « ماو » بتماثيل حجرية أو برونزية له يضعونها فى مداخل المصانع والمعارض بحجم كبير ، ويكتفون برفع صور فوتوغرافية لبقية الزعماء . .

وكالعادة — جاءت الخادمة بالشاى الخالى من السكر — فلما انتهينا منه ، بدأنا نتجول داخل المصنع . .

وتولى المدير المختص الحديث بالإنجليزية ، وتولت « سى شين » نائبة سكرتير الصحافة مهمة الترجمة ، وتوليت أنا مهمة . . الاستماع !

وقال المدير :

— إن حكومة العهد البائد « المنحرفة الرجعية » هى التى قررت أن تبنى هذا المصنع عام ١٩٣٣ . . ولكنها لم تنفذ قرارها إلا فى عام ١٩٣٧ وبعد عام واحد دخل اليابانيون المستعمرون واستولوا على المصنع . .

قلت :

— ثم ماذا . . ؟

قال :

— وفى عام ١٩٤٥ وبعد استسلام اليابان ، استطعنا أن نستعيد

هذا المصنع ، ولما حررنا كانتون من حكم « شيانج كاى شك » بدأنا نعمل على تجميع أقسامه المختلفة فلم ننته منها إلا فى عام ١٩٥١ حيث بدأنا العمل رسمياً . .

قلت وأنا أمشى برافقى إلى خارج المبنى هروبا من الهواء الخانق فى الداخل :

— ثم ماذا . . ؟

قال المدير :

— ننتج كل ٢٤ ساعة — والعمل هنا لا يتوقف طيلة الـ ٢٤ ساعة — نحو مائتى طن من الورق . . منها ورق الصحف وورق اللف وأنواع أخرى من الورق التجارى ، والمصنع يضم ألفين وخمسمائة عامل سدسهم من النساء ، وساعات العمل لا تتعدى الثمانية فى اليوم . . وأجرة العامل فى الشهر لا تزيد عن ٧٥ « يوان » صينى . . أى نحو ثلاثين دولار . .

ثم استطرد يقول فى فخر :

— وهذا أكبر مصنع للورق فى جنوب الصين ، وعليه تعتمد جميع الصحف فى هذه المنطقة ، كما نقوم بتصدير كميات وفيرة إلى الخارج حيث نسلمها إلى وزارة التجارة الخارجية التى تتولى — هى — مهمة تصديرها إلى البلاد الأخرى . . وهناك مصنع آخر ، أكبر ، للورق فى مدينة «جى لنج» فى شمالى شرقى الصين ، ولكننا — على كل حال — فخورون بمصنعنا الذى الذى حررناه من الاستعمارين : اليابانى ، والرجعى !

وبعد ساعتين ودعت المدير المختص قائلا وكأنى أعتذر :

— كان بودى أن أقضى معك وقتاً أطول لولا أن الطائرة المسافرة إلى بكين تنتظرنا فى المطار . .

فقاطعتنى « سى شين » بعد نقاش مع زملائها ، تقول :

— إذا كانت لديك أسئلة أخرى فإننا نستطيع أن نؤخر قيام الطائرة . !

قلت وأنا أصافح المدير مودعاً :

— لا . . لقد اكتفيت . . إننى أحلم — أيضاً — بالوصول إلى بكين . .

وعادت بنا السيارة تقطع شوارع كانتون فى الطريق إلى المطار . .

وعاد صوت « شياو شى » — الزميل الصحفى — يلعلع فى الحديث عن أمجاد كانتون . .

من هنا ، دخل جيش الثوار بعد سيره فى « الموكب الطويل » . . . .

ومن هذا الطريق خرج جيش التحرير مطارداً فلول الخائن شيانج كاى شك . .

ومن هنا عبر جيش المستعمرين يحاول سحق ثوراتنا ضد الجشع والاستغلال . .

وتلفت حولى فلم أجد فى شوارع كانتون كلها سيارة خصوصية واحدة . . أو سيارة أجرة صغيرة . . واحدة ! إن البسكليت وحدها هى وسيلة النقل للقادرين ، والباصات الكهربائية هى وسيلة النقل للعاجزين . وفيما عدا ذلك ، بدت شوارع كانتون خالية . . خاوية . . حتى من أهلها !

أين أهل كانتون . . ؟

وأجابنى « شياو » والسيارة تقف بنا أمام مطار كانتون :

— إنهم فى المصانع . . أو فى الكوميون . .

ثم سكت « شياو » قليلا قبل أن يكمل :

— أو تحت التراب . . فى قبور الأبطال الخالدين ! !



الفصل الثالث

هذه عاصمتنا الحبيبة ..

« . . سأنسج حبلا من صوف الماشية حتى يصل بى إلى مدينة بكين . . ويقطع آلاف الأميال عبر التلال والأنهر والسماء ولا يقف إلا عند بوابة بكين . .

فهناك الجنة . . »

« أغنية صينية »



الطائرة السوفياتية من طراز « ى . أر ١٨ » تمضى بنا مع الليل ، فى اتجاه . . بكين !

ولكن كل ما فى داخل الطائرة . . صينى !

الركاب كلهم — ما عدا واحدا — صينيون ، وقواد الطائرة صينيون ! والأكل صينى ! والمضيفات — طبعا — صينيات ! ولباسهن صينى . . حيث لا فساتين ولا تبرج وإنما جاكيت أزرق مقفول وبنطلون أزرق مهلهل . . والحديث حولى كله بالصينية ، وتعليمات القائد إلى الركاب تنطلق بالصينية ، وأتلفت حولى فلا أجد سوى السيد « فوسوشان » مندوب اتحادات العمال الذى استقبلنى على الحدود ، جالسا بجانبى مصراً على ملازمتى حتى آخر لحظة وتسليمى على الوجه المطلوب إلى أصحاب الدعوة فى بكين . . فأقول له :

— أليس فى الطائرة جرائد أو مجلات يتسلى بها الركاب . . ؟

فيهز مرافقى رأسه علامة الإيجاب ، وينهض من مقعده مسرعا إلى مقدمة الطائرة حيث يفتح درجا صغيراً ويسحب منه مجموعة ضخمة من الصحف والمنشورات لا أكاد أنظر إليها حتى أجد فيها نسخا مكررة لما تصدره دوائر النشر والدعاية فى الصين من نشرات دورية تحمل أسماء : « الصين تبنى نفسها » . . أو « بكين فى أسبوع » . . أو « المرأة فى الصين » . . أو « الفلاح الصينى » . . الخ . . الخ ، فأبتسم لمرافقى شاكراً ، وأمضى أقلب النشرات فى سرعة لا تخلو من عصبية حتى أنتهى منها فى لحظات ، فألتفت إليه مرة أخرى أسأله :

— أليس فى الطائرة صحف أجنبية . . انجليزية . . أو فرنسية . . عربية . . مثلا ؟

وبالأدب الجم الذى اشتهر به أهل الصين ، يرد مرافقى قائلا :

— لا ! وهذا مؤسف حقاً . . حقاً ! ولكن ليس فى الطائرة إلا صحف صينية . . وأرجو ألا يسبب لك هذا أى ضيق !

قلت وأنا أنتقل بالحديث إلى موضوع آخر :

— بودى لو أعرف موقعنا بالضبط على الخريطة . . ؟

ونهض مرافقى مرة أخرى من مقعده ، واتجه إلى غرفة القيادة ، ولم يعد إلا ومعه قائد الطائرة الذى لا يختلف فى بزته الرسمية عن بزة أى عامل صينى عادى ، حيث لا أوسمة ولا شرائط ولا ألوان ، بل بنطلون أزرق وجاكيت أزرق . . وصوت خافت مؤدب يقول لى :

— نحن الآن فى منتصف الطريق ، فوق مدينة اسمها « هانج شاو » . . أو « الجنة » كما نسميها نحن . . وسنهبط فى مطار هونج شاو لمدة ثلاثين دقيقة ثم نتابع السفر إلى بكين .

وتركنى وعاد إلى مقعده فى غرفة القيادة . .

وسمعت صوات مرافقى « فوسوشان » يمسك باسم مدينة «هونج شاو »

وكأنه عثر على كنز ثمين كان يبحث عنه ، وراح يتغنى بالاسم ويكرره ويقول لى :

— هذه المدينة هى جنة الصيف . . إننا نقول دائماً : « فى السماء توجد الجنة ، وفى الأرض توجد « هونج شاو » إنها أجمل بلاد الصين . . بل أجمل

المؤلف يتوسط مجموعة من جنود الجيش الصينى فوق سور الصين العظيم



و . . أمام ساحة المجد والحرية والثورة فى قلب بكين !

ساحة : « تين آن مين »

بلاد الدنيا . . وأنا لم أخرج فى حياتى من حدود الصين ولكنى لا أستطيع أن أتصور أن هناك مدينة أخرى أجمل من هونج شاو . . لا فى بحيراتها ولا فى سمائها ولا فى دروبها ، ولا فى أشجارها ولا فى أنهرها ولا فى . . سكانها ! إن « هونج شاو » هى مدينة الشعراء والأدباء والموسيقيين والحب . !

قلت وأنا أداعبه : وهل يجد الحب من يعترف به هنا . . ؟

قال فى صوت مرتفع : طبعا ! إننا نحب زعماءنا ، ونحب ثورتنا ونحب عاصمة بلادنا .. نحب بكين !

ولا أعرف شعبا يحب عاصمة بلاده بالقدر الذى يحب شعب الصينيين ، العاصمة . . بكين ! !

إنها عندهم أسطورة الهوى ، والمجد ، والحياة !

اسمها على ألسنتهم وتاريخها فى قلوبهم ، وقصصها فى خيالهم !

* بكين . . أو « شانغ تو » . . أو « تانو » . . — العاصمة الكبرى — أو « بيبيغ » — سلام الشمال — مدينة المال ، والزلازل ، والثقافة ، وتاريخ ستة قرون طوال احتضنت خلالها بكين أمجاد شعب الصين بأسره . .

بكين .. الأسوار المتلاحقة ، والشارع الكبير — « شى شانغ آن شينه » وباب السماء أو باب الرحمة أو الباب الإمبراطورى أو كما يسمونه : « تين آن مين » حيث يلقى نبى الصين ماوتسى تونج خطب الثورة وأخبارها..

وارتفع صوت نسائى رقيق عبر ميكرفون الطائرة . . يقول وكأنه يناجى حبيبه :

— لقد اقتربنا من بكين . . إنها على مسافة عشرة أميال من هنا . . هاهى عاصمة البلاد على مقربة من أنظارنا . . إنها على يسار الطائرة ..أنوارها

تبدو آتية من بعيد . . ها هو الميدان الكبير يتوسط مدينتنا العظيمة . . ها هو البولفار الكبير يمد أنواره من شرق المدينة إلى غربها . . هذا هو مبنى المطار .. مطارنا الذى بنيناه فى خمسة شهور !

ومال على أذنى مرافقى من الحدود — فوسوشان — وقال هامسا :

— سنجدهم بانتظارنا .

وفعلا كانوا بانتظارنا . .

ستة . . أو سبعة أشخاص تتوسطهم « لى » . . سيدة فى عمر الربيع وفى يديها ورد وزهور وعلى فمها ابتسامة تقول :

— أهلا بك فى عاصمة الصين !

وانساب الهواء البارد يلفح وجهى . ! ما أبعد الفرق بين جو « كانتون » الخانق الحار ، وجو بكين البارد . . الثلجى ! لقد أحسست بأنى قد انتقلت من خط الاستواء إلى قلب سيبيريا . . ولم أعد أدرى بماذا أرد على تحيات هؤلاء الأصدقاء الذين بدأوا يلقون الكلمات تحية لى . . لماذا لا ندخل فوراً إلى مبنى المطار و نبدأ الحفل . . إن البرد يلفح وجهى . . فما رأيك «ياسيدتى» لو مشينا إلى الداخل . . ؟

وابتسمت « لى » وقالت وهى تنقل رغبتى إلى زملائها :

— إن الشاى الساخن ينتظرنا فى الداخل . .

ودخلنا . .

ومرة أخرى بدأت عملية التعارف بينى وبين المستقبلين . .

أولهم « شانج سونج ناى » — عضو القسم الرئيسى لإدارة تحرير صحف شباب الصين . .

وثانيهم « وانج كانج » رئيس مكتب جمعية صحافيي الصين . .

وثالثهم « زو ماوى » نائب المدير العام لراديو بكين . .

ورابع وخامس وسادس . . حتى قالت السيدة « لى » وهى تقدم لى نفسها برقة وهمس :

— أنا « لى دى نا » المترجمة الرسمية لجمعية صحافيي الصين . .

— أهلا وسهلا . !

وجاء دور الخطب . . ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن « شانج ناى » هو رئيس الوفد وهو المتحدث الرسمى باسم الحاضرين . .

فقد مضى « شانج » يتكلم . . ومضت « لى » تترجم . . ومضى الباقون فى صمت تام لا يحق لأحدهم أن ينبس ببنت شفة !

وعندما اقتربت الساعة من منتصف الليل ، تركنا مطار بكين الذى يبعد مسافة خمسين كيلو متر عن قلب العاصمة ، واتجهنا إلى عاصمة الصين ، وإلى أكبر وأشهر فنادقها ، وأعنى به فندق « بكين » المطل على بولفار « تشانج آن جى » أو شارع « الأمان » . . حيث تتجلى عظمة الحكم ، وهيبته ، ووقاره . .

وكدت أنسى أننى فى الصين عندما دخلنا إلى مبنى الفندق وتسلمت مفتاح غرفتى ووقفت عند باب المصعد أمد يدى شاكرا ومودعاً حضرات المستقبلين ، لولا أن رأيتهم جميعاً يدخلون ورائى إلى المصعد ، ويمشون معى إلى الغرفة ، ويدخلون بجانبى باتجاه السرير ، ثم يجلسون على المقاعد ، وعلى السرير ، وعلى حافة النافذة ، ويبدأون معى حلقة أخرى من حلقات الحفاوة الصينية التى لا تنتهى . .

وبصورة أوتوماتيكية ، فتح الباب ودخلت الخادمة تحمل أكواباً

納夏西比先生

.. ونشروا اسمى باللغة الصينية فى صحف بكين .. !

阿联著名評論家納沙西比到沪

【本报讯】阿联前《共和国报》主编、著名评论家纳沙西比，昨天上午由北京乘飞机到达上海。到机场欢迎的有上海新闻工作者协会副会长陈虞孙等。

.. ونشروا خبر وصولى فى صحف شنغهاى .. !

郭沫若副委员长接见阿联客人

新华社十四日訊　郭沫若副委员长今天下午接见阿联前《共和国报》主编、著名评论家纳沙西比，同他进行了友好的谈话。接见时在座的有左漠野、毕季龙。

ثم نشروا خبر عودتى إلى عاصمة الصين فى جريدة الصين الرسمية
بتاريخ ١٩٦٤/١١/١٥

أخرى من الشاى الصينى الخالى من السكر . . وراحت تقدمه لحضرات « الضيوف » . .

وبدأت أتثاءب . .

وسألنى الذين حولى :

— هل هناك موضوعاً مهماً يهمك أن تدرسه أو مكانا معينا تريد أن تزوره فى بلادنا ؟

قلت :

— الآن ، كل ما أحتاج إليه هو بعض الراحة . . ؟

قالوا متسائلين :

— وغداً . . ؟

قلت :

— أنا أترك ذلك للبرنامج الذى أعددتموه . .

قال المتحدث الرسمى :

— ليس هناك برنامج . . إننا نترك الأمر لرغبة الضيوف وحدهم . . فلا نعد أية برامج . . ولا حتى للملوك أو الرؤساء الذين يزورون بلادنا !

قلت محاولا أن أقول أى شىء :

— أريد أن أقابل كل زعمائكم وأن أرى كل بلادكم . .

قالوا :

— وكم يوما تنوى أن تخصص لهذه الزيارة . . ؟

قلت على استحياء :

— هل مدة أسبوع واحد ، تكفى . . ؟

وفى هذه المرة ، أفلت زمام النظام الحزبى من بين المرافقين ، إذ سمعتهم يصيحون جميعا وبصوت واحد فى شبه استنكار شديد :

— لا ! !

قلت :

— عشرة أيام . . ؟

قالوا :

— لا . !

قلت أنا مستعد أن أبقى معكم لمدة أسبوعين . .

وهنا ارتفع صوت المتحدث الرسمى يقول لى :

— هل ترغب فى أن تبقى بيننا لمدة أسبوعين فقط . . ؟

قلت :

— هو كذلك . .

قال :

— سنرفع رغبتك هذه إلى . . المسئولين .

ولأول مرة قرعت هذه العبارة مسمعى ، فإذ بها أشهر عبارة يسمعها الزائر من مرافقيه فى الصين . ! إنها باللغة الصينية « كن نى تسوان » . . وترجمتها الحرفية « سننقل رغبتك » . . وشهرتها ليس لها حدود . ! لقد اكتشفت — بعد قليل — أن ليس فى الصين مسئولا واحداً ، وإنما كل من فى الصين . . هو المسئول ! كما اكتشفت أنه ليس من حق أحد أن يتصرف بالكلام أو بالعمل فى أى موضوع من تلقاء نفسه ، قبل أن يتشاور فى ذلك مع رؤسائه أو زملائه . . ولا ينطبق هذا على الأمور الخطيرة وحدها ، بل يتعداها إلى كل الأمور العادية . إن الجواب الوحيد الذى يسمعه الزائر من مرافقيه إذا ما طلب منهم شيئاً ، أو استأذنهم فى شىء هو : « كن نى تسوان » . . فيفهم أنها تعنى « سننقل رغبتك إلى المسئولين » . . وبالتالى إن عليه أن ينتظر إلى اليوم التالى .

أما العبارة الثانية التى تضاهى عبارة « كن نى تسوان » فى الشهرة والتكرار فهى : « بوتزتاو » . . ومعناها : « لا أعرف . . » !

والعبارة الشهيرة الثالثة فى الصين هى : «مايو . . » وترجمتها : « لا . . !»

والعبارة الرابعة والأخيرة هى : « شو شى » .. أى : « اذهب واسترح ! »

وإلى هنا كان التعب قد أخذ منى كل مأخذ ، فنهض المرافقون من فوق سريرى ومقاعدى وحقائبى مستأذنين بالانصراف مؤكدين أنهم سيكونون معى فى الساعة الثامنة تماما من صباح اليوم التالى . .

— وتصبح على خير يا « تونجا » . .

— ومع السلامة يا . . « رفقاء » . .

وهكذا دخلت إلى سريرى مع ساعات الفجر وفى أول ليلة لى فى عاصمة الصين ، وقد أصبحت أحمل لقب « تونجا » أى : رفيق !

واستيقظت فى اليوم التالى على صوت يد تقرع باب غرفتى فى الفندق فلم أكد أقول : من ؟ حتى سمعت صوتاً نسائياً يرد من وراء الباب فى حزم قائلا :

— أنا . . السيدة « لى » . .

قلت :

— أرجو انتظارى لمدة دقائق وأكون بعدها جاهزاً . .

قالت وكأنها تؤنبنى :

— الساعة الآن تمام الثامنة . .

وارتديت ملابسى على عجل وخرجت مسرعا فإذ بى أجد « الرفقاء » كلهم — وعلى رأسهم «لى» — بانتظارى على بعد خطوات من باب الغرفة . .

قالوا دون مقدمات :

— سنذهب الآن فى جولة سريعة حول العاصمة . .

ولم ينتظروا جوابى ، بل مشوا معى إلى خارج الفندق حيث ركبنا السيارة المعدة لنا ، وانطلقنا فى بولفار «شانج آن» متجهين إلى أطراف بكين ..!

وبدأ « وانج سونج ناى » يتكلم ..

وبدأت السيدة « لى » تترجم ..

هنا إلى يميننا فى هذا البولفار بوابة « تيان آن من » ، أشهر مبنى فى الصين كلها ، وقد ازدانت جوانبها بحروف صينية حمراء تقول : « عاشت جمهورية الصين الشعبية .. عاشت الوحدة الكبرى لشعوب العالم .. » ! والأعمدة حمراء ، والسقف أصفر .. والتاريخ يحف بالمكان من جميع أطرافه .. والهيبة تصرخ من كل حجر فيه . !

ثم هنا إلى يسارنا ساحة « تيان آن من » .. وفى وسطها تمثال « أبطال الشعب » ، وإلى جانبها مبنى مجلس الشعب « الكونجرس » وعلى جانبها الآخر مبنى « متحف الثورة » .. والساعة ما زالت قبل التاسعة .. وريح الشمال القادمة من « سيبيريا » تصفر فى نواح بارد ثلجى .. ومع هذا فإن مئات الآلاف من تلامذة المدارس قد هرعوا فى هذه الساعة المبكرة من النهار إلى هذا المكان وقد غطوا رؤوسهم الصغيرة ولفوا وجوههم الضئيلة ومشوا إلى زيارة متحف الثورة أو دار الكونجرس وأمامهم أعلامهم الحمراء وعلى حناجرهم الأناشيد الوطنية .. أطفال دون السادسة من العمر .. جاءوا يتحدون المطر ، والبرد ، والثلج ، من أجل الدراسة والفهم والإخلاص لحياة ثورة الصين .. الشعبية !

وسمعت « لى » تقول :

ــ الاستعمار الأمريكى العنيد يرفض الاعتراف بعاصمتنا ويرفض إسمها الدولى الجديد « بكين » ويصر على تسميتها باسمها القديم « بيبنج » . ! إن الاستعمار الأمريكى يخشى لو أنه اعترف بالاسم الجديد أن يعنى ذلك

اعترافه ضمناً بقيام جمهوريتنا الكبرى .. ولكن ذلك لا يهمنا ، ولا يشغل بالنا .. إن حقيقة وجود « بكين » كحقيقة وجود .. الشمس ، والعاصمة — كما هو معروف — تقع فى منطقة « هوبه » .. وهى آخر محطة لقوافل الجمال القادمة من منغوليا .. ولكنها مدينة قديمة .. جداً .. أثرية جداً .. تعود قصتها إلى عهد سلالة « هاسيا » فى القرن العشرين قبل الميلاد .. وكانت عاصمة للبلاد أكثر من مرة منذ القرن الخامس عشر بعد الميلاد ، حتى اليوم ! وعندما قامت ثورة ١٩١١ ، نقلت العاصمة إلى نانكين وأطلق اسم بيبينج — أو « السلام الشمالى » — على بكين .. وبقيت هكذا إلى عام ١٩٤٩ عندما انتصرت الثورة الشيوعية فنقلت العاصمة مرة أخرى إلى بكين .. نهائياً » !

وتوقفت « لى » قليلا قبل أن تقول بلسان زميلها المرافق :

— إذا كان يهمك التاريخ فإن بكين هى مدينة القصور والمعابد !

.. هنا يقع القصر «الممنوع» والقصر الشتوى ، وقصر السماء الذى يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر وحوله الأسوار العالية .. وهنا قصر « الغيوم البيضاء » والمعبد الأخضر للبوذيين وأهل التبت ! وهنا معبد كونفوشيوس .. وهنا المكتبة الوطنية ، والمتحف الرسمى ، وأقدم مرصد فى العالم ، وأحدث جامعة على الأرض ..

ثم سكتت « لى » والسيارة تخرج من البولفار وتعبر فى اتجاه أطراف المدينة :

— أما إذا كنت تبحث عن مظاهر بكين الجديدة .. فهنا إلى يمينك مركز « استاد » العمال .. والمتحف الحربى .. ومكتبة بكين « الحديثة » ومكتبة الأطفال ، وحديقة الحيوانات ، والبارك الشعبى ، والجامعة .. ومبنى التليفزيون ! ثم هنا بدأنا ندخل فى المناطق التجارية .. وفى بكين

ثلاثة شوارع تجارية هى : « وانج فوتنيج » ، « وسئيان » أو الشارع الغربى.. ثم « تيم مان » أو الشارع الأمامى . . ثم بدأنا ندخل إلى حى المؤسسات . . مؤسسة التعليم الاشتراكى ، ومعهد الأرصاد ، ومعهد القوميات والأقليات ، وهى تبلغ حوالى اثنين وخمسين جامعة ومعهد تضم أكثر من مائة وعشرين ألف تلميذ فى بكين وحدها . .

وهنا أشارت « لى » إلى مبنى أبيض ضخم يقع على يسار الطريق وقالت :

— هذا المبنى أقامه « المستعمرون . . الأمريكيون . . » ليكون جامعة لتلامذتهم . . وعملائهم فى عام ١٩٢٠ وأطلقوا عليه اسم « ين تشن » . .

قلت مخاطباً « لى » :

— أليس فى العاصمة مسارح . . ؟

وبعد أن ترجمت « لى » سؤالى وأخذت الجواب عليه قالت :

— لقد شيدت الثورة عشرات من المسارح الجديدة وأهمها مسرح « تين شياو » ومسرح « شوتو » أو العاصمة ، ومسرح « رانمين » أو الشعب ، ومسرح التجارب بالإضافة إلى عشرات من المسارح الخاصة بالعمال ، كما أقامت الثورة أكبر سينما فى الصين وهى المعروفة باسم « شوتو » .. وهكذا أصبح فى العاصمة حوالى ثلاثين دار للسينما ، ومثلها للمسرح ، ومثلها كنوادٍ للعمال . .

ثم عرفت أن ليس فى الصين كلها نوادٍ ليلية على النحو المعروف فى أوروبا وأمريكا ، كما ليس هناك « بارات » أو أماكن لهو كما هو متداول فى هونج كونج أو فرموزا مثلا . .

وعند الظهر ، كانت جولتنا فى قطاع عاصمة الصين قد انتهت ، حيث عادت بنا السيارة إلى الفندق وعاد « وونج » يسألنى :

— ما رأيك فى عاصمتنا . . ؟

قلت على الفور :

— عظيمة . . لولا أنها تفتقد طابعاً معيناً يدل عليها . . !

قال :

— إنها ما زالت فى دور البناء . . ولعلك لاحظت أننا ما زلنا نقوم بعملية بناء الأرصفة ، وفتح الشوارع ، ونصب أعمدة الكهرباء ، وحفر الخنادق للمجارى ، لأننا صممنا أن نعيد « لبكين » عظمتها التقليدية الماضية ولأننا نحبها . . كثيراً .

قلت دون تفكير :

— ولماذا تخصون بكين دون غيرها من المدن بهذا الحب . . ؟

قال وونج :

— لأن زعيمنا « ماو » يحبها . .

وسكت « وونج » قليلا قبل أن يسألنى :

— هل أنت مستعد للتفكير فى مشروع برنامج نلتزم به خلال زيارتك لبلادنا . . ؟

قلت :

— متى . . ؟

قال :

— الآن . .

قلت :

— أنا يهمنى أن أزور إخوتى من العشرين مليون مسلم فى مدن «سيان» و « لان شو » و « تفنان » وسائر مقاطعاتهم فى الشمال الغربى للصين . .

قال بعد نقاش مع زملائه :

— المسافة إلى هناك طويلة . . والطرق مخربة . . والأمطار تنهمر . . !

وفهمت تماما . . !!

وعدت أقول :

— ويهمنى أن أتعرف إلى أكبر عدد من قواعد الصناعة الثقيلة فى بلادكم . . فى « شين يانج » و « آن شان » شمال شرقى الصين لكى أتعرف إلى سر قوتكم . . سر خشية العالم منكم . .

قالوا بعد تفكير ونقاش :

— سنبلغ رغبتك إلى المسئولين . .

قلت :

— ويهمنى أن أزور شنغهاى ، لكى أدرس كيف تمت عملية تحويل أكبر مركز للدنس وتجارة الأعراض فى آسيا ، إلى أكبر مركز للصناعة فى القارة . .

قالوا :

— سننقل رغبتك إلى المسئولين . .

قلت :

— وأريد أيضاً أن أتعرف إلى زعمائكم وخبرائكم فى السياسة ، والاقتصاد ، والأدب ، والحرب ، والعلم ، لكى أتعرف إلى السر الذى استطاع به زعيمكم « ماوتسى تونج » أن يوحد سبعمائة مليون إنسان فى جسم واحد ، بعقل واحد ، ورأى واحد ، وزى واحد ، وقلب واحد !

وهنا ، لم أنتظر جوابهم بل أسرعت بنفسى أردد لهم عبارتهم المشهورة :

— كن نى تسوان . .

وضحكوا وقالوا المعنى بالإنجليزية من جديد :

— سننقل رغبتك إلى المسئولين . . سننقل رغبتك إلى المسئولين !

وافترقنا على أن نلتقى بعد الغداء . .

ولكنى لم أكد أدخل قاعة الطعام لأتناول غدائى حتى هرعت ورائى « لى » وقالت :

— هذه المائدة من هذه القاعة ستكون مخصصة لك فى أوقات الأكل .. وأرجو أن ألا تضل طريقك فيما بعد وتدخل إلى القاعات المجاورة لها من قاعات الأكل . .

ولم أفهم معنى كلام « لى » حتى تبينت فيما بعد أن فى الفندق أكثر من خمسة قاعات أكل . . وكل قاعة منها مخصصة لنوع معين من ضيوف بكين . . فقاعة للزوار من أمريكا اللاتينية ، وقاعة للزوار من أفريقيا . . وقاعة للضيوف الشيوعيين من كوريا الشمالية أو فييتنام . . وقاعة للقادمين من أوروبا الشرقية أو الاتحاد السوفييتى . وقد كان نصيبى — أنا — فى القاعة المخصصة لضيوف الدولة من أوروبا . ! لماذا . . لا أدرى !

لقد طلبت الأكل فجاءنى الخادم بعشرة أطباق صغيرة مليئة بالتوابل والسوائل ثم تبعها باللحم والأرز . . وأنهاها — وهذه هى عادة أهل الصين — بالشوربا ! ثم ، لا خبز ، ولا سلطة ، ولا حلو . . لأنها كماليات ! ولكن دور الشاى — ويسمونها « شا » يأتى فى الآخر ولابد إلا أن يأتى ..

وقبل أن أنهى طعامى ، كانت « لى » تدخل وهى تحمل لى رسالة من المستر « وونج » :

— هل تريد أن تزور سور الصين العظيم . . ؟

قلت :

— أجل . .

قالت :

— إذن سنخبرك فيما بعد عن موعد زيارتنا للمنطقة التى يمر بها السور العظيم . .

ولكن زيارة هذا السور التى تمت بشوق عظيم بعد يومين لم تدهشنى ولم تثر فى نفسى تلك الصورة الحالمة التى طالما عشت معها وعاشت معى عن

هذا الأثر التاريخي الخالد . ! ولا يعنى هذا أن سور الصين شيء عادى لا يستحق الزيارة . . ولكنى أريد أن أقول أن الإصلاحات والترميمات التى أدخلتها الحكومة على الجزء المسموح بزيارته فى السور قد أفسدت اللمسة التاريخية التى كان يتمتع بها ، فلم يعد الزائر يدرى هل هو أمام سور شيد منذ اثنين وعشرين قرناً ، أم هو أمام سور عصرى شيد فى القرن العشرين . ؟هل هو أمام تحفة من تحف الإمبراطور « شيه وانج تيه » ، أم أثر من آثار ماوتسى تونج !

وهكذا رأيت معظم زوار السور أما من رجال الجيش الصينى أو من تلامذة المدارس أو من هؤلاء التجار الإنجليز الذين جاءوا للاشتراك فى أحد المعارض التجارية فى كانتون ، أو بكين ، أو شنغهاى ! ولعل حاضر الصين ، أو ثورتها الحمراء ، أو الهيبة المسيطرة والمتحكمة برؤوس الناس والزائرين ، قد أفقدت هذا الأثر التاريخي هيبته ووقاره ! إن المرء لا يدرى وهو فى الصين هل ماضى ذلك البلد يبز حاضره ، أم حاضره يفوق على ماضيه . ؟ لا أدرى هل أباطرة الصين من عائلة « مانشو » أعظم وأخلد على الزمن ، أم أن « ماوتسى تونج » هو وحده العظيم الخالد . . ؟ لا أدرى هل منظر مثل هذا السور أعظم ، أم منظر الدخان المتصاعد من تفجر أول قنبلة ذرية صينية ، هو — دون غيره — الشيء العظيم !

ولعل السلطة المسئولة قد أدركت أن المعنى التاريخي فى مثل هذا المكان — رغم عظمته — قد لا تساوى شيئاً بالنسبة لمصنع صلب حديث ، أو حقل زراعى فى أحد الكوميونات الاشتراكية الزراعية . لذا لم أجد حول هذا السور العظيم ولا عند بوابته الرئيسية ، مكاناً واحداً لبيع الطوابع البريدية ، أو الصور التذكارية ، أو الأفلام السينمائية . . أو الكتب أو النشرات . ولو لم يقل لى أحد أن هذا هو سور الصين العظيم ، وأحد عجائب الدنيا ، لمررت بجانبه دون أن أعرف شيئاً أو أحس بشيء !

وبعـــد ..

إن قصة العاصمة « بكين » لا تعرف حداً تقف عنده ! إنها بلا نهاية ، لأن شعب الصين لا يريد لها نهاية ! إنه يضيف إليها فى كل يوم منزلا جديداً ، أو شارعا جديداً ، أو معنى جديداً .. حتى يستطيع بها — فى النهاية — أن يضاهى أعظم عواصم العالم ..

لقد قالت « لى » ونحن نزور المبنى الضخم المخصص للمؤتمر الشعبى والذى يضم قاعة تتسع لعشرة آلاف شخص .. وقاعات وصالونات لا حصر لها ولا عدد .. وقاعة للحفلات مساحتها سبعة آلاف متر مربع وتتسع لجلوس خمسة آلاف شخص .. بالإضافة إلى عشرات من المكاتب ، والممرات .. أقول ، قالت المرافقة « لى » وكل عرق فى جسدها ينبض فخراً وتيهاً :

— لقد بنينا كل هذا .. كله بكل ما فيه من حجر وأثاث ، فى مدة لا تزيد عن عشرة أشهر .. وقد اشترك معنا فى البناء زعيمنا ماوتسى تونج !

ولم أشك لحظة فى صدق كلام .. لى !

إن شعب الصين — كما رأيته — قادراً على أن يبنى مدينة بأسرها .. فى أقل من عشرة أشهر ..

وسيبنى شعب « بكين » مدينة « بكين » ، كما يود ويشتهى ، لكى يفاخر بها الدنيا .. كلها !



الفصل الرابع

عقدة القوة !

« أينما عثرت على كائن حى ، عثرت على رغبة القوة . . بداخله ! »

« نيتشه »

فى هكذا تكلم . . زرادشت

« الصبر والأدب . . هما القوة »

« هنت »

« لم تكتمل قوتى إلا فى . . ضعفى »

« مثل كورنثى »



إن العقدة النفسية التي تتحكم في السبعمائة مليون صيني هي — كما أحسست بها ولمستها — عقدة . . القوة !

عقدة تحث أصحابها لكي يصبحوا . . أقوياء !

عقدة ترسم للملايين طريق القوة ، لأنها وحدها ، طريق الخلاص !

عقدة تتجلى في أحاديث الزعماء ، وحفلات الأعياد ، وأرقام الإحصاءات ، وتعليقات الصحف ، وأجوبة المسئولين !

وكنت أحاول في غمرة كل ما سمعت وما رأيت ، أن أفسر سر هذه العقدة النفسية العارمة . . وأن أتبين أسبابها ومنطقها . .

لماذا القوة . . ؟

يكفي أن نمسك بالخيط في أول يوم لثورة ديسمبر عام ١٩١١ لكي نفهم كل شيء ! ولا ضرورة للعودة بالقصة إلى ما قبل ذلك . . لا يهمنا من أمر حياة أسرة « مانشو » Manchu الحاكمة بالحديد والنار شيئاً ! لقد سقطت هذه الأسرة وانتهى بسقوطها الحكم الملكي الإمبراطوري في الصين في مطلع ديسمبر من عام ١٩١٢ . . وكانت « كانتون » بالذات قاعدة تلك الثورة ومقرها . . وكان « صان يات صن » زعيم تلك الثورة ورائدها غائباً في الولايات المتحدة — منفاه — فأسرع إلى البلاد لكي يقود الثورة إلى النصر . .

ونقف ونسأل :

— وما هو سر « صان يات صن » . . ؟

والجواب : سره فى الهجمات المتتالية التى أعلنها هذا الطبيب الصينى الشاب ضد أسرة « مانشو » والتى بسببها وبسبب حكمها بقيت الصين . . ضعيفة مقسمة وصغيرة . !

فهو يريد للصين ، حكما قويا ! يريدها قوية ! وإذا كان الحكم الجمهورى الديمقراطى — حسب اعتقاده — يهيىء لها أسباب القوة ، فمن واجبه وواجب كل صينى أن يسعى للحكم الديمقراطى . . الجمهورى ! لقد بدأ هذا الشاب يحشد آراءه هذه فى الجمعيات السرية التى أسسها أو انضم إليها فى أواخر عام ١٨٩٤ ، ولم يهجر هذه الآراء ، أو يخفها ، أو يخفف من حدتها إلى أن تولى الحكم كزعيم للثورة ، وأول رئيس للجمهورية ، فى أول يوم من أول شهر من عام ١٩١٢ . ولكنه — مع كل مقدرته كزعيم ثورى كبير — لم ينجح فى أن يضع آراءه المنادية بمبدأ « القوة » موضع التنفيذ ، ولم يستطع أن يثبت مقدرته الفذة فى التنظيم الذى تحتاج إليه « القوة » كركيزة وقاعدة . ! وهكذا جاء الحكم الجمهورى وحده ولم تجىء « القوة » المطلوبة فى ركابه ، أو هكذا — أيضاً — اضطر « صان يات صن » إلى التنحى عن منصبه وترك المسئولية للجنرال « يوان شيه — كاى » الذى كان ذات يوم من أكبر أعوان الإمبراطور . . والذى لم يكن قد جاء إلى الحكم بقصد خدمة المبادىء الثورية ، وإنما بقصد خدمة نفسه ومبادئه ونفوذه !

وهنا أيضاً ، تبدل الحكم ، ولم تحضر . . القوة !

لقد جاء الحاكم الجديد ، وبقيت « القوة » غائبة !

وحاول هذا الحاكم الجديد ، أن يسيطر على « كل » البلاد ، ولكنه فشل عندما تمسك الحكام العسكريون بمناطقهم وبقى — بذلك — الانحلال مخيما على الصين ! أضف إلى ذلك الفقر ، والإفلاس ، واليأس الذى رافق ذلك

والجواب : سره فى الهجمات المتتالية التى أعلنها هذا الطبيب الصينى الشاب ضد أسرة « مانشو » والتى بسببها وبسبب حكمها بقيت الصين . . ضعيفة مقسمة وصغيرة . !

فهو يريد للصين ، حكما قويا ! يريدها قوية ! وإذا كان الحكم الجمهورى الديمقراطى — حسب اعتقاده — يهيىء لها أسباب القوة ، فمن واجبه وواجب كل صينى أن يسعى للحكم الديمقراطى . . الجمهورى ! لقد بدأ هذا الشاب يحشد آراءه هذه فى الجمعيات السرية التى أسسها أو انضم إليها فى أواخر عام ١٨٩٤ ، ولم يهجر هذه الآراء ، أو يخفها ، أو يخفف من حدتها إلى أن تولى الحكم كزعيم للثورة ، وأول رئيس للجمهورية ، فى أول يوم من أول شهر من عام ١٩١٢ . ولكنه — مع كل مقدرته كزعيم ثورى كبير — لم ينجح فى أن يضع آراءه المنادية بمبدأ « القوة » موضع التنفيذ ، ولم يستطع أن يثبت مقدرته الفذة فى التنظيم الذى تحتاج إليه « القوة » كركيزة وقاعدة . ! وهكذا جاء الحكم الجمهورى وحده ولم تجىء « القوة » المطلوبة فى ركابه ، أو هكذا — أيضاً — اضطر « صان يات صن » إلى التنحى عن منصبه وترك المسئولية للجنرال « يوان شيه — كاى » الذى كان ذات يوم من أكبر أعوان الإمبراطور . . والذى لم يكن قد جاء إلى الحكم بقصد خدمة المبادىء الثورية ، وإنما بقصد خدمة نفسه ومبادئه ونفوذه !

وهنا أيضاً ، تبدل الحكم ، ولم تحضر . . القوة !

لقد جاء الحاكم الجديد ، وبقيت « القوة » غائبة !

وحاول هذا الحاكم الجديد ، أن يسيطر على « كل » البلاد ، ولكنه فشل عندما تمسك الحكام العسكريون بمناطقهم وبقى — بذلك — الانحلال مخيما على الصين ! أضف إلى ذلك الفقر ، والإفلاس ، واليأس الذى رافق ذلك

العهد والذى فتح الباب أمام الاستغلال اليابانى للوضع القائم فى أبشع صورة مما أرغم حكام الصين على الاعتراف بكل تدخل أجنبى ، والترحيب بالنفوذ اليابانى على « منشوريا » وتهديد النفوذ الصينى فى مناطق كثيرة وعلى رأسها التبت ، ومنغوليا ، وسينكيانج وغيرها ، ثم ما تبع ذلك من تمرد منغوليا على السلطة وإنشاءها دولة مستقلة بذاتها تعترف بها روسيا ، وتتبعها التبت فتعلن استقلالها بتأييد بريطانيا ، ثم يعجز الجنرال « يوان » عن مواجهة الموقف ، فلا يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة فى عام ١٩١٦ حتى تكون أكثر من خمس مقاطعات صينية فى الجنوب قد عزلت نفسها عن الوطن الأم وأعلنت نفسها دولا مستقلة !

وجاءت الحرب العالمية الأولى . .

وكانت فرصة مواتية أمام الصين لاستعادة معنى القوة فى حياتها لو أنها — أو بالأحرى حكامها — عرفوا كيف يستغلون الفرصة للعمل والتخلص نهائياً من القوتين العسكريتين ، الروسية والفرنسية المتطاحنتين فى معارك أوروبا . ! ولكن الصين ، قبل أن تفيق من ذهولها ، كانت اليابان تهوى عليها بقبضتها فى « شانتونغ » وترغمها على أن تقبل شروطها الواحد والعشرين والتى تحولت بموجبها الصين إلى مجرد دولة « ذيل » محكومة رأساً من طوكيو . !

وهكذا أيضاً بقيت « القوة » بكل معانيها غائبة عن حياة الصين . . عن كل حياة الصين !

وتدهورت الحياة السياسية فى شمال البلاد ، كما تدهورت فى جنوبها . .

وأعلن « صن — يات — صن » ورفاقه حكومة مستقلة عن حكومة الشمال جعلوا مقرها فى مدينة كانتون . . ولكنهم — رغم ذلك — عجزوا عن فرض أبسط مظاهر سيطرتهم على الأجزاء التى احتلوها فى البلاد . .

وجاء رئيس جديد للجمهورية — لى يوان هنينج — ولكنه ما لبث أن وجد الخلاف يدب على أشده بين رئيس وزرائه « يوان سى جو » والبرلمان الذى يسيطر على معظم أعضائه حزب «الكيومنتانج» ثم وجد نفسه — هو — على خلاف مع رئيس وزرائه بسبب موقف الصين من دخول الحرب أو عدم دخولها . . مما حطم هيبة حكومة بكين وجعلها أضحوكة فى فم العالم . . !
كل هذا والبلاد مقسمة ، منحلة ، فقيرة ، متطاحنة ، لا مسئول عن حياتها ، ولا منظم لتجارتها ، ولا راع لطرق مواصلاتها ، الضرائب يفرضها الحكام حسب أهوائهم ، والقوانين يصدرها الضباط حسب رغباتهم ، والفيضانات تأ كل الأخضر واليابس ، والأمراض تفتك بأجسام الشعب ، والضعف ، كل أنواع الضعف ، تنخر فى جسم المواطن . .

أين القوة إذن . . ؟

لا قوة . . ولا حتى أبسط مظاهرها !

وحاولت الصين أن تستعيد ذرة من هيبتها الضائعة فبادرت إلى الاشتراك فى الحرب العالمية الأولى والانضمام إلى صف الحلفاء ضد ألمانيا . ولكن — لسوء حظها — لم تستطع أن تؤثر فى مجرى الحرب شيئاً ، ولم تستطع أن تكسب من مجرى الحرب أو نتائجها شيئاً . لقد رفض وفد الصين إلى مؤتمر الصلح أن يوقع على معاهدة « فرساى » عندما أدرك أنه عاجز حتى عن استعادة منطقة « شانتونج » من يد اليابانيين . . وأدركت الصين أن حلفاءها فى الحرب قد استنفدوا أغراضهم منها ، ثم نبذوها نبذ النواة . !

واستمرت موجة القلق والاضطراب من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٣ مما اضطر الزعيم « صن يات صن » على أن يترك البلاد مرتين إلى الخارج ! إن الفراغ السياسى المخيف يقتل أرواح المواطنين . ! إن القضايا المعلقة لا تجد جوابا لها أو عليها . ! وحاول « صن » أن يستفيد من مقابلته للدبلوماسى

الروسى « أدولف جوفى » خلال لقائه به فى شنغهاى ، ويرسم معه أساليب جديدة للعمل السياسى المنظم ، ولكن تلك المقابلة لم تؤد إلى شىء . . فاتجه « صن » بطلباته إلى أمريكا وبريطانيا لمده بالمعونات الفنية والمالية ، ولكن سياسة أمريكا الانعزالية يومذاك وسياسة بريطانيا الكافرة بكل ما هو صينى ، قد جعلا « صن » باقياً على حالته اليائسة الفقيرة لا يستطيع لنفسه حلا ، ولا لحالة بلاده علاجا . ! واتجه « صن » إلى السوفييت يطلب مساعدتهم ، وأوعزت موسكو إلى حزبها الشيوعى فى الصين بالتعاون مع حزب « الكومنتاج » الذى يرأسه « صن » . . وأعلن . . « صن » — رغم هذا الاتفاق — أنه لن « يستورد » الشيوعية إلى بلاده بل أنه سيعمل جاهداً على إيجاد « اللون » السياسى المناسب للوطن ألا وهو تحقيق الوحدة الوطنية والاستقلال . غير أن خبرة السوفيات وتعاونهم من أجل خلق جو من القوة والهيبة فى البلاد ، لم تثمر شيئاً . . وعجز الخبير السوفياتى ومستشاره عن مد حزب « الكيومينتانج » بدم متجانس موحد قوى يستطيع أن يدعو إلى فلسفة سياسية واحدة تغرى الشعب بتأييدها حيث تمسك « صن » باتجاهه الديمقراطى المتحرر الذى يستطيع أن يجمع فى حكومة واحدة من هو فى أقصى اليمين إلى من هو فى أقصى اليسار ضمن إطار وطنى سليم يؤمن بفائدته للوطن . وهكذا بقى القلق على حاله ، واستمرت الفوضى تستبد بالحكم ، وتحطم ائتلاف الشيوعية مع حزب الكيومنتانج فى أواخر عام ١٩٢٥ . . وتوفى الزعيم « صن » ولم يتحقق حلمه الأكبر والأول فى أن تصبح الصين قوية وموحدة . . !

وكان التراث السياسى الذى تركه الزعيم « صن » وراءه ، ينحصر فى بعث معنى « الصين الجديدة » إلى الوجود . . أما ما عدا ذلك فلا شىء . . فقد بقيت البلاد من بعده مقسمة بين ائتلاف حزبى يضم اليسار المتطرف فى حزب الكيومنتانج مع الشيوعيين ، يقابلهم الزعماء الوطنيون

مع بعض كبار الضباط العسكريين الذين ظهر من بين صفوفهم ضابط كبير اسمه « شيانج كاى شك » . . !

وقد ترك الزعيم « صن » ورائه وثيقة سياسية خالدة ، تصور مدى الشعور العميق الذى رافق هذا الرجل فى جهاده المضنى من أجل « قوة » الصين . ! أنه يقول بالحرف الواحد فى تلك الرسالة :

« لمدة أربعين عاما أو أكثر ، كرست نفسى لخدمة شعب الصين وليس أمامى إلا هدف واحد هو أن أرفع بلادى إلى المستوى الذى تستحقه من الحرية والقوة والمساواة بين شعوب العالم . . وإنى مقتنع على ضوء تجاربى الطويلة ، أن السبيل الوحيد من أجل تحقيق ذلك هو أن نوقظ شعبنا ونتحالف فى نضال واحد ودائم مع جميع شعوب العالم التى تعترف لنا بحق المساواة . . إذ أن الثورة لم تنته بعد . . . » . .

ولو أنصف هذا الزعيم قولا لقال : « بل إن الثورة لم تبدأ بعد . . ! »

لقد استمرت موجة المحاولات من أجل خلق معنى « القوة » لشعب الصين ، بعد موت « صن » ، لسنوات طوال . . طوال !

إن العمال ، وعلى التحديد مائة ألف عامل صينى أضربوا عن العمل فى المصانع اليابانية فى الصين مطالبين بالحق والمساواة . . ثم تنادوا إلى مؤتمر شعبى لهم عقدوه فى مدينة كانتون وحضره نصف مليون عامل .. ثم اشتبكوا مع السلطات فى معارك دامية . . ثم استطاعوا كسب الطلبة والمفكرين إلى صفوفهم . . ثم قرروا مقاطعة البضائع اليابانية والإنجليزية احتجاجاً على السياسة الاستعمارية الأجنبية فى بلادهم . . وكانت النتيجة نزول قوات بريطانية جديدة فى الساحل الشرقى ، مع ارتفاع موجة النقمة والشعور القومى ضد الاستعمار فى سائر أنحاء البلاد . !

واستمرت الثورة . .

ولم يبدأ عام ١٩٢٧ حتى كان عدد الفلاحين الأعضاء فى المؤسسات الجماعية التنظيمية يزيد عن خمسة ملايين مزارع . . كل واحد منهم يبحث عن معنى القوة لنفسه ولبلده . . كما زاد عدد أعضاء الحزب الشيوعى فى مدينة صناعية كشنغهاى إلى مائة ألف عضو . ! أما أعضاء اتحادات العمال فقد ارتفع عددهم إلى ثلاثة ملايين عضو . . وهكذا نشأت وترعرعت ثورة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ . . ولكنها قبل أن تؤدى ثمارها وتحقق أهدافها ، كانت الدول الاستعمارية تقف لها بالمرصاد حيث استغلت هذه الدول حادث مقتل بعض الأجانب فى مدينة « نانكين » فأمرت طائراتها وبوارجها الحربية بضرب المدينة بالقنابل على أثر إنذار مشترك بلسان الأمريكيين والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين ، بينما كانت قوات الرجل الذى قرر أن يبيع وطنه للشيطان — شانج كاى شك — تضرب قوات الثوار فى شنغهاى وكانتون ونانكين فتتغلب على الثورة وتفرض على البلاد حكومة موالية جديدة ليس فيها من معنى القوة ، أو الهيبة ، أو الوطنية شيئاً . .

ومضى « شانج كاى شك » مستعينا بالمال الأجنبى والتأييد الأنجلو — أمريكى . . مضى يحارب التنظيمات العمالية ، والجمعيات الفلاحية ، ويحلها ويعتقل زعماءها ويحطم الروح الثورية الوطنية فى البلاد ويتخلى عن كل مبدأ وطنى شريف نادى به أو أعلنه حزب « الكيومنتاج » فكانت النتيجة الحتمية لكل ذلك العودة بالصين إلى حياة الضعف ، والفساد ، والانحلال ، والتناحر ، والحقد ، والدماء . .

ولكن الحزب الشيوعى الصينى — بلسان ماوتسى تونج — أعلن يومذاك أنه « سيدفن شهداءه ويضمد جراحه ويقف على قدميه ويستأنف القتال . . » !

وجاءت بعد ذلك ولادة جيش التحرير الشيوعى فى أول أغسطس عام ١٩٢٧ . !

ثم كانت النداءات المتتالية إلى الفلاحين والعمال بوجوب حمل السلاح واللجوء إلى الثورة . .

ثم كانت عملية إنشاء قاعدة لقيام « حكومة الثورة » فى « كيانج سى » على « جزء » من الصين ، كمقدمة لما جاء بعدها من حكومة ثورية على « كل » الصين ، وكشرارة تعلن مولد حرب السنوات العشر الأهلية الثانية فى البلاد . !

ومرة أخرى ، تدخل الصين فى مرحلة دموية حارة ، فى عملية بحثها عن القوة لنفسها ، ولشعبها ، ولجيشها . .

وتستغل اليابان ، هذه الفرصة وانشغال دول أوروبا بالأزمة الإقتصادية ، الحادة ، عام ١٩٣١ ، فتغزو بقواتها منطقة شمالى شرق الصين وتحتل أرضا يسكنها أربعون مليون صينى ، وتعزلهم عن الوطن الأم فلم يستطع — بل لعله لم يشأ — الحاكم الضعيف المستسلم المسمى «شانج كاى شك» أن يفعل حيال ذلك شيئاً أو يقاوم ذلك الغزو برصاصة صينية واحدة ، وبالتالى بقيت اليابان تحتل تلك الأرض وتدوسها بنعال قواتها حتى نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، وانهزام طوكيو أمام الحلفاء . .

ويلتفت شعب الصين فى غمرة بحثه عن كرامته ، يتلف هذا الشعب نحو أمله الوحيد الباقى فى معركته اليائسة ضد الغزاة . . وأعنى بذلك « جيش التحرير الأحمر » الذى يرأسه ماوتسى تونج . . فيجده وقد مضى يعبىء جهوده ، ويسلح نفسه ، ويدعو الناس إلى الإنضمام إليه للوقوف فى وجه التغلغل الفاشى الممثل بدولتى « المحور » والمؤامرات الاستعمارية الممثلة بالمناورات الانجليزية ضد الصين فى أورقة عصبة الأمم . ! وكانت أخبار ذلك الجيش قد وصلت إلى مسامع الطلبة فى جامعاتهم ، والعمال فى مصانعهم ، والفلاحين فى حقولهم ، فقامت المظاهرات التأييدية له ضد الحكم القائم ،

ومشى الآلاف من أفراد الشعب ينضمون إليه عندما بدأ ما يسمى « بالمسيرة الطويلة « Long March » من قاعدته حول « كيانج سى » إلى الشمال الشرقى ، للحرب ضد الاستعمار اليابانى رغم الخسائر الفادحة التى أصابت ذلك الجيش والتى كلفته أكثر من مائتين وخمسين ألف قتيل ومفقود . ! فقد استطاع ذلك الجيش أن يمر فى زحفه « الطويل » على « إحدى عشرة » مقاطعة يقطنها أكثر من مائتى مليون صينى ، وأن يعطى لكل واحد منهم درساً حيا فى كيف يكون النضال من أجل الوطن وضد الاستعمار . . كما استطاع ذلك الجيش نتيجة كل ذلك أن يرغم العناصر اللاشيوعية فى البلاد أن تسعى للتفاهم معه ، والاتفاق على إنشاء جبهة وطنية موحدة تقف أمام الاستعمار اليابانى وتحارب من أجل حرية الوطن واستقلاله ووحدة أرضه . .

وهكذا عقدت الهدنة بين حيش التحرير الأحمر ، وبين قوات شيانج كاى شك ، للوقوف ضد المستعمر فيها .

وهكذا — أيضاً — بدأت حرب المقاومة ضد الاستعمار اليابانى عام ١٩٣٧ ، ولم تنته إلا بانتهاء الحرب العالمية الثانية واستسلام اليابان فى عام ١٩٤٥ . .

ولكن ، لماذا كان كل ذلك . . ؟

ولماذ رضى الجيش الأحمر أن يتعاون مع خصومه وأعدائه من قوات « شيانج كاى شك » . . ؟ بل لماذا رضى « شيانج كاى شك » أن يهادن الخطر الذى يهدده ويهدد وجوده وعهده . . ؟

والجواب : إن ذلك من أجل « القوة » التى كان يحلم بها كل جانب من الطرفين . . إن ذلك من أجل « القوة » التى لم تعرفها الصين منذ ألف سنة . . ! إنّ ذلك من أجل « القوة » التى بدونها ستبقى الصين مستعمرة لكل قادر أن يغزو أرضها ، ويحتل بالبوارج والمدافع موانيها وشواطئها . . !

ولـكن ريح الأحداث جرت بما لم تشته الصين الثائرة على المستعمرين . .

فقد شنت اليابان فى يوليو ١٩٣٧ ، أعنف هجوم لها على « كانتون » و « هانـكاو » و « شنغهاى » ، والعاصمة « نانـكنج » واحتلتها ، مما دفع الروح الاستسلامية الخائرة « لشيانج كاى شك » أن تهرع إلى المستعمرين تحاول التوسط معهم بصورة مخزية مليئة بالعار والخيانة بدلا من أن تبادر إلى إعلان الحرب على اليابان وحشد كل صينى للانخراط فى المعركة . ! بل لقد مرت أربع سنوات طوال على هذا العدوان اليابانى قبل أن يفـكر شانج كاى شك فى إعلان الحرب . . وسيقول التاريخ أن شانج كاى شك لم يعلن الحرب فى أواخر عام ١٩٤١ على اليابان بسبب عدوانها الوحشى على بلاده فى عام ١٩٣٧ ، بل بسبب عدوان اليابان على أمريكا ومبادرة أمريكا وبريطانيا إلى إعلان الحرب عليها . ! وسيقول التاريخ أيضاً إن « شيانج كاى شك » قد حاول — من خلال ضعفه واستسلامه وخيانته — أن يلعب على أكثر من حصان واحد فى الحرب العالمية الأخيرة ، وأن يساوم سرا على أكثر من فريق ، وأن يخون أكثر من حليف ، وأن يجعل من نفسه ومن بلده ورقة صفراء مهلهلة لا يفرح أن يكسبها الصديق ، ولا يخشى بأسها العدو . . !

ومرة أخرى ، يصاب الشعب الصينى بخيبة أمل كبرى فى قيادة رئيسه شيانج كاى شك ولا يجد له من موئل أو نصير سوى العودة مرة أخرى إلى أحضان الحزب الشيوعى وقيادته التى كانت قد اتخذت فى ذلك الوقت من مدينة « ينان » قاعدة لها . ! لقد أصبح عدد أعضاء الحزب الشيوعى فى عام ١٩٤٥ أكثر من مليون ونصف المليون صينى كلهم يؤمنون بالوطن وبمبدأ استمرار الـكفاح ضد الاستعمار اليابانى الدخيل ، كما أصبح عدد الجيش الشيوعى التابع لهذا الحـــزب يزيد عن مليون جندى بالإضافة إلى مليونى جندى من قوات المليشيا . . الأهلية ! وقبل أن تستسلم اليابان بخمسة شهور كان الجيش الأحمر الصينى قد حرر من قبضة اليابانيين أكثر

من ٩٥ مليون نسمة . . من أهل الصين ، وأعطاهم الأرض ، والسلطة والإدارة المستقلة !

كل هذا ، بينما كان « شيانج كاى شك » — الحليف المزعوم ضد الاستعمار اليابانى — يتسلم الأسلحة من الولايات المتحدة ليحارب بها اليابانيين فإذ به يحارب بها .. الجيش الصينى الشيوعى ، ويترك الجيش اليابانى يحتل أرضه ويحطم كرامته . .

وانتهت الحرب العالمية الثانية بانهزام اليابان . .

ولكنها — أى تلك الحرب — قد انتهت بانهزام « شيانج كاى شك » وعهده ، وجيشه ، وسلطانه ، من فوق أرض الصين أيضا . .

إن الصينى الوحيد الذى خرج منتصراً من الحرب العالمية الثانية ، هو القائد الصينى . . ماوتسى تونج !

. . . وحده !

وبانتصار هذا القائد ، انتصرت فكرة « القوة » فوق أرض الصين . .

وهكذا ، لم تستطع السنوات الثلاث التى تبعت ذلك أن تنقذ « شيانج كاى شك » من مصيره المحتوم أو أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء . ! فلا المساعدات الأجنبية الهائلة « لشيانج كاى شك » ولا الأموال ، ولا المساومات والألاعيب وحتى البوارج البريطانية فوق مياه نهر « يانجتسى » استطاعت أن تبقى على عهد رجل كان اسمه وسلطانه وعهده ، مقرونة بالضعف والجبن والاستسلام . .

وهكذا ، وفوق الأربعة ملايين وثلاثمائة ألف ميل مربع — هى مساحة أرض الصين — قامت من بين سبعمائة مليون نسمة — هم أهل الصين — دولة شيوعية لينينية ماركسية فى الساعة العاشرة من يوم أول أكتوبر عام ١٩٤٩ ، تحالفت فيها قوى الفلاحين مع قوى العمال ، وتوحدت فيها كل الأقليات

والقوميات وتحققت بها – لأول مرة – منذ ألفى عام ، معانى « القوة » الصينية . . المنشودة !

هذه القوة بالذات ، هى التى تحكم اليوم وتتحكم فى السبعمائة مليون صينى . . .

هى مظهر حياتهم وسر ثورتهم وطابع دنياهم !

إذ لم أحادث صينياً واحداً طيلة إقامتى فى الصين ، مسئولا كان ذلك الشخص أم غير مسئول ، إلا وأحسست بأن هناك عقدة نفسية تتحكم فى ألفاظه وآرائه .

ولم يكن صعباً أن أدرك نوع تلك العقدة وجوهرها . .

فقد عثرت الصين بعد طول وحشة وحرمان إلى ما كانت تصبو إليه وتحلم به مئات السنين .

عثرت الصين على « القوة » فى حياتها . . لأول مرة !

وهكذا سمعتهم فى الصين يتحدثون عن القنبلة « الذرية » التى فجروها وكأنهم ينشدون أغانى الحب والهيام . ! إنها عندهم ليست مجرد « قنبلة ذرية » أضاءت بدخانها قارة « آسيا » بل هى البرق الذى يبشر الدنيا كلها أن الصين قد ولدت من جديد ، وأنها اليوم تستطيع أن تقف على قدم المساواة مع أمريكا وبريطانيا والاتحاد السوفيتى وفرنسا ، وأنها دولة قوية ، تضم شعباً قوياً ، وجيشاً قوياً ، وأسلحة قوية . . وإن عهد الضعف والخور والاستسلام قد مضى واختفى إلى غير عودة . !

بل هكذا سمعتهم يتحدثون لى عن علاقاتهم بدول العالم . كانوا حريصين على أن يرتدوا أمامى رداء الحمل الوديع بالنسبة لدول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، ولكنهم عندما يصلون بالحديث إلى دول أمريكا وأوربا ، تتبدل ألفاظهم ، وتتجهم وجوههم ، وتنطلق أياديهم تضرب فى الفضاء ، وأسمعهم

يلجأون إلى لغة القوة . . لغة الحرب . . لغة السلاح . . لغة جديدة لم تكن الصين يوماً من قبل قادرة على أن تتحدث بها أمام دولة واحدة من دول العالم . .

ثم هكذا كان حديثهم فى موضوع خلافهم مع الهند على الحدود . ! كانوا يقولون لى إنهم أشد الناس حرصاً على علاقات ودية ومسالمة مع جميع جيرانهم ، ولكن ذلك لايعنى الاستسلام أو التفريط فى شبر واحد من أرض الصين. وعندما انتهى حديثهم معى عن قصة الخلاف حول الحدود الصينية — الهندية ، جاءوا بى إلى قاعة للسينما ، وأعدوا لى عرضاً سينمائياً خاصاً لفيلم سينمائى طويل ، لايمثل قصة الحدود فحسب ، ولايسرد قصة المفاوضات حول الحدود فحسب ، بل هو يتعدى كل ذلك إلى التركيز على سرد مشاهد القتال الحقيقى التى دارت فى منطقة الحدود ، والانتصارات الكاسحة التى أحرزها الجيش الصينى على الجيش الهندى فى تلك المنطقة . ! لقد أرادوا أن يتركوا للفيلم السينمائى سرد معانى « القوة » فى حياة الصين . . الجديدة . . !

أجل ، هكذا تستبد « القوة » بمشاعر الصينيين فى هذه الأيام . .

وقد لمستها فى خطبهم وأغانيهم ، وأحاديثهم ، وحياتهم . .

لمستها فى المصنع ، والمرأة الصينية أمامى ترفع الفحم بيدها وتقذف به إلى الفرن الملتهب أمام حرارة كاسحة تزيد عن ألف وثمانمائة درجة مئوية . !

لمستها فى « الكوميون » . . والمرأة الصينية فى الحقل ، تركب على ظهر الحيوان ، وتشد وراءها آلة الحراثة ، ويدها تنسج رداء الشتاء ، وعينها ترقب طفلها الصغير وهو يلعب أمام البيت . !

لمستها فى معارضهم الصناعية ، فى بكين وفى كانتون وفى شنغهاى والمسئولون عن تلك المعارض يحرصون فقط على الوقوف بى أمام إنتاج بلادهم من الصناعة « الثقيلة » لكى أسمعهم يقولون لى : « هذا محرك

كهربائى يولد ٢٥ ألف كيلوات ويستطيع أن يولد فى العام الواحد مائة مليون كيلوات ساعة . . » أو : « هذه آلة ضغط قوة العجلة فيها أكثر من ألف وثمانمائة حصان . . » أو : « هذا ميكروسكوب كهربائى قوته مائتا ألف مرة . . » !

وعندما قابلت « شانج وين شين » المدير العام لوزارة الخارجية الصينية ، كانت « القوة » تملأ أحاديثه وألفاظه . .

وعندما قابلت مدير قسم آسيا فى وزارة الخارجية الصينية سمعت « القوة » تنبض فى حروف كلماته ..

وعندما قابلت « كوموجو » نائب رئيس اللجنة المركزية لمؤتمر الكونجرس الوطنى ، فى المبنى الرئيسى للكونجرس ، أحسست « بالقوة » تنطلق من بين أسنانه الصغيرة البيضاء ، وهو الرجل الذى جاوز الخامسة والستين . .

ولم أخرج من زيارة أى مصنع من مصانع الصين ، إلا وكانت أصوات الأناشيد الحماسية المنطلقة من أجهزة الصوت ، تلاحقنى وكأنها هدير بحر ! أناشيد تذكر العامل بواجبه وتهتف على الدوام بحياة العمل ، والعمال ، والاشتراكية . .

ولم أستيقظ مرة فى ساعات الفجر المبكر ، وأطل من غرفتى بالفندق وسط الظلام الدامس على البولفار الممتد أمامى كالثعبان الضخم فى قلب العاصمة بكين ، إلا وسمعت آلاف الأطفال وقد خرجوا فى طوابيرهم التقليدية وأمامهم الأعلام الحمر ، وألسنتهم تردد أغنية أصبحت من كثرة تكرارها أعرف معناها :

« نحب الأغانى فى صوتنا . .
ونحب الشعر فى حسنا . . »

« ولكنا فى الولاء . .

« نحمل قلب محارب . .

« إن الريح حولنا كالرمح ، والمطر فوقنا كالسيف »

« ولا يقدر زائر أن يمشى فى الطريق . .

« ولكننا — نحن — فى ميدان المعركة .

« لا نخشى الرماح ، ولا نخاف السيوف . . ! ! »

هذه هى الصين اليوم :

عملية مستمرة تعوض الحاضر والمستقبل عما فات أهلها فى الماضى . .

عجلة تدور لكى لا تقف أبداً ، تعطى للجيل الجديد ما ضاع على آبائه وأجداده ، طيلة مئات السنين . .

حديث كله اعتزاز يحاول أن يمسح بالرقم والنشيد ، والخطاب والولاء ، والتنظيم ، عار الضعف والفقر والانحلال . .

وإذا كانت « القذارة » من مظاهر الضعف ، فقد أصبحت الصين اليوم أنظف بلد فى آسيا . إن لم يكن فى العالم كله .. ! هى كذلك فى فنادقها . . وفى شوارعها . . وفى مطاعمها . . وفى مكاتب وزرائها . . !

وإذا كانت البطالة ، أو الكسل ، أو الفوضى ، من علامات الضعف ، فليس فى الصين اليوم عاطل ، أو شحاذ . . أو فوضوى . . لأن الصين تريد — بل هى أرادت فعلا — لأهلها ، القوة والعمل والإنتاج والحياة . . !

من هنا سمعت كل صينى يقول لى فى معرض الحديث عن « أهداف » القنبلة الذرية التى فجرت أخيرا :

هذه القنبلة لكم .. لكل أسيوى .. ولكل أفريقى.. ولكل عربى .. ولكل ثائر يطالب بحقه وقوته ووطنه . . ! ! »

ولم أحاول أن أبحث عن اسم العالم الصينى الذى ساهم بالدور الكبير فى تفجير تلك القنبلة . ذلك لأنى كنت أعلم منذ أول أسبوع قضيته فى الصين أن وراء تفجير القنبلة الذرية ، لا يقف شخص صينى واحد ، بل يقف وراء ذلك سبعمائة مليون صينى .. وليس وراءها رجل علمى فرد ، بل وراءها مجموعة علماء صينيين أبوا إلا أن يحققوا لوطنهم — وعلى طريقتهم الخاصة — معنى القوة الذى ضاع عن ذلك الوطن طيلة الأجيال القادمة . ! وأستطيع أن أجزم على ضوء ماسمعت وما رأيت ، أن الصين لم تسرق من أحد أسرار تلك القنبلة ولم تستجدها ، ولم تغر عالما فى أمريكا أو بريطانيا بالهرب من وطنه واللجوء إليها . . إن القنبلة الصينية — دون ذرة شك — قد فجرت بالعلم الصينى ، والإرادة الصينية ، والمال الصينى ، وقد ساهم فى ذلك كل عالم صينى فى داخل الصين ، وفى خارجها . .

هذا الشيء فى حد ذاته — هو فى تصورى — أكبر حادث فى النصف الثانى من القرن العشرين ، لا بالنسبة لآثاره القريبة المباشرة فحسب ، بل بالنسبة لآثاره البعيد والمؤجلة أيضا . .

هذا الشيء ، وسيقولها التاريخ غدا ، هو المحرك الأكبر للمزيد من الثورات الاشتراكية فى أكثر من بلد أفريقى وأسيوى . .

هذا الشيء هو سر الصين الحديثة فى عام ١٩٦٤ ! !



الفصل الخامس

جنة المغامرين

« الأديان تختلف لأن وسيلتها .. بشر ! أما الشرف ، فواحد . . لأنه ينبع من الله . . »

فولتير

« قد تنبع العفة من الدنس ، كما ينبع الفجر من الليل . . »

بلزاك



كان اسمها يملأ الدنيا ، ويحمل إلى الملايين قصص الحب ، واللهو ، والمخاطر ، والأساطير . !

ولكنها عند أهل الصين تحمل اسماً آخر .

لقد سمعت ذلك الإسم فى اليوم الأول من وصولى إلى الصين . ! ثم عدت وسمعته فى بكين . . وفى « هونج شاو » . . وعند كل مسئول أو متحدث أو صحفى قابلتهم هناك . ! وهذا الإسم لا ينطبق على حاضر المدينة بقدر ما يشير إلى ماضيها . لقد أصبحت شنغهاى اليوم « جنة » العمل والعمال ، ولكن حكام الصين يرفضون لها هذا الإسم . إنهم يفضلون لها اسماً آخر ينتقص من ماضيها أكثر مما يشيد بحاضرها . إن اسم شنغهاى إذا مر على ألسنتهم قالوا على الفور وكأنهم آلة تسجيل تعيد إذاعة الشريط المسجل :

— كانت « جنة المغامرين » . ! !

والإسم — لا شك — لطيف . لكن تكراره بصورة أوتوماتيكية ساذجة على لسان الصغير والكبير وفى كل جزء من أجزاء الصين قد أفقده كل طرافته . .

وهكذا عندما قالت السيدة « لى » فى بكين إننا سنذهب غداً إلى المدينة التى كانت بالأمس « جنة المغامرين » فهمت على الفور إنها تعنى : شنغهاى . !

وركبنا الطائرة « الفايكونت » — ولدى الصين عشرات من هذه الطائرات البريطانية التى تسيرها على خطوطها الرئيسية فى الداخل — فى الساعات الأولى من فجر ذلك اليوم متجهين إلى شنغهاى . !

وكان مقعدى فى الطائرة بين السيدة « لى » عن يمينى والسيد « تشانج » عن يسارى . .

والتصوير فى الطائرة ، أو من الطائرة . . ممنوع !

والمسافة لا تقل عن ثلاث ساعات كاملة . .

وظهرت إشارة الخطر على اللوحة الكهربائية تقول للركاب بمنع التدخين ، وربط الأحزمة ..! «ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داوود» .. ؟ فلا أحد من الركاب قرأ اللوحة . . ولا أحد أطفأ سيجارته ... ولا أحد ربط حزامه .. وصعدت الطائرة إلى الجو وأنا أغرب لشعب يطيع حكامه وقوانينه على الأرض ولكنه يتمرد عليهم وعلى قوانينهم فى . . السماء !

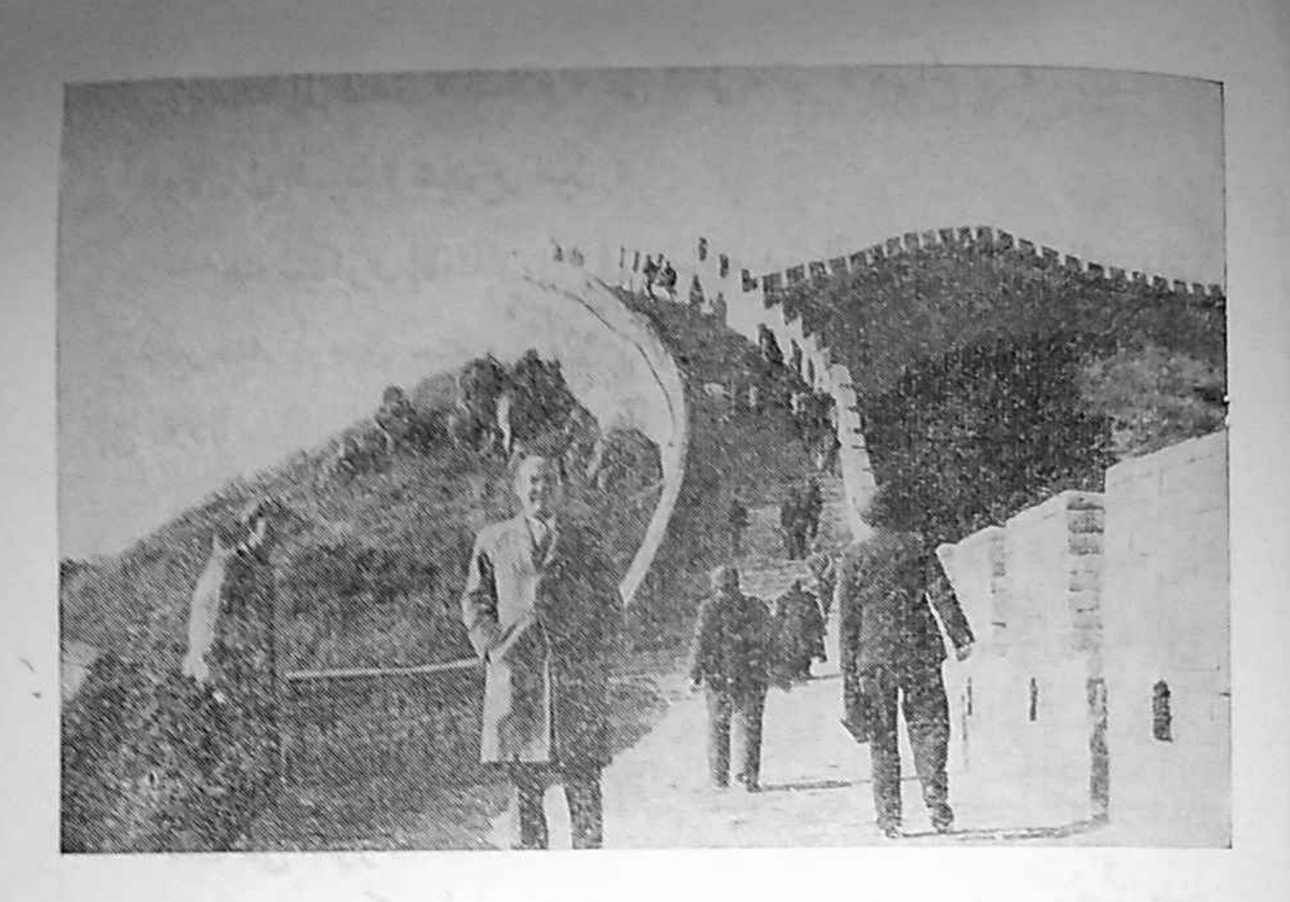
ووصلنا « شنغهاى » لنجد فى استقبالنا على أرض مطارها ، وفداً آخر من رجال الصحافة والإذاعة فى المدينة . .

وتقدم رئيس الوفد لكى يقدم نفسه ، ويقدم زملاءه :

— أنا شين يوسين . . رئيس تحرير جريدة « وين واى » . . اليومية ، ونائب رئيس اتحاد صحافة كل الصين فى شنغهاى ، وهؤلاء هم زملائى : سوزين شياو ، نائب رئيس تحرير جريدة « سينح فينح » المسائية ، و « شياو مو » رئيس مكتب اتحاد الصحافة فى شنغهاى . . .

وقبل أن يبدأ دور خطب الترحيب التقليدية ، ثم الرد عليها ، مشيت مع رئيس الوفد فى اتجاه مبنى المطار وكأنى أنقذ نفسى وأنقذه من هبات الهواء البارد الذى كان يأتى عبر بحر الصين الشرقى ، ونهر « هوانج بو » الشهير . .

ووجدت المدينة مزدانة بالأعلام واليافطات ترحيباً بملك الأفغان الذى كان يقوم بزيارته الرسمية للصين . . وكانت تلك اليافطات تتعدى معنى الترحيب بالملك إلى معنى الدعوة إلى التضامن ، والإشادة بالتعاون الآسيوى الأفريقى . . ثم ، وحدة شعوب العالم . !



المؤلف فوق سور الصين العظيم . .

. . وجلست ساعات مع السيد « شين بن سين » رئيس تحرير جريدة « وين واى » . . اكبر صحف شنغهاى !

ووصلنا إلى فندق « السلام » على شاطىء نهر « هوانج بو » . .

وقال لى السيد « شين ين سين » :

— هنا ستكون إقامتك . . فى هذا الفندق الذى بناه أحد اللوردات الإنجليز منذ أربعين سنة من وراء الأرباح التى جناها فى تهريب الأفيون إلى بلادنا .

قلت له :

— وماذا كان اسم اللورد . . ؟

قال :

— « ساسون » . !

قلت على الفور :

— الإسم يؤكد أنه يهودى . . !

قال :

— ليس الإسم فقط ، بل تاريخ الفندق وقصته ، وطراز أثاثه ، وترتيب غرفه ، كلها تؤكد أن صاحبه يهودى . من الإنجليز اليهود . . !

وبعد إقامة قصيرة فى الفندق ، صحبنى «شين» إلى أعلى مبنى فى شنغهاى ، واسمه « برج شنغهاى » وقد بنى قبل الثورة ، ومن هناك وقفنا نطل على المدينة التى دخلت التاريخ كأشهر قصة للمغامرة واللهو والمال والحب الحرام .

وقال لى « شين » وهو يشير إلى قطعة مشجرة من الأرض تجاور النهر :

هناك أقام الإنجليز حديقة خاصة أطلقوا عليها : « البارك الإنجليزى » ، ووضعوا على بابها الحديدى يافطة تقول : « ممنوع دخول الصينيين . . والكلاب » !

وسألت شين :

— متى كان ذلك . . ؟

قال :

— فى عام ١٨٤٢ ...

قلت له :

— لقد رأيت مشهد هذه اليافطة فى المسرحية المشهورة التى تقدم — حاليا — على مسرح الكونجرس فى العاصمة بكين تحت اسم : « الشرق الأحمر » . . وقد هزنى المشهد إلى حد جعلنى أسأل عدد كبير من الصحفيين الأجانب ورجال السلك الدبلوماسى والمؤرخين عن حقيقة تلك اليافطة ، فلم يؤكد لى وجودها أحد . . بل قالوا جميعا إنها اختراع صينى لتعبئة الشعور المعادى ضد الأجانب . .

قال شين :

إن وجود تلك اليافطة حقيقة لا تقبل الشك . . وقد رآها الآلاف من أهل شنغهاى . ! إن الشعب الصينى لا يكذب !

ثم هبط بى إلى الطابق الأرضى ، وركب معى السيارة وبجوارنا « لى » وزميلها ، ومضينا جميعا نجوب شوارع شنغهاى ، وسألنى شين :

— هل أحدثك عن ماضى شنغهاى . . ؟

قلت على الفور :

— لا . . ! إنى أعرف أنها كانت « جنة المغامرين » . . !

وضحك شين لإجادتى التعبير . . كما شاركته فى الضحك لأول مرة . . السيدة « لى » . . ثم قال :

— لقد كان كل ما يهمنا بعد انتصار ثورة التحرير ، أن نبدل معالم « شنغهاى » بحيث نخلق من فسادها خيرا ، ومن شرها نعمة ، ومن لهوها

عملا ، ومن خطرها أمنا ، ومن دنسها إنتاجا . . هكذا ، إنك ترى أمامك هذا المبنى الكبير الذى كان مخصصا لسباق الكلاب فأصبح اليوم ناديا للعمال ومسرحا للشباب .. إن كل واحد من أربعة أشخاص من أهل شنغهاى ، هو اليوم تلميذ يذهب إلى المدرسة . .

وأكمل يقول : « إن هذه المسافة الشاسعة من الأرض — فى قلب المدينة — كانت مخصصة لسباق الخيل . . فأصبحت اليوم تسمى : « ساحة الشعب » . . تحيط بها الأشجار ، والمبانى والمكاتب ، والمسارح الشعبية لخدمة الناس . ! ثم هل ترى هذا المبنى الأبيض الضخم أمامك . . ؟ إنه كما ترى يضم سبعة طوابق كبرى ، وبرجا عاليا ، وشرفات لا تحصى .. إن اسمه « تاشى جى » أى « العالم الكبير » . . وهو حقا عالم كبير بما كان يضم قبل الثورة من مخاطر ، وفساد ، وعبث ، وقمار ، ونساء . ! هنا كان اللهو « الدولى » يتركز ويتجلى بأوسع مظاهره . ! هنا كانت أعمال اللصوصية ، وسرقة الجيوب ، والخطف ومرافقة النساء الفاسدات ، ولعب القمار ، تجرى حتى مطلع الفجر . ! هل أسرد عليك قصة هذا المبنى . . ؟

وقبل أن أجيب .. وقفت بنا السيارة أمام الباب الرئيسى وهبطنا جميعا.. ودخلنا إلى بهو واسع ملىء بالمرايا والصور،ومنه إلى بهو آخر وقفنا فى وسطه، ورفيقى « شين » يقول لى :

— لقد بنى هذا القصر رجل صينى اسمه « وانج شيون يون » واستثمره حتى بلغ الثمانين من العمر . . وحصر فيه كل أنواع الموبقات فى العالم . . حتى قامت الثورة واستولت على القصر واعتقلت صاحبه الذى بادر واعترف « بانحلاله» فاكتفت الثورة بمصادرة المكان والعفو عن صاحبه . . ثم عملت على تحويله إلى مسارح للعمال يدخلون إليه بثمن بخس ، ويشاهدون على مسارحه لهوا بريئا لا علاقة له بالفساد أو الدنس . . » .

ورأيت أمامى — فى صدر البهو الذى كان — كما قيل لى — مخصصا

للدعارة والفساد — رأيت يافطة كبيرة بحروف حمراء، فسألت « شين » أن يترجمها لى فإذا بها تقول :

— « من أجل أن نبنى بلادنا فى ميادين الزراعة والصناعة والأدب والفن والعلوم . . » .

وخرجنا بعد ساعة أو أكثر، وصوت « شين » يسألنى :

— هل أعجبتك شنغهاى . . ؟

قلت :

— حتى الآن، لم تعجبنى إلا ضخامة الأبنية وعظمة الشوارع . . وكلها — كما أرى — قد قامت بأيدى رأسمالية رجعية لا علاقة لها بالثورة ولا بأصحابها . . .

قال « شين » وهو يطلب من السائق التوجه إلى الفندق :

— سنذهب إلى الفندق، ونستريح وغدا سوف ترى « شنغهاى » الثورة . . شنغهاى المصانع . . والمعامل . . ومبادىء لينين وماركس . . وماوتسى تونج !

وقضيت أول ليلة فى شنغهاى، فى فندق « ثورى » بناه « يهودى »، من أموال « الأفيون »، على شاطىء كورنيش النهر الملىء بالقصص والروايات والأساطير . . !

نمت، وكل ما فى الفندق يذكرنى — دون ما حاجة إلى تذكير — برائحة الدنس الصهيونى الذى عرفته فى فلسطين !

وصحوت فى اليوم التالى، مع ساعات الفجر، على صوت « لى » تنادى بأن موعد زيارتنا إلى المناطق الصناعية المحيطة بشنغهاى، قد حان . .

وهناك كما قيل لى حوالى خمس مناطق صناعية تحيط بمدينة شنغهاى من جميع جوانبها فتشغلها عن التفكير فى أى شىء آخر . . وهذه المناطق

هى منطقة « منج هونج » إلى الجنوب من المدينة وتضم صناعة الأفلام والآلات الصغيرة وآلات التصوير والتليفزيون والآلات البخارية وقد بنيت عام ١٩٥٨ . . ثم منطقة « ووتسنج » إلى الجنوب الشرقى وتضم صناعة الكيميائيات ومشتقاتها ، وقد بنيت فى نفس العام . ثم منطقة « بوتونج » ومعناها « شرق النهر » وتضم الصناعات الثقيلة كالحديد والصلب وقد بنى بعضها قبل حرب التحرير وبنى الباقى فى عام ١٩٥٨ . . ثم المنطقة الرابعة ، وهى منطقة « بونج بو » وتقع إلى الشمال من شنغهاى وتضم — كالمنطقة الشرقية — الصناعات الثقيلة كصناعة الآلات والصلب والحديد وقد بنيت فى عام ١٩٥٨ . .

ولا يعنى هذا ، أن الطابع الصناعى لمدينة شنغهاى ينحصر فى إنتاج هذه الأنواع وحدها ، إنهم يصنعون هنا السيارات الصغيرة ، ويسمونها « فونيكس » وهى أشبه بسيارة « تاونس » الإنجليزية .. كذلك يصنعون اللوريات الثقيلة من وزن خمسة أطنان . . والسيارات الصغيرة من ذات العجلات الثلاث . . بالإضافة إلى صناعة آلات النسيج .. وآلات المترلوجيا ، والسماد الكيميائى ، وأمثالها . .

وقبل أن نقوم بزيارة المصانع ذاتها ، قالت « لى » إنهم قد أعدوا لنا برنامجا خاصا لزيارة المنطقة « الصناعية » المعروفة باسم « مينج هونج » والتى تقع إلى جنوب شنغهاى . . وهى منطقة تضم ثلاثة عشر مصنعا للكهرباء والآلات البخارية على مختلف أنواعها وأحجامها . . وعندما دخلنا حدود تلك المنطقة حيث تقع مدينة العمال التى تضم أكثر من سبعين ألف عامل وجدنا اللافتات الحمراء بحروف كبيرة بيضاء تقول وكأنها تصرخ : « لنا أصدقاء فى جميع أنحاء العالم ! ! » و« إننا نمشى بشجاعة إلى الأمام تحت قيادة زعيمنا ماوتسى تونج » ! ! بالإضافة إلى عشرات من الرسوم الزيتية الضخمة

التى تمثل مواكب الفلاحين والعمال والتلاميذ والجنود ، يرفعون علم الثورة ، ويمشون إلى . . النصر . . وقد تشابكت أيديهم وسواعدهم . !

وسرنا وسط السوق التجارى لمدينة العمال ، فإذا بالدكاكين تغص بالمشترين باستثناء دكان واحد هو المخصص لبيع الكتب الشيوعية ، وفى مقدمتها — دائما — مؤلفات الزعيم ماو . ! لقد وقفت أمام ذلك الدكان أكثر من ربع ساعة فلم أر عاملا واحدا يدخله ، أو عاملا واحدا يخرج منه . ! ولا يعنى هذا أن العمال لا يؤمنون بالثورة . . وإنما يعنى أن هؤلاء العمال وقد أصبحوا « يعيشون » مبادىء ثورتهم ، لم يعد فى نظرهم ضروريا البحث عن تلك المبادىء فى الكتب المرصوصة وبأقلام الزعماء الشيوعيين . ! لقد تبلورت مبادىء الشيوعية فى الصين إلى حقيقة قائمة ، فلم يعد أحد بحاجة أن يراها فى سطور الخطب وحروف المقالات !

وبعد هذا ، فمدينة العمال أمامنا هادئة وديعة . . نظيفة ، وآلاف العمال بألبستهم الزرقاء المعروفة ، يملؤون الشوارع والأرصفة فى نظام دقيق خال من أية ضجة أو فوضى ، والكهرباء تعمّ المكان بأنوارها ومصابيحها والأشجار تحيط بالمدينة وكأنها سور شاعرى يضفى على المكان السحر والجمال . . حتى أننا أوشكنا أن ننسى أن هناك على بعد مئات قليلة من الأمتار منا مصنع للسماد الكيميائى ينتظرنا لكى يروى لنا قصته . !

إنه مصنع « وتسكنج » . . للسماد الكيميائى .

وكالعادة ، مدير المصنع على الباب ينتظرنا . . . ويفتح لنا باب السيارة !

ويدور الحديث . . بين أسئلة منى ، وأجوبة منه . . كلها أدب وإيجاز !

سؤال :

— متى بنى هذا المصنع . . ؟

جواب :

— بدأنا البناء فى عام ١٩٦٠ وبدأنا الإنتاج فى عام ١٩٦٣ . !

سؤال :

— هل اعتمدتم فى بناء المصنع على المساعدة السوفيتية . . ؟

جواب :

— كان هذا المفروض . . كما كان المفروض أن يساهم الاتحاد السوفييتى بالمواد الأولية فى إدارة المصنع . . ولكنهم — أى السوفييت — عندما بدأنا البناء ، إنسحبوا وتركونا وحدنا . . فلم يكن أمامنا إلا الاعتماد على أنفسنا . .

— وما هو حجم الإنتاج . . ؟

— مائة ألف طن للسماد فى العام الواحد . !

— وكم عدد العمال . . ؟

— ألفان وثلاثمائة عامل . .

— هل ينتج المصنع مواد أخرى غير السماد . . ؟

— أجل . . إننا ننتج ٢٥ ألف طن من الأمونيا . . وكذلك أكثر من ثمانين ألف طن من حامض السلفوريك . .

وكلما ازدادت خطواتنا داخل المصنع ، كانت رائحة السماد ، والحوامض تزكم أنوفنا وتكاد تدفع برؤوسنا إلى الدوار . ! وأدرك مدير المصنع حقيقة حالنا ، فدارت بينه وبين « لى » كلمات مختصرة ، سمعت بعدها صوت « لى » تقول لى :

— سنعود إلى الفندق لأن « أسرة الصحفيين » فى شنغهاى قد أقاموا حفلة تكريم لك . . وهم الآن بانتظارنا . .

وهكذا ، ودعنا دنيا العمال ، إلى دنيا الصحافة . .

وهكذا وجدت نفسى بعد دقائق وسط مجموعة من رجال الصحافة فى شنغهاى . . يسألونى عن العرب . . وأسألهم عن الصين !

وكان يجلس بجانبى على رأس المائدة السيد « شن يوسن » رئيس تحرير جريدة « وين وى » اليومية ورئيس جماعة الصحفيين الصينيين فى شنغهاى .. فوجدت نفسى غارقا معه فى حديث طويل .. لذيذ ؟

إنه فى الستين من عمره .. ومعنى ذلك أنه رجل مخضرم شهد حياة الصين فى أسوأ حالاتها ، ثم شهد الحروب ، والثورات .. والشيوعية ..

وبالرغم من أنه يجيد الإنجليزية ، إلا أنه أصر أن يتحدث معى باللغة الصينية ، لكى لا يدع مجالا أمام المرافقين والرقباء ، لأى سوء تفاهم ..! من يدرى . ؟ قد يغيب المعنى الحقيقى فى كلامه عن مفهوم أحد الحاضرين ، فيرفع الأمر إلى المسئولين ، فيصبح مصير الصديق « شين يوسن » على فوهة بركان ..

وبدأنا الحديث بسؤال منى له عن مبلغ مرتبه فى الشهر الواحد . ؟

فأجابنى « شين » :

— أنا أتقاضى حوالى مائتى يوان .. شهريا .. حوالى ثمانين دولار . ؟

— وهل يغطى هذا الراتب جميع نفقاتك .. ؟

— أجل ..! إننى أدفع عشرة « يوان » للسكن .. وعشرة إلى خمس عشرة يوان للأكل .. وثلاثين يوان للسجائر .. والباقى أشترى به كتبا أو أذهب إلى المسرح ..

قلت :

— ألا توفر من راتبك ، شيئاً .. ؟

قلت :

— إذا بقى منه شىء ..!

قلت :

— وما هى نسبة راتبك إلى بقية الرواتب .. هل هو راتب عال .. أم متوسط أم قليل .. ؟

قال :

— لو قيس بمعدل راتب العامل العادى فى الصين — وهو سبعون يوان فى الشهر — لوجدنا أنه راتب عال . .

قلت :

— ولو قيس مرتبك بمرتب الوزير . . ؟ ؟

قال بعد نقاش وحوار بينه وبين الحاضرين :

— لا أدرى الرقم الحقيقى لمرتب الوزير ، ولكنى أعتقد أنه يتقاضى حوالى أربعين « يوان » زيادة عن مرتبى . . .

قلت :

— وماهو مرتب رئيس الوزراء . . ؟

قال دون تفكير :

— لا أدرى . !

قلت :

— وماهو مرتب الزعيم « ماو » . .

قال بصوت عال :

— لا أدرى . . لا أدرى . . ! !

قلت وأنا أنقل الحديث إلى موضوع العمال :

— وهل استطاعت الثورة أن تحل مشكلة البطالة فى بلدكم . . ؟

أجاب :

— نعم . . أن شنغهاى لا تشكو من البطالة . !

قلت :

— وهل تمكنت الثورة من أن تحل المشكلة الأخرى التى رافقت حياة شنغهاى ، وأعنى بها مشكلة السكن . ؟

قال :

— لقد شيدنا سبعة ملايين متر مربع من البناء . . وخلقنا مساكن لمليون عامل كانوا حتى أمس القريب يعيشون فوق السفن القذرة والأكواخ الحقيرة . .

قلت :

— وكم عدد العمال فى مدينة شنغهاى ، كلها . . ؟

قال :

— مليون وأربعمائة ألف عامل ، فى المصانع . . يضاف إلى ذلك عدد العمال فى الكوميونات . .

قلت :

— وما هى النسبة التى يدفعها العامل من مرتبه كبدل سكن . . ؟

قال :

— أكثر من النصف . .

قلت وقد فرغت جعبتى من الأسئلة حول العمل والعمال :

— أستطيع أن أتصورك قائداً كبيراً من قادة الرأى العام فى بلدك ، فهل زرت بلاداً أخرى خارج الصين . . ؟

قال :

— لا . . ! مطلقاً . !

قلت :

— ولا حتى اليابان . . !

قال :

— لا . . ولا حتى اليابان !

قلت :

— أنك كما علمت ، أحد خمسة أوستة يعتمد عليهم سبعمائة مليون صينى

فى المجال الصحفى ، فهل أستطيع أن أسألك عن نوع الكتب التى تقرأها .. ؟

أجاب :

– أقرأ كل كتاب جديد . .

قلت :

– لو كان عليك أن تختار بين كتاب عن الفلسفة وكتاب عن الأدب ، فأى كتاب تختار . . ؟

قال :

– أختار كتاب الفلسفة . . ؟

قلت :

– ومن هو فيلسوفك المفضل . . ؟

قال :

– ماوتسى تونج . . !

قلت :

– وغيره . . ؟

قال :

– لا أحد . . ! !

قلت :

– وما رأيك فى « سانت أوغسطين » مثلا ؟

قال :

– من هذا . . ؟

قلت :

– ونيتشة . . ؟

قال :

– رجعى . ! !

قلت :

— وديكارت . . ؟

قال :

— نظرى . . سطحى . ! !

قلت .

— هل تعتقد أن الأنبياء ، فلاسفة . . ؟

قال :

— ماوتسى تونج . . فيلسوف . !

قلت :

— أنا أسألك عن الأنبياء . . ؟

قال :

— وأنا أجيبك عن . . ماوتسى تونج . !

قلت :

— لماذا تعتقدون أن ما تسمونهم « بالمراجعين » أو « الريفجينست » أو « المنحرفين » ، هم من الخونة ؟

قال :

— لأنهم فى غمرة « مراجعتهم » أو إعادة نظرهم فى المبادى اللينينية — الماركسية قد تخلوا عن المبادىء الرئيسية لماركس ولينين . . . !

قلت :

— ولماذا تزعمون أن زعيما كخروشوف ، هو من هؤلاء . . « الريفجينيست » الخونة ؟

قال :

— لأنه قطع مبادىء ماركس عن أصلها ، وأصبح — فى نظرنا — رأسمالياً . ! ومن الناحية المبدأية أصبح برجوازيا . . . !

قلت :

— لا أستطيع أن أفهمك . .

قال :

— كلامى واضح لأن خروشوف تخلى عن مبدأ « صراع الطبقات » الذى هو أهم مبادىء الماركسية . . !

قلت :

— إن كلماتك واضحة ولكن معانيك تحتاج إلى أمثلة . .

قال :

— إن التعايش السلمى — وهو مبدأ سياسى معروف — لا يتحقق إلا بشروط أهمها إننا لا نستطيع أن نعيش بسلام مع عدو طبقتنا ، لأننا لو سالمنا عدونا بدون شروط فمعنى ذلك أننا قد استسلمنا لعدونا ووضعنا أنفسنا تحت رحمته . .

قلت :

— هل تحاربه — أقصد — هل تحارب عدوك إذن . . ؟

قال :

— إن حرب الطبقات لها أساليب كثيرة ، ولكن أوضح تلك الأساليب هو أسلوب الصراع المسلح بواسطة جيوش . . مسلحة . ! !

قلت :

— هل هذا ينطبق على كل جهة . . ؟

قال :

— أجل . !

قلت :

— وضد كل عدو مهما كانت قوته . . ؟

قال :

— أجل . .

قلت :

— ماذا تنتظرون — إذن — ولماذا لا تحاربون عدوكم المتربص بكم فى فرموزا . . واليابان . . وفيتنام . . ولاوس . . وكل بلد رأسمالى ، استعمارى . . ؟

قال :

— إن مساهمتنا فى الصراع خارج حدود الصين ، يتوقف أولا — على شعوب تلك البلاد . . .

قلت :

— معنى هذا أنكم تتركون تلك الشعوب تحارب أعداءكم وحدها . . ؟

قال :

— بل نساعدهم ، ولكن بأساليبنا الخاصة . . ؟ !

قلت :

— هل أستطيع أن أعرف تلك الأساليب . . الخاصة ؟ !

قال :

— هى أساليب سياسية واقتصادية وثقافية ، وعسكرية سرية . !

قلت وأنا أعود بالحديث إلى موضوع الصحافة :

— هل لك الحق — كصحفى — أن توجه رجال الدولة ؟

قال :

— لا . . إن مكان مثل هذا التوجيه هو مجلس الكونجرس . . الذى لا يحتاج إلى توجيهنا . ! !

قلت :

— وكيف لمجلس الكونجرس أن يقف على قضاياكم ويتعرف إلى آمالكم ومشكلاتكم ؟

قال :

— لنا فيه أعضاء يمثلوننا لديه . .

قلت :

— هل أنت عضو فى الكونجرس . . ؟

قال :

— أنا عضو فى اللجنة الاستشارية التابعة للكونجرس . .

قلت :

— لماذا لا تنشرون قرارات الكونجرس فى الصحف . . ؟

قال :

— لأنها سرية . . ولأن «الأعداء» يستفيدون من نشرها !

قلت :

— وكيف يتسنى للشعب أن يقف على تلك القرارات . . ؟

قال :

— الشعب يثق بزعمائه . . وبمجلسه . . وهذا يكفى !

قلت والحديث يمشى صوب الصحافة !

— كم عدد الصحف فى شنغهاى . . ؟

قال :

— أربع صحف .. اثنتان فى الصباح وواحدة مسائية والرابعة أسبوعية . والصحيفة الرئيسية فى شنغهاى هى صحيفة « الحرية » وتوزع مليون ونصف مليون نسخة فى اليوم الواحد . .

قلت :

— وما مصادر أخباركم . . أعنى ماهى المصادر الصحفية التى تعتمدون عليها فى عملكم الصحفى اليومى . ؟

قال :

— نعتمد أولا على الوكالة الصينية الرسمية المعروفة باسم « ينج هوا » والتى توزع علينا الأخبار بواسطة « التيكرز » أما الآراء فنقتبسها من افتتاحيات ومقالات جريدة « الشعب » التى هى جريدة الدولة الرسمية والمعروفة باسم « رين مين ريباو » . .

قلت :

— وهل لرئيس التحرير لهذه الصحيفة صفة رسمية فى الدولة . . ؟

قال :

— لا . . ولكن — « وى لون سى » وهذا هو اسمه ، رجل له أهمية لا تقل عن أهمية أى رجل مسئول . . كبير !

قلت :

— وكم يبلغ توزيع جريدة الدولة الرسمية . . ؟

قال :

— مليون وثلاثة أرباع المليون نسخة فى اليوم الواحد . . !

وساد بيننا سكوت مفاجىء قصير ، لم يقطعه سوى صوت « لى » تقول وهى تنظر إلى ساعتها :

— لقد حان موعد الزيارة لمصانع الحديد والصلب . .

أجل ، مصانع الحديد والصلب . ! !

وقد حاولت أكثر من مرة بدافع من طبيعتى أن أتخلص من زيارة مصنع مثل مصنع الحديد والصلب ، ولكن دون جدوى ! إن أهل الصين

— الثورة — أحرص الناس على إثبات مقدرتهم الثورية ، لا فى ميادين الفن أو السياسة أو الأدب فحسب ، بل فى إنتاج الطائرة والدبابة والسيارة . . والحديد والصلب ! إنهم ، وهم يدعونك إلى زيارة مثل هذا المصنع يقولون مرة بعد مرة : « هذا ما تستطيع أن تقوم بإنتاجه شعوب آسيا ! لم يعد إنتاج الصلب وقفا على الغرب.. أو على السوفيات . . نحن أيضا ننتج الحديد والصلب ! إنه هديتنا لكل شعوب آسيا . . وكل شعوب أفريقيا » . .

وهكذا وجدت نفسى على باب « المصنع نمرة ١ للحديد والصلب » فى شنغهاى ، برغم أننى !

وعلى الباب — كالعادة — وقف مدير المصنع واسمه : « شانج صن » وقال مرحبا :

أهلا بك فى المصنع نمرة (١) . .

قلت وأنا أصافحه :

— وما معنى هذه التسمية . . ؟

قال :

— إن هناك ثمانية مصانع أخرى للحديد والصلب فى شنغهاى . !

قلت :

— وهل هذا المصنع ، أكبر تلك المصانع . . ؟

قال :

— بل « من » أكبرها . .

قلت :

— أرجو أن أسمع منك كل ما تريد أن تقوله لى ، وبعد ذلك نبدأ فى الأسئلة . .

وبدأ « شانج صن » يتحدث عن مصنعه وكأنه يردد أغنية حلوة ، أو يناجى حبيبته الجميلة التى تقف أمامه !

قال إن تاريخ المصنع يعود إلى عام ١٩٣٥ عندما بدأ اليابانيون « الغزاة » فى بنـاء إحدى وحدات هذا المصنع التى بدأت إنتاجها فى عام ١٩٣٨ واستمرت حتى عام ١٩٤٣ ثم توقفت . . ثم عادت إلى الإنتاج بعد الحرب الأخيرة . . فاستولت عليها حكومة « الخائن » شانج كاى شك . . حتى تمت عملية تحريرها نهائيا . . »

وسكت « شانج » قبل أن يقول :

— آسف أن ليس عندنا أية منشورات مكتوبة أو كتالوج مصور عن المصنع لـكى أقدمه إليك . .

قلت مقاطعاً :

— لا بأس .. فهذه ملحوظة بارزة — ومؤسفة معاً — وجدتها فى كل المصانع والمرافق التى زرتها فى بلادكم حتى اليوم . .

ثم أكمل « شانج صن » يقول :

— فى عام ١٩٤٨ كان الإنتاج « السنوى » للمصنع لا يزيد عن ألفين وستمائة طن من الفولاذ . . واليوم يزيد الإنتاج « اليومى » عن ألفين وسبعمائة طن . !

وسكت « شانج » وكأنه يقول لى إن جعبته فى الـكلام قد نفدت . .

فقلت له :

— كم عدد ساعات العمل ، عندكم . . ؟

قال :

— ثمانى ساعات على ثلاث دفعات . . وعجلة المصنع لا تتوقف أبدا . !

قلت :

— إلى أى مدى ساهمت « الخبرة » السوفياتية فى إقامة هذا المصنع ؟

قال :

— لم نلجأ إليها . . . ولم نبحث عنها !

قلت :

— هل تصدرون الإنتاج إلى خارج الصين . ؟

قال :

— إن ما ننتجه ، نستعمله فى مشاريع البلاد . .

قلت :

— هل تعتقد أن مستوى إنتاجكم للصلب يقف على قدم المساواة مع الأنواع التى ينتجها السوفيات أو الأمريكيون . .

قال :

— هناك ستة وسبعون نوعا من أنواع الصلب الذى ننتجه نحن . . ولا أعرف كثيراً عن إنتاج غيرنا . . إننا ننتج نوعا من الصلب لمصانع السماد . . ونوعا آخر لمصانع البترول ، ونوعا ثالثا للآلات الزراعية ، وليس هذا المصنع هو « أعظم » مصانع الصلب فى البلاد . . هناك ما هو أعظم منه فى . . « آن شان » شمالى شرق الصين . . وكذلك فى « وو هان » فى قلب الصين . !

قلت :

— ومن أين تأتون بالفحم اللازم لصناعة الصلب . . ؟

قال :

— نستخرجه من مقاطعة « آن ووى » إلى الغرب من شنغهاى حيث تتوفر مناجم الفحم . ! »

وانتهت الأسئلة . . أو أردتها أن تنتهى ! لقد تعبت !

ومشينا معا إلى داخل أفران الصلب . .

ورأيت النساء . . أجل رأيت المرأة الصينية تقف أمام الفرن المخصص

لصناعة الصلب ، وحرارته تزيد على ألف وستمائة درجة مئوية ، وتقذف بيدها بالفحم اللازم إلى داخل الفرن . . ورأيتها أيضاً تفتح باب الفرن بيديها لكى يسيل منه الفولاذ المتوهج السائل ، ورأيتها أيضاً تجمع جمرات النار المتطايرة من حولها وتعيدها إلى داخل الفرن وكأنها تداعب طفلها . . أو تقطف وردة من بستانها !

ومررنا على أحد عشر فرنا . . كل واحد منها يتسع لعشرة أطنان من الفولاذ . !

وسألنى مدير المصنع فى نهاية الجولة :

— ما رأيك . . ؟

قلت :

— المرأة عندكم أعظم من الفولاذ . . !

وابتسم ، وسألنى :

— أليس لديك ملاحظات على المصنع . . ؟

قلت :

— أجل . . إن الإنارة داخل المبنى ضعيفة وتكاد تكون معدومة . . والمصنع ينقصه الكثير من الوسائل الآلية والأتوماتيكية لكى لا يحتاج إلى يدى امرأة تفتح بهما باب الفرن أو تجمع الجمرات أو تنقل الأوعية . . كذلك الإنتاج مبعثر فى الداخل والخارج ويحتاج إلى تنظيم . . وصيانة . . وحفظ !

قال « شانج صن » وهو يهز رأسه :

— سنحاول إيجاد حل لملاحظاتك فى المستقبل . . .

وخرجنا إلى الشارع العام ، ووراءنا منظر مليونى متر من الأرض تضم مصنعا واحدا من مصانع الحديد والصلب . .

ورأيت « شانج صن » يشير إلينا أن نقف . . وعندما قاطعناه قال وكأنه ينقل لى نبأ خطيرا :

— ألا تشعر بحاجة إلى فنجان من الشاى . . ؟

وضحكت وأنا أودعه قائلا :

— أشعر بحاجة إلى حمام ساخن يزيل عن وجهى ورأسى آثار هذه الزيارة من الفحم والتراب . .

وعدنا إلى الفندق . .

وعادالحديث مع شلة الصحافة والإذاعة والأدب، يدور حول .. السياسة !

وقلت للسيد « صون زين شياو » رئيس تحرير « سينج مينج » اليومية فى شنغهاى . .

— هل أنت عضو فى الحزب الشيوعى الصينى . . ؟

قال :

— أجل . !

قلت :

— ما المعنى الذى تقصدونه عندما تقولون فى بياناتكم ونشراتكم : « الجلسة الثانية من الكونجرس الثانى » . . ؟

قال :

— هذا هو أسلوب الاجتماعات للحزب الشيوعى الصينى . .

قلت :

— ومتى كان أول « كونجرس » للحزب . . ؟

قال :

— فى عام ١٩٢١ وفى مدينة شنغهاى بالذات . .

قلت :

— ما المدة المطلوبة لمولد كل كونجرس جديد . ؟

قال :

— هذا يتوقف على الحالة العامة للحزب ، وللبلاد . . أحيانا يبقى الكونجرس لمدة سنوات طوال ، وأحيانا يظهر كونجرس جديد . .

قلت :

— هل تستطيع أن تفسر لى كلامك هذا ؟

قال :

— فى خلال الحرب الأهلية عقدنا عدداً محدوداً من جلسات الكونجرس لأن المناطق الصينية « المحررة » كانت مجزأة عن بعضها البعض ، وفى نهاية « السير الطويل » عقدنا الكونجرس السابع ، ثم عقدنا جلسة لجميع مندوبى الحزب فى البلاد عام ١٩٥٦ وهؤلاء المندبون انتخبوا اللجنة المركزية للحزب الصينى الشيوعى . . التى بدورها عقدت أول جلسة للمؤتمر الثانى . . وعندما انتهت جلسات الكونجرس ، بدأت اللجنة المركزية تعقد جلساتها . . وكما قلت لك إن مدة عقد الجلسة تعتمد على الموقف الداخلى فى البلاد .. أولا وأخيراً !

قلت :

— وكم من الوقت تستغرق كل جلسة من جلسات الكونجرس . . ؟

قال :

— هذا يتوقف على جدول الأعمال . .

قلت :

— كم جلسة عقدها مجلس الكونجرس للحزب منذ عام ١٩٥٦ حتى اليوم ؟

قال :

— نحو عشر . . !

قلت :

— وهل نشرتم قرارات تلك الجلسات على الناس . . ؟

قال :

— بعضها فقط . .

قلت .

— متى كانت — بالضبط — آخر جلسة لمجلس الكونجرس . . ؟

قال :

— اجتمعت اللجنة المركزية للحزب ، لا الكونجرس ، فى عام ١٩٦٢ وكانت « الجلسة العاشرة من الكونجرس الثانى للجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى » . .

قلت :

— منذ عام ١٩٦٢ حتى اليوم ، لماذا لم تعقد اللجنة المركزية للحزب جلسات أخرى . . ؟

قال :

— يعقد الحزب جلسات أخرى ولكن ليس تحت اسم « اللجنة المركزية ».

قلت :

— ماذا تسمون تلك الجلسات . . ؟

قال :

— اجتماعات « عمل » . .

قلت :

— أريد أن أسألك — مرة أخرى — لماذا لم تجتمع اللجنة المركزية للحزب منذ عام ١٩٦٢ . . ؟

قال بعد تفكير :

— الجواب عند اللجنة المركزية للحزب . . !

قلت :

— أنا أسألك عن تفسير لذلك الأمر ، كصحفى .. وكمواطن . . وكعضو فى الحزب الشيوعى . .

قال :

— أنا أتفق مع حزبى ولا أسأل حزبى لماذا لايجتمع . . إننى أثق به . !

قلت :

— هل تعتقد أن هناك اجتماعات قادمة للحزب . . ؟

قال بعد نقاش مع زملائه :

— لا أعرف . .

قلت :

— كم عدد أعضاء الحزب الشيوعى الصينى . . ؟

قال :

— سبعة عشر مليون شخص . .

قلت :

— وما هى شروط الانتساب إلى الحزب . . ؟

قال :

— الشروط يعرفها الذى يريد أن ينتسب إلى الحزب . .

قلت :

— لا شك أنك تعرفها . . ألست عضواً . . ؟

قال :

— أعرفها ولكن لا أذيعها . .

قلت :

— هل تعرف اسم سكرتير الحزب الشيوعى . . ؟

قال :

— بالطبع . . إنه تونج شياو بينج . .

قلت :

— ومن هم أشهر أقطاب الحزب . . ؟

قال :

— الرئيس ونوابه الخمسة . !

قلت :

— هل تعتقد أن اللجنة المركزية للحزب تستطيع أن تستوعب كل آمال الأعضاء الملايين وتعمل لخدمتهم . . ؟

قال :

— لا يحتاج الأمر إلى بحث . .!!

قلت :

— وكيف يتم اختيار اللجنة المركزية . . ؟

قال :

— من ممثلى الحزب فى الكونجرس ، الذين يتم اختيارهم — بدورهم — من كل مقاطعة فى الصين . .

قلت :

— وماذا كان أثر إقالة خروشوف فى نفسك ، كشيوعى . . ؟

قال ونظراته المندهشة تسبقه إلى وجوه زملائه :

— جاءت حادثة خروشوف لكى تؤكد لى إفلاس طائفة «الريفجنست» وأن السير على خطاهم لا يؤدى إلا إلى الإفلاس . !

قلت :

— وهل كنت تتوقع هذه الحادثة . ؟

قال :

— كنت دائما أتوقع نهاية الطائفة السياسية المنحرفة التى ينتمى إليها أمثال خروشوف . !

قلت :

— وبمثل تلك السرعة التى انتهى خلالها . . وإليها ؟

قال :

— من الناحية الفلسفية ، لم أشك لحظة فى قرب نهاية المنحرفين ولكن نهاية خروشوف جاءت قبل الموعد الذى حددته لها . . وله . !

قلت :

— وهل من المنتظر أن تتحسن العلاقات مع الاتحاد السوفيتى بعداليوم؟

قال :

— هذا يتوقف على السوفيات . . وسياستهم . . ولكنى واثق من شىء واحد هو أن العلاقة بين البلدين لن تكون فى المستقبل أسوأ مما كانت عليه فى الماضى . . فى أيام خروشوف ، إذ لو كانت مثل هذه العلاقة ستسوء لما كان هناك أى مبرر لخروج خروشوف من منصبه . ! »

وساد سكون قصير لم يقطعه سوى صوت الحضور وقد دارت بينهم مناقشة حادة باللغة الصينية لم أكن أفهم منها شيئاً . . ولعل هذا ما جعل « لى » تقول وصوتها يعلو على صوت المناقشة :

— سنذهب الآن لزيارة معرض شنغهاى ، فهل أنت مستعد ، أم أنك بحاجة إلى . . الراحة ؟

قلت :

— بل أنا مستعد . . برغم حاجتى إلى الراحة .

ووقف رئيس التحرير ورئيس الوفد ورفع كأسه المليئة بنبيذ « الماوتاى » وهو أشهر مشروب فى الصين وصاح فى وجهى :

— نشرب نخبك . . نخب صحتك . !

وشربنا . .

ثم رفع الكأس وقال :

— ونشرب نخب الصداقة بين بلدينا . !

وشربنا . .

ثم رفع الكأس وقال :

— ونشرب نخب الشعوب الحرة . . والاشتراكية . . والعمال . . والحرية . . ووحدة الكفاح . . والاستقلال . . والتضامن !

وقبل أن يرفع صديقى رئيس التحرير كأسه للمرة العاشرة ، نهضت من مقعدى وصحبت « لى » من يدها قائلا :

— هيا بنا إلى معرض شنغهاى . . الصناعى . !

ولكن . .

هل الحديث عن الصناعة فى الصين ، يدخل ضمن هذا الحديث عن شنغهاى . . ؟

لا أظن . .

يكفى أن أقول إننى قضيت أربع ساعات طوال فى مبنى معرض شنغهاى الصناعى وسط ثمانية عشر ألف نوع من الصناعات الصينية ، كلها ، كل نوع فيها ، خرج من المصانع المجاورة لمدينة شنغهاى ، بالذات . . !

وعندما قرأت على باب مبنى المعرض ، لوحة تقول « عاشت الصداقة الروسية — الصينية » قلت لمرافقى :

— هل معنى هذا أن جميع ما فى هذا المعرض من صناعات ، مدينة كلها للخبرة أو للمعونة الروسية . . ؟

قال بحزم :

— لا . .

قلت :

— وما تفسيرك لهذه اللوحة إذن . . ؟

قال :

— المبنى فقط ، أقيم بالمعونة والخبرة الروسية . . لقد صمم البناء خبير سوفياتى ، وبنيناه نحن وحدنا ، فى عشرة شهور فقط . .

وحان الوقت الذى تنتهى فيه زيارتى لشنغهاى . .

لقد رأيت « فى جنة المغامرين » ، أجمل ما فيها . .

حتى « الحب » فى شنغهاى ، رأيته برفقة « لى » وزميلها ، ونحن نمشى عند منتصف الليل على كورنيش النهر ، وأمامنا على المقاعد بعض الشباب والشابات فى أوضاع غرامية لم يرض عنها رفقائى ، ولكنها لفتت نظرى وأثبتت لى أن الحب أقوى من القانون ، ومن الشيوعية ، ومن الأمطار والزوابع وعواصف الأنهر والمحيطات . .

إن جنة المغامرين ، ما زالت تضم أضخم المبانى فى الصين . كلها . . قامت بأموال الرأسمالية الفرنسية والإنجليزية والأمريكية واليابانية !

وما زالت شنغهاى ، أجمل مدينة فى الصين . . بالرغم من أن حكام الصين لا يعترفون بذلك ، ولا يقرونه . . .

وعلى باب الطائرة فى مطار شنغهاى الكبير ، وقفت أودع أصدقائى وعلى رأسهم السيد « تسنج تسيونج هوا » رئيس جريدة « وين هوى » .. وأنا أشكرهم على حفاوتهم وأقول لهم :

— جنة المغامرين ما زالت جنة . !

وشد رئيس التحرير على يدى وقال ضاحكا :

— ولكن بلا . . مغامرين !

وحملتنا الطائرة الفايكونت ، عائدة بنا وسط الأعاصير والجو الملبد بالغيوم . . إلى . . بكين !



الفصل السادس

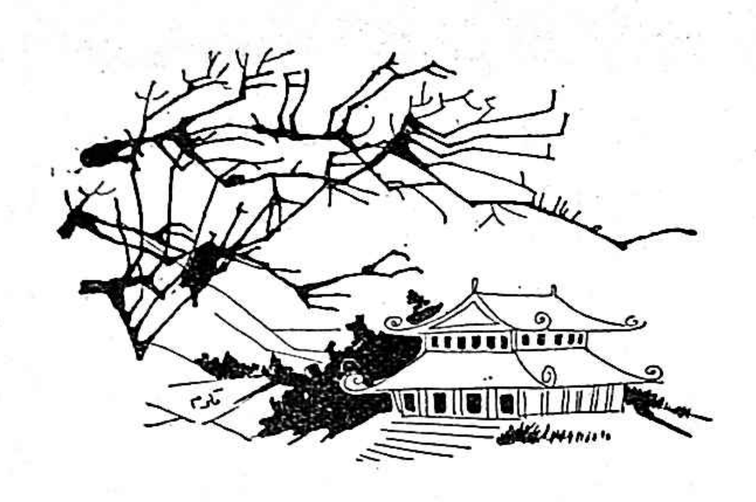
سر الكوميون !

« كان فى حديثه معى يخبرنى ولم يكن يسألنى . . !
لقد قال لى « ماو » إنهم سيخلقون نظام الكوميونات فى الصين ، فقلت له إن هذا من شأنكم وحدكم ولكننا جربنا هذا النظام فى الماضى ، وفشلنا . . وفشل النظام ! »

« خروشوف ١٩٥٨ »

« واليوم عندنا كوميون الشعب »
« أشبه بجسر من ذهب »
« يمشى بنا إلى الجنة »
« ونغنى به للقمر »
« ونتحدى به الشمس »

« أغنية صينية »



فى تصورى أن أهم ثلاث مراحل فاصلة فى تاريخ الحكم الثورى الصينى منذ قيامه حتى اليوم هى : إنشاء نظام الكوميون ، والخلاف مع موسكو ، وتفجير القنبلة الذرية !

وقد ذهبت إلى بكين إثر سقوط خروشوف وتفجير القنبلة الصينية ، فكان من واجبى أن أبحث عن سر « الكوميون » قبل أن أبحث عن سر سقوط خروشوف أو سر انطلاق أول قنبلة صينية . . ذرية !

ولا أعرف نظاما اختلف بشأنه وبشأن تقديره الناس ، كنظام الكوميون ! لقد تبرأ منه ومن مسئوليته نيكيتا خروشوف ! لقد وصفه جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا أمام ممثلى مشروع « كولومبو » فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٨ « بأنه عملية قاسية فرضت العبودية على ستمائة وخمسين مليون صينى وجردتهم من كرامة الفرد الإنسان ، وخلقت من الصين دولة للعبيد » ! وكذلك فعلت الصحافة البريطانية عندما مضت تصور نظام الكوميون وكأنه « جبل من الجماجم وبحر من الكراهية » !

وهكذا عندما قيل لى فى بكين إننى سأزور أكثر من « كوميون » واحد ، تصورت أننى سأواجه أكثر من تجربة إنسانية قاسية واحدة . .

وأبادر وأقول إن ما رأيته خلال زياراتى المتكررة للكوميونات المختلفة الثلاث فى الصين لا يعنى أننى قد أدركت سر فكرة أو سر وجود الكوميون الصينى بأسره ! إن فى الصين أكثر من ثلاثين ألف كوميون !

إن فى مقاطعة « كونج تانج » الجنوبية وحدها أكثر من ألف وستمائة كوميون.! وإذا كانت فكرة « الكوميون » واحدة ، ومبدؤها واحد ، إلا أن تفاصيلها تختلف ، وظروفها تتباين ، وعملية تطبيقها تعتمد أولا وآخرا على ظروف المنطقة وأحوال أهلها . .

لهذا ترانى أكتب عن الكوميون الصينى وكأنى أعنى فقط ذلك النوع من « الكوميونات » التى أتيح لى زيارتها ودراسة أحوالها عن كثب ، لا سواها من آلاف الكوميونات الأخرى التى لا يتسنى للمرء زيارتها كلها إلا إذا قضى العمر بأسره ينتقل من كوميون إلى كوميون . . !

وقد بدأ العالم يسمع عن شىء اسمه « الكوميون الصينى » فى خريف عام ١٩٥٨ . . ولكن العالم قبل ذلك لم يكن يدرى شيئاً عن الظروف والتطورات التى دفعت بالثورة الصينية إلى خلق هذا النظام وتعميمه على ربع سكان العالم . . ! لذلك كان حرصى شديداً وأنا ألتقى بالمسئولين الصينيين على مختلف المستويات أن أسألهم — وبإصرار — عن قصة الكوميون ، والظروف التى سبقت قيامه ، والظروف التى نتجت عنه . . !

وكانت إجابات المسئولين الصينيين لى لا تبعد كثيراً عن معان مركزة أرادوا تأكيدها وترديدها . فهم يقولون أولا ، إن قوة الفلاحين — قبل غيرها — هى التى ساعدت على انتصار الثورة عام ١٩٤٩ . ! وهم يقولون — ثانياً — إن أكثر من ثمانين فى المائة من الشعب الصينى ينتسب — أصلا — إلى طائفة الفلاحين المزارعين ! وهم يقولون — ثالثا — إن حالة هؤلاء الفلاحين قبل الثورة كانت لا تتعدى حالة أسوأ أنواع الحيوانات من حيث مستوى المعيشة أو مستوى الصحة أو مستوى الثروة أو مستوى الحياة ! ويستشهدون على أقوالهم بالتأكيد أن « الخائن « شانج كاى شك ، قد حاول فى أواخر أيام حكمه أن يصدر تشريعات زراعية من شأنها أن تجعل من الفلاح الصينى مالكا للأرض وسيدا عليها وذلك خلال فترة لا تتعدى

خمس سنوات لولا أن كانت الثورة أسرع منه ، فقضت عليه وأصدرت التشريعات الثورية التى أعادت للفلاح الصينى كرامته « وأرضه » وإنسانيته !

ومعنى ذلك — بلغة الثورات — إن الفلاح الصينى الذى ساهم بأوفر نصيب فى معركة الثورة ، كان عنده ، وكان حوله، وكان فيه ، ما يشكو منه ، وما يدفعه إلى أن يثور ! وهو ، وقد انتصر فى ثورته ، فقد أصبح من حقه أن يجنى ثمار هذه الثورة وأن يقضى — على الأقل — على كل الأسباب التى كان يشكو منها قبل قيام الثورة . !

ولكن مصلحة الفلاح فى أن يحرر نفسه من رق صاحب الأرض ، يجب ألا تتعارض مع مصلحة البلاد فى اتباع الوسائل الكفيلة بأن توفر للشعب باسره المواد الغذائية اللازمة وأن تضاعف إنتاج الأرض من الخضروات والقمح والفاكهة والضرورات الحيوانيــة بحيث تقضى على المجاعة والحاجة والفقر . .

لذا ، — وهكذا قال لى هؤلاء المسئولون — نادى زعيمنا « ماو » منذ عام ١٩٤٣ بأن « العمل التعاونى المطرد فى الحقل الزراعى هو الحل الوحيد القادر على أن ينقذ الفلاح من فقره وجوعه » . .

وعلى ضوء ذلك، تبين للثورة الصينية أن عملية توزيع الأرض على الفلاحين، والتى رافقت انتصار الثورة ، لم تقدر أن تفى بالغرض المطلوب منها وأن توفر للشعب مزيدا من الإنتاج الزراعى — نوعا وكمية — مما حدا بها أن تدعو الفلاحين إلى الانخراط فى تنظيمات زراعية أطلق عليها اسم « فرق تبادل المساعدة » . . MUTUAL AID GROUPS ومهمتها أن يتبادل المزارعون الخدمة والمعرفة الزراعية فيما بينهم ، فيساعد الفلاح المختص بزراعة العنب مثلا زميله الفلاح المختص بزراعة القمح ، أو يساعد فلاح الحنطة جاره فلاح الخضار وهكذا . . إلى أن قطعت هذه التنظيمات خطوة أخرى وتطورت إلى ما يسمى

بالتنظيمات التعاونية «CO — OPERATIVES» ، وهى مرحلة تمهيدية عابرة حفظت للفلاح ملكية الأرض ، ولكنها أخضعت الخدمة الزراعية وحدها للعمل التعاونى ، ثم تطور ذلك إلى مرحلة أخرى من العمل المتبادل أصبحت فيها الأرض مع الخدمة الزراعية مع الأرباح ، كلها ، تخضع للطابع الجماعى التعاونى المشترك . .

لقد جرى هذا كله قبل عام ١٩٥٧ ، بحيث لم يبدأ عام ١٩٥٨ إلا وقد أصبح أكثر من سبعة وتسعين فى المائة من الفلاحين الصينيين أعضاء عاملين فى التنظيمات التعاونية الجماعية المطلقة . . .

ولكن هل استطاعت هذه التنظيمات التعاونية — حتى فى صورتها الأخيرة — أن تتجاوب مع الخطة التطورية الثورية التى أعدتها الصين — الثورة — لحل مشكلة البطالة بين الفلاحين ، وللقفز بالبلاد إلى المستوى التقدمى المطلوب بحيث يقدم الفلاح للدولة كل طاقته ولا تنحصر ساعات عمله — مثلا — فى نصف ما هو مطلوب منه أن يعمل كما كانت الحال فى تلك المؤسسات . . ؟ ؟

والجواب :

— لا . .

من هنا ، كان لابد من ضرورة البحث عن مرحلة أخرى جديدة تحمل الفلاح الصينى إلى طابعها ، وقانونها ، ومستلزماتها .

ولعل الظروف — وحدها — هى التى فتحت الطريق أمام هذه المرحلة الجديدة .. إذ عندما أعلنت الحكومة الصينية فى شتاء عام ١٩٥٧ — ١٩٥٨ عن عزمها على تنفيذ خطة زراعية جديدة لإصلاح الأراضى البور وريها بوسائل شق الترع وبناء السدود . . تقدم للتطوع فى هذا العمل ملايين من الفلاحين الصينيين مما أدى إلى إصلاح حوالى خمسة عشر مليون هكتار جديد من الأرض . . فى فترة قصيرة !

وكان هذا فى حد ذاته يحمل الخير العميم للبلاد ، ولكنه لم يستطع أن يجنب تلك المؤسسات التعاونية من آثار مفاجئه لم تكن مستعدة لها حيث وجدت نفسها أمام « طفرة » مفاجئة من الأرض لم تكن إمكانياتها المحدودة مستعدة لمواجهتها أو استغلالها وخدمتها . . وهكذا اضطرت بعض هذه المؤسسات التعاونية إلى أن تخرج عن نطاقها الخاص وتمد يدها إلى مؤسسات أخرى وتتعاون معها لمواجهة الحالة الجديدة . . ! بل إن بعض تلك المؤسسات رضيت أن تندمج فى مؤسسات مشابهة لها بغية توفير المزيد من الإمكانيات كاليد العاملة ، والخبرة ، ورأس المال . . إلخ . . لمواجهة الوضع الجديد . .

وهكذا — أيضا بدأت ما يسمى بالصينية عملية « تاشية » أو دمج المؤسسات التعاونية وما رافقها من توزيع العمل ، وانتخاب المديرين المسئولين ، وإنشاء المرافق الصحية المطلوبة . . مما حدا بالرئيس « ماو » إلى تشجيعها رسمياً ، ومدها بالقروض المالية ، وإطلاق اسم «الكوميون».. عليها ! !

وهكذا ولد . . الكوميون الصينى !

وسألت نفسى وأنا أدخل لأول مرة إلى الكوميون الصينى بجوار العاصمة بكين :

— ترى هل وجدت الشيوعية الصينية — أخيرا — الحل المناسب لمئات الملايين من فلاحيها ومزارعيها . . ؟

ولم أستطع أن أجيب ، لأن السيد « يوان ين جون » المدير العام للكوميون المسمى : « كوميون الصداقة الشعبية الصينية الكورية » أو باللغة الصينية : « تسونج شياوزين مينج كونج شى » كان يقف على باب الكوميون ينتظر وصولى للزيارة ويمد لى يده مصافحا . .

ورأيته شيخا فى السبعين . . رغم أنه يؤكد أن عمره لا يزيد عن السابعة والستين . !

وجلست بجانبه فى المبنى الصغير المجاور لمدخل الكوميون ، أتناول منه قدح الشاى بلا سكر وأستمع إليه وهو يروى لى قصة حياته قائلا :

— كنت أعمل فى الريف . . مجرد مزارع عادى . . فى ظل نظام رجعى فاسد كنا فيه مجرد عبيد . . حتى قامت الحرب ضد اليابان فاشتركت فيها ، وانخرطت فى صفوف المقاتلين لمدة ثمانى سنوات ولما انتهت الحرب . . عدت إلى الحقل ، وإذ بحرب التحرير ضد الخائن « تشانج كاى شك » — تدعونى للصفوف ، فتركت الحقل وتطوعت فى جيش التحرير ، حتى كان لنا النصر على أعدائنا . . وعندئذ أصبحت مسئولا عن إحدى المؤسسات الزراعية التعاونية التى انبثقت بعد انتصار الثورة . . وعندما قام نظام « الكوميون » أصبحت — أنا — مسئولا فى منصبى الحالى . . الذى ترانى فيه !

قلت للسيد «يوانج ين جون» مدير الكوميون «الصينى الكورى» :

— وهل كانت لديك خبرة زراعية قبل أن تنخرط فى القتال . . ؟

قال :

— كنت أملك قطعة زراعية مساحتها « ٨ مو » أى ما يساوى نصف هكتار !

— وهل تعتقد أن هذا كاف لأن يجعلك أهلا للعمل الزراعى ؟

— أجل . . أنا أعتقد ذلك . .

وكم عدد سكان هذا « الكوميون » ؟

خمسة وخمسون ألف شخص . .

— وأنت المسئول عنهم جميعا . . ؟

— أجل . .

— وأنت المسئول أيضا عن العشرة آلاف وخمسمائة هكتار التى هى مساحة الكوميون . . أليس كذلك . . ؟

— أجل . .

— وأنت المسئول أيضا عن الثلاثة آلاف هكتار من الأرض التى تضم المجموعة السكنية للكوميون . . أليس كذلك . . ؟

— أجل . . أجل . . أجل . . !

— هل تريد أن تروى أمامنا قصة هذا الكوميون .

قال « يوانج ين جون » وقد أغمض عينيه وكأنه يحلم :

— أنشأنا هذا الكوميون منذ ست سنوات . . وحفرنا من أجله عشرين بئرا . . وثلاث قنوات رئيسية وثمانى قنوات فرعية لتصريف المياه ، وعملنا على تسوية سطح الأرض ، وبنينا الترع الصغيرة لحمايتنا من الفيضانات المفاجئة . .

— وما المشكلات التى يواجهها هذا الكوميون . . ؟

— ليست لدينا مشكلات . . فزيادة السكان السنوية التى تبلغ نحو ثلاثة فى المائة نواجهها بزيادة الإنتاج . .

— وما مدى مساعدة الحكومة لكم . . ؟

— الحكومة تساعدنا بالقروض المالية . . وهى قروض بلافوائد تعطى للكوميون ، لا للأفراد . . وتبلغ نحو مليون «يوان» فى العام الواحد . .

— وهل تقومون بالتزاماتكم فى تسديد هذه القروض بمواعيدها . . ؟

— هناك مرة واحدة لم نستطع أن نسدد فيها القروض ، وكان ذلك فى عام ١٩٦٠ .

— وكيف يتسنى للسلطة أن تراقب أعمالكم . . ؟

— الكوميون هو القاعدة الأساسية لحكومة الصين . .

— أنا أسألك عن مراقبة السلطة . . ؟

— إن طبيعة الكوميون تخضع لعوامل زراعية . .

— ليس هذا جوابا على سؤالى . .

— الحكومة ترسل إلينا مندوبين للتفتيش على أعمالنا ، وهذه اللجنة تكتب تقارير ترفعها إلى وزير الزراعة . .

— وهل تعتقد أن هذا الكوميون قد حقق أسباب نجاحه وبرر وجوده . . ؟

قال ونظراته تدور حوله أمام المراقبين والمرافقين :

— أجل . .

ثم وقف ودعانى لمرافقته إلى زيارة بعض منازل الكوميون ، وتفقد أهله . . ومشيت معه ، وحولنا « عيون » المرافقين ، إلى سلسلة من المنازل المبنية من الطين . . وبعضها من أغصان الشجر . . وبعضها من الحجر . . ودخلنا إلى أول المنازل فى طريقنا فإذا نحن أمام غرفتين ، واحدة منها للطبخ والأكل والاستقبال والحمام . . والثانية للنوم . . وهذا كل شىء . . والأطفال يلعبون أمام الغرفة . . وأمامهم أيضا حائط مهدم من الطين وبجانبه خنزير . . والخنزير بصحة جيدة . .

وقال لى مدير الكوميون وكأنه يفتش عن موضوع يتحدث فيه :

— عندنا أربعة وستون تراكتور . . وخمس وثلاثون سيارة شحن . . وكل عائلة تملك خنزيراً واحدا . . و . .

وانتهت الزيارة . .

هل أقول رأيى فى الكوميون . . ؟

لا . . بل سأؤجل ذلك إلى أن نقوم بزيارة أخرى لكوميون آخر فى منطقة أخرى من هذا البلد الشاسع الواسع . .

فقد قيل لى إننى سأزور كوميون « السير الطويل » بجانب مدينة شنغهاى عند زيارتنا لها . .

وهكذا كان . .

لقد حملتنا السيارة إلى غربى شنغهاى ، على مسافة خمسة أميال منها ، لزيارة هذا الكوميون الذى يحمل اسماً من أعز وأغلى الأسماء على قلب الصينيين . . وأعنى به اسم : « السير الطويل » !

وكان المرافق بجانبى يحدثنى ونحن فى الطريق إلى الكوميون ، عن الزراعة فى منطقة شنغهاى . .

قال لى إن أربعة ملايين من مجموع ستة ملايين ونصف مليون هم سكان مدينة شنغهاى . . يعملون فى الزراعة . . وأن الكوميونات الزراعية حول شنغهاى تنتج من الخضر والفاكهة ما يكفيها ويسد حاجة سكان مدينة شنغهاى ذاتها ولكن باستثناء القمح الذى يستوردونه من خارج المنطقة . .

وبعد دقائق وصلنا إلى منطقة الكوميون . .

وجاء المدير يستقبلنا وقد ارتدى بزته الزرقاء الداكنة ولف رأسه بغطاء ثقيل يقيه برد شنغهاى القارس . .

وقال لى قبل أن أسأله :

— هذا الكوميون يضم نحو اثنين وعشرين ألف شخص . . بالإضافة إلى مائتى عائلة . . منهم عشرة آلاف يعملون فى الصناعة الثقيلة ، والباقون فى زراعة ألف ومائة هكتار من الأرض . . والعمل مقسم على النحو التالى :

هناك مثلا ١٤ لواء Brigade وكل لواء يضم ٨ فرق إنتاجية Productive groupe ، وكل فرقة إنتاجية تضم ثلاثمائة شخص . !

قلت وأنا أطلب منه السماح لى بتفقد العمل وزيارة أقسام الكوميون :

— لعلنا نقدر أن نأخذ صورة واضحة عن سير العمل هنا . . أليس كذلك ؟

قال :

— بكل تأكيد . .

ثم مشى معى فى اتجاه الحقول الزراعية التابعة للكوميون ، ووقف بى أمام مجموعة من النساء اللواتى يعملن فى الحقول وقال :

— نحن نزرع كما ترى كل أنواع الخضروات ، والفاكهة .. ونربى الخنازير والدجاج والطيور .. إن عندنا أكثر من مائة وتسعين نوعا من الخضراوات المختلفة . . ونستطيع . . بفضل الأسلوب الزراعى الحديث . . أن نزرع الأرض خمس مرات بدلا من ثلاث . .

ورنت فى أذنى عبارة « الأسلوب الزراعى الحديث » فقلت له متسائلا :

— أى أسلوب زراعى . . حديث . . تعنى . . ؟

قال :

— هذه أسرار خاصة بنا . . ولكنى سأقولها لك . . إسمع . . إننا نزرع كما ترى . . مربعات صغيرة تضم أنواعاً مختلفة من الخضر . . ولكنك ترى . . مثلا . . أننا نزرع نوعا من الخضر الكبيرة بجانب نوع آخر من الخضر الصغيرة ، وذلك للحرص على تربة الأرض وعلى نمو الخضر . . وكذلك نزرع فى الصف المقابل نوعا من الخضر الذى ينمو إلى أعلى بجانب نوع من الخضر الذى ينمو فى داخل الأرض . . مثلا . . نزرع القرنبيط أو الطماطم بجانب الفجل أو البصل . ! وكذلك لا نزرع إلا فى الوقت المطلوب . . ونحرص على أن نجعل المزروعات معرضة لأشعة الشمس وذلك بأن نجعل سطح الأرض مائلا فى اتجاه الشمس .. وكل هذا بالإضافة إلى التجارب الخاصة

التى يجريها كل فلاح فى منزله أو بستانه ويبحث فيها عن كل أسلوب فنى جديد من شأنه أن يخدم العمل الزراعى العام . .

قلت للمدير المرافق :

— وهل يجرى اعتمادكم فى الدرجة الأولى على الآلة ، أم على اليد العاملة .. ؟

قال :

— بل على اليد العاملة . . إذ ليس عندنا أكثر من سبعة تراكتورات . ! إن ٦٥ فى المائة من الأرض لا تعتمد إلا على اليد العاملة . . وحدها . .

قلت :

— ومن أين تحصلون على المـاء . ؟

قال :

— نضخ المـاء من النهر . . ثم ندفع ماء النهر إلى القنوات بواسطة آلة كهربائية صغيرة . .

قلت :

— هل هناك سياسـة زراعية معينة بالنسبة لاختيار نوع الخضر أو الفاكهة المطلوب زراعتها . . ؟

قال :

— بل هناك خطة تضعها الحكومة عندما تعلن أن المدينة — يعنى شنغهاى — فى حاجة إلى نوع كذا ونوع كذا من الخضراوات وأن على الكوميون أن ينتج نوع كذا ونوع كذا لسد حاجات المدينة من الفاكهة .. وكذلك فنحن نزرع على أساس العادات التقليدية القديمة التى كنا نتبعها فى المـاضى حيث نستفيد من خبرة الذين سبقونا فى اختيار النوع المناسب للوقت المناسب . . وكذلك نتشاور مع بعضنا ، ونسأل مختلف الفلاحين عن رأيهم فى مختلف الموضوعات الزراعية . . .

قلت للمدير :

— وما هو اسم الجانب الحكومى الذى يعمل على توجيهكم . . ؟

قال :

— اسمه « مكتب التخطيط الزراعى » ومركزه شنغهاى . !

قلت للمدير وأنا أرى أمامى أهرامات صغيرة من الحشائش تخفى فى جوفها سراً :

— ما هذا . . ؟

— هذا سماد طبيعى . . نضعه هنا . . وذلك بجمع « أوساخ » المدينة إلى ورق الشجر إلى طين النهر ثم ندفنها ونغطيها بطبقة كثيفة من أوراق الشجر لمدة عام كامل . .

— وأى نوع من أوساخ المدينة تستعملون . . ؟

— بقايا المطبخ . . أو الطعام . !

— يقال إنكم تستعملون أيضاً « مخلفات » الإنسان وبرازه وغائطه فى هذه العملية . . فهل هذا صحيح ؟ ؟

— نستعمل البراز أو الغائط البشرى عندما يبدأ الثمر فى النمو ، لا عند غرس البذرة . . ؟

قلت وأنا أهرب من الموضوع :

— ومن يحكم هذا الكوميون . . ؟

— الكونجرس الخاص بنا .

— ومن ينتخب الكونجرس . . ؟

— نحن . . إن كل خمسين شخصا ينتخبون واحدا منهم ، وهكذا أصبح لنا كونجرس يضم مائتى شخص . . ثم يقوم الكونجرس بانتخاب « لجنة

الكوميون الإدارية » . . وعددها خمسة عشر عضوا ، كما ينتخب مدير الكوميون ، ونائبه . .

وفجأة انطلقت فى مسامعنا أصوات أناشيد وموسيقى قوية ، هادرة ، كالرعد . . فقلت للمدير :

— هل هذه الموسيقى للترحيب بالضيوف . . ؟

قال :

— لا . . بل هى لتشجيع العاملات والعمال ، وتسليتهم ، وتقوية إيمانهم بالكوميون . .

موسيقى . . غناء . . أناشيد . . لا تسكت ولا تنقطع . .

وسألت المدير أن يترجم لى كلمات إحدى تلك الأغانى ، فإذا بها تقول :

« ومن قال أن ليس للسماء طريق نسلكه . . ؟

« إننا قادرون أن نبنى سلما نصعد به للسماء . . !

« من قال أن ليس للارض باب ندخله . . ؟

« اتركوها لنا ، نضع للأرض بابا . . ومفتاحا . . !

« من قال أن ليس للبحر سيد يحكمه . . ؟

« اسألوا الموج . . نحن أسياده . . » !

قلت لمدير الكوميون وصوتى يكاد يضيع فى غمرة الموسيقى الصارخه :

— شكرا . . . فهل تسمح لنا بالانصراف . . ؟

ومعى المرافقون . .

ومعى صوت الخنازير . . وصورتهم . . وحركاتهم . . ؟ !

ومعى غناء «الصاعدين» للسماء ، والداخلين » باب الأرض «والمتحكمين» بأمواج البحر ، عدت . . . إلى نفسى ، إلى الحياة . . إلى عزلة قصيرة أبحث فيها عن سر . . الكوميون !

أين هو ، وما هو . . ذلك السر . . ؟

قد أستطيع أن أكتفى مما رأيت ، بالمظاهر ، وأقف عند حد وصف « الكوميون » والتحدث عن أهله وسكانه . .

ولكن « الكوميون » — كما رأيته وعرفته فى الصين — فكرة ومبدأ ، أكثر منه مزرعة أو مجموعة سكان . .

فقد كانت فكرة « الكوميون » إحدى النقاط التى نشأ وترعرع عليها الخلاف الصينى — السوفياتى . . وسأحاول عند التحدث عن هذا الخلاف فى فصول قادمة أن أشير بالتفصيل إلى دور « الكوميون » فى ذلك الصراع العنيف .

كما كان الكوميون هدفا لحملات معظم دول العالم على حكام الصين ، ووصفهم بالطغيان والعنف والجبروت بحجة أنهم مزقوا معنى « العائلة » الصينية ، وسرقوا الطفل من أمه والأخ من أخته والزوجة من زوجها . .

وأبادر وأقول تفسيراً لهذه النقطة بالذات ، إننى لم أشعر خلال زياراتى للكوميون الصينى إن معنى العائلة فيه قد غاب واختفى . لقد رأيت بعينى الأمهات مع أطفالهن فى أكثر من كوميون واحد . وليس هنا مجال البحث فى حالة هؤلاء الأطفال ، أو صحة هؤلاء الأمهات . وكذلك ليس هنا مجال البحث فى الحالة التى « كان » عليها أمثال هؤلاء الأطفال وتلك الأمهات قبل انتصار الثورة الشيوعية فى الصين . كل هذا من شأن التاريخ الذى سيقارن بين فقر وفقر أقل منه ، وحالة الفلاح الصينى قبل الثورة ، وحالته بعد الثورة ، وصحة المرأة الصينية الريفية على عهد شيانج كاى شيك وصحتها على عهد ماوتسى تونج . ! ولا أريد أن يفهم أحد أننى رأيت فى الكوميون الصينى المثل الأعلى للفكرة والمبدأ والحقيقة . . أو أن الكوميون هو الحل الوحيد للفقر والجوع والبطالة . ولكن أى نقد يوجه للكوميون يجب أن يكون على أساس دراسة أحوال ما قبل الكوميون ، والمقارنة معها ، وبها ، ثم الخروج بالرأى المنصف العادل . .

ودراسة الكوميون، هى دراسة الريف الصينى بملايينه، بمساحاته، بأنهره ببحيراته، بجباله، بسهوله . . فكل ما هو خارج المدن الصينية، يعد كوميون .! الثروة الزراعية الصينيه، كلها، تنبع من الكوميون، مشكلات الزرع، والأرض، والفيضانات، هى جزء من مشكلات الكوميون! لقد اختفت القرية الصينية بمعناها الانفرادى المستقل، وحل محلها الكوميون الواسع الكبير . .

ذلك هو معنى الكوميون من الناحية الزراعية .. ولكنه — أيضا — ليس كل المعنى الشامل الذى يضمه أو يمثله هذا الكوميون . .

فالكوميون يقوم من خلال إدارته الخاصة بجميع المهام الإدارية والتنفيذية والمالية التى كانت فى الماضى تقوم بها الدولة بمختلف أجهزتها! إن إدارة كل كوميون هى التى تشرف اليوم على البوليس، والمدرسة، والمستشفى، والصناعة، والتجارة، والمكتبة، والرياضة . . الخاصة بذلك الكوميون . هى بعبارة أخرى — الدولة «الصغرى» بكل صلاحياتها وأعمالها . وقد تختلف طبيعة هذه الصلاحيات والأعمال باختلاف الكوميون ولكنها جزء لا يتجزأ من الكوميون نفسه . ! لقد نصت المادة ٢٤ من قوانين الكوميون على «تأمين حياة ديمقراطية ثورية مستمرة لشعب الكوميون ولجميع منتجاته وأعماله ومرافق حياته» . . وهكذا فقد أصبح من حق كل فلاح صينى بلغ السادسة عشرة من عمره أن ينتخب حكامه ورؤساءه فى إدارة الكوميون؛ باستثناء — الرجعيين وأصحاب الأراضى السابقين وأصحاب الثروات والمنحرفين — إن لهؤلاء الحق فى الانتساب للكوميون ولكن بلا أى حق فى ممارسة الانتخاب أو الترشيح!

وبعد . ،

إن سر الكوميون الكبير أنه استطاع أن يجد فى بلد كالصين، يضم سبعمائة مليون نسمة، حلا للمشكلة المستعصية التى طالما واجهت بلادا أقل

عددا فى سكانها من الصين ، ولم تجد عندها لها حلا ، وأعنى بها مشكلة البطالة . ! لقد قضى الكوميون على وجود البطالة فى الريف الصينى عندما رفع عدد أيام العمل عند الفلاح من مائة وخمسين يوما فى العام إلى ثلاثمائة يوم . . فى العام ! فمن خلال الصناعات التى قامت فى الكوميون الصينى ومن خلال المعنى التعاونى فى العمل الزراعى ، ومن خلال الانهماك فى تلبية مطالب الفلاحين بالنسبة للملابس والمساكن والحاجات اليومية ، وغيرها ، لم يعد الفلاح الصينى عاطلا أو نصف عاطل . . ولم يعد الفلاح الصينى ينظر إلى المدن ككعبة يحلم أن يهاجر يوما إليها . . ولم يعد الفلاح يعمل فى موسم الحصاد أو الزرع وحدها ويلزم بيته فى الأيام الأخرى . .

ذلك هو الانتصار الكبير — إن لم يكن المبرر الكبير — لوجود الكوميون الصينى . .

يضاف إليه سر آخر « صغير » ، لا أستطيع أن أتجاوزه . فقد ضمن الكوميون — لقمة العيش — للفلاح . . وهذا فى حد ذاته . . شىء ! . . وأى شىء ! .

وأصل إلى سؤال واحد :

— ترى ، — وأقولها مرة أخرى — هل معنى هذا أن نظام الكوميون هو الحل الوحيد للمشاكل المتعددة التى واجهها الكوميون واستطاع أن يتغلب عليها . . أعنى : هل الكوميون هو الحل الوحيد للبطالة ، والجوع ، والهجرة . . حيثما وجدت البطالة والجوع والهجرة . ؟ !

وجوابى : لا . . !

ثم أسأل :

— هل نجاح الكوميون — فى معظم أنحاء الصين — معناه نجاح الكوميون « فى كل » أنحاء الصين . . ؟

وجوابى مرة أخرى : لا !

ثم أسأل :

— هل نجاح الكوميون — فى الحالات التى حقق فيها أقصى النجاح — معناه أن ليس هناك عيوب . . وسرقات . . وحوادث . . وأمراض . . ؟

وجوابى أيضا : لا . . .

لقد سمعت فى بكين من أكثر من سفير شرقى وعربى وأوروبى ومن أكثر من صحفى مقيم ، عن الحملة التى يسمونها هناك « سى شينج » ومعناها الحملة ضد فساد الكوميون . . وسمعت قصصا كثيرة عن الكثير من فضائح الكوميونات حيث بلغت السرقات والفضائح حدا كبيرا سواء فى مناطق « شانتوج » جنوب شرقى الصين ، أم فى شمالها . .

لقد سمعت عن قلاقل واضطرابات فى منطقة « سيكيانج » بسبب فضائح المسئولين عن الكوميونات هناك . .

ومثل ذلك ، سمعته عن منطقة « التبت » . .

ولكن . .

هل معنى هذا أن النظام — كنظام — قد فشل . . ؟

المسئول الصينى يقول :

— لا . .

وأنا لا أستطيع أن أؤيد إجابة المسئول الصينى إلا إذا تسنى لى أن أزور الثلاثين ألف كوميون . . وأن أتنقل فى أنحاء الصين بحرية تامة . . وأن أجيد اللغة الصينية لكى لا أسمع الحقيقة بلسان سواى . !

. . . وهذه شروط ، ستبقى ، ما بقيت ثورة الصين ، مستحيلة ! . . مستحيلة جداً !

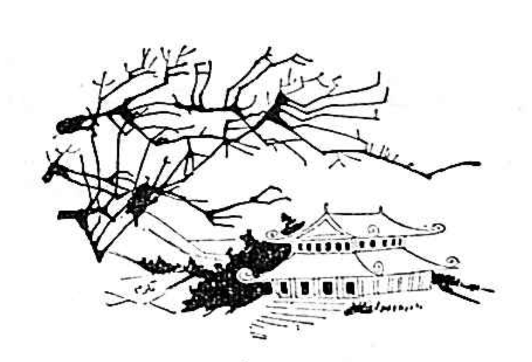
ولكن . . وأقولها بصراحة تامة :

إذا كانت « الوحدة الاجتماعية » التى يهدف إليها الكوميون قد

حققت أغراضها من الوجهة الزراعية .. أو من الوجهة الاقتصادية — لا أدرى — أو حتى من الجهة الثورية المبدأية التى يدعو إليها النظام الشيوعى ، فإن هذه الوحدة الاجتماعية — كما أحسست ورأيت قد استطاعت أن تنسف فكرة « الذات العائلية » من أساسها ، وأن تقضى على « الاستغلال » الفردى البشرى بكل ما ينطوى عليه من نشاط وروح . . وشخصية !

وأنا — بعد هذا كله — من المؤمنين بأنه « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » . . !

. . . ولا بالكوميون !



الفصل السابع

ماذا عندنا ..؟

« .. ماهى أعظم مشكلة فى العالم ؟ أعظم مشكلة فى العالم الحصول على الطعام ! ماهى أعظم قوة فى العالم ؟ أعظم قوة فى العالم هى اتحاد القوات الشعبية ! ماذا علينا ألا نخاف منها ؟ علينا ألا نخاف السماء ! ألا نخاف الأشباح ! ألا نخاف الموتى ! ألا نخاف المستبدين ! ألا نخاف دعاة الحرب ! ألا نخاف الرأسماليين .. »

« ماوتسى تونج ١٩١٩ »
مجلة « سيانج شيانج »

إن الصين — بتاريخها المسجل المعروف لمدة خمسة آلاف سنة هى أعرق البلاد حضارة فى العالم .. والشعب الصينى يملك تقاليد الثورة الناصعة وتراث التاريخ العظيم ..

« ماوتسى تونج ١٩٣٩ »



قالوا لى بعد أسبوع من وصولى إلى بكين :

— سنأتى إليك بمجموعة من « الخبراء » Experts ، يردون على أسئلتك ويتولون الحديث معك عن جميع ما عندنا فى الصين من صناعة ، وزراعة ، وسياسة ، وأدب ، وحياة . !

وجاءوا لى ومعهم أول هؤلاء « الخبراء » واسمه : « يونج لونج كوى » أستاذ الاقتصاد فى جامعة شنغهاى ، ورئيس مجلس هيئة إنعاش التجارة الخارجية الصينية . .

ورأيت أمامى — على خلاف الصورة الصينية المعروفة — شخصاً ضخماً ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، يثق بنفسه إلى حد الغرور ، ولا يقبل نقاشاً أو اعتراضاً . .

وقال لى قبل أن أسأله :

— أنا كنت فى القاهرة . . وفى تنجانيقا . . وعملت لخدمة أكثر من بلد أفريقى مستقل . .

قلت :

— لقد قيل لى أنك ستحدثنى عن اقتصاديات هذا البلد ؟

قال :

— لا . ! بل قيل لى إننى سأرد على جميع ما لديك من أسئلة عن اقتصاديات بلدى . .

قلت :

— إننى سأجد الأسئلة على ضوء ما سأسمعه منك . .

قال :

— بل سأحدثك على ضوء ما ستسألنى عنه . .

وهكذا وجدت نفسى مشغولا مع أقدر خبير اقتصادى فى الصين ، فى لعبة « حاورينى يا طيطة » . .

قلت وأنا أنظر إليه غارقاً فى كرسيه وقد وضع ساقا على ساق :

— ماذا استطاعت الخطة الخمسية الأولى أن تقدم للبلاد . . ؟

قال وقد اعتدل فى جلسته وكأنه يستعد :

— هل تنوى أن تبدأ الحديث من عام ١٩٥٣ . . ؟

قلت :

— إن كان هذا لا يزعجك . .

قال :

— حسناً . . أقول لك أن الخطة الخمسية الأولى التى بدأت فى عام ١٩٥٣ وانتهت فى آخر عام ١٩٥٧ قد استطاعت أن تحقق هدفين اثنين : الأول إقامة نظام اجتماعى اشتراكى ، والثانى ، بناء القواعد الأساسية للتصنيع . .

واستطرد يقول :

— وهكذا انتصرنا فى نهاية الخطة على أن نضع حداً لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان عن طريق تحويل وسائل الإنتاج وملكيتها من أيد فردية إلى أيد عامة لم نشأ خلالها أن نلغى الملكية الخاصة كلها بقدر ما كان قصدنا أن لا ندع وسائل الإنتاج تخضع للملكية الفردية وأن تصبح وسائل يملكها الشعب . .

ثم أشعل غليونه — وهو أول صينى أراه يدخن الغليون — وقال :

— وقد أكملنا الإصلاح الزراعى — كما تعلم — فى عام ١٩٥٢ حيث كان أمامنا مائة وعشرون مليون عائلة زراعية تملك كل عائلة منها هكتاراً واحداً من الأرض . . فكان علينا أن ننظم تلك العائلات بوسائل اختيارية لامكان للقوة أو الضغط فيها فخلقنا نظاماً اختيارياً فتحنا فيه الباب أمام الفلاحين والمزارعين للانضمام إلى منظمات إنتاجية جماعية على أساس تبادل الخبرة مع مشاركة المنفعة حتى عمت البلاد أكثر من سبعمائة وخمسين ألف مؤسسة زراعية تعاونية !

قلت مقاطعاً :

— أرجو أن أقول لك بأنى أعرف — وبالتفصيل — قصة الإصلاح الزراعى منذ قيام الثورة حتى قيام . . الكوميون . .

ولم يسعد صديقنا « يونح لونح كوى » بملاحظتى حيث راح ينفخ فى غليونه بعصبية قبل أن يقول :

— وكان هناك منشآت تجارية وصناعية يملكها الأفراد ، فعملنا على تقسيم أصحاب تلك الأموال إلى فئتين : الأولى هم أصحاب رؤوس الأموال من طبقة المستبدين الطغاة أمثال شانح كاى شك « وعصابته » وهؤلاء قد صادرنا أموالهم بجرة قلم . . أما الفئة الثانية فهم أصحاب رؤوس الأموال « الوطنيين » الذين كانوا يملكون بنوك أو مكاتب تجارية أو مؤسسات فلم نعمل على مصادرة أموالهم بل على تحويل تلك الأموال — والمرافق — بخطوات ومراحل — من مشاريع خاصة إلى مشاريع يشترك فى إدارتها الدولة وتسمى : « المشاريع المشتركة بين الأفراد والدولة » ، وبالإنجليزية :

« State and Private Joint Enterprises »

« . . . وهكذا خلقنا حوالى سبعين ألف مؤسسة مالية وتجارية وإنشائية من هذا النوع . . المشترك ! وأصبحت هذه المؤسسات تدار على النظام الحكومى

وتخضع لقوانين الدولة إلى أن بدأنا باتخاذ الخطوات التالية وتنفيذها منذ عام ١٩٥٦ حتى اليوم :

أولا : قررنا إعطاء كل رأسمالى فائدة تساوى خمسة فى المائة من قيمة أمواله الموظفة فى هذه المؤسسات ، على أن يستمر العمل بذلك حتى نهاية عام١٩٦٥ ثم تعيد الدولة نظرها فى الموضوع .. وأنا أعتقد أن الدولة ستمتنع بعد ذلك التاريخ عن دفع الفائدة النسبية لأصحابها .

ثانياً : أعطينا وظائف لأصحاب رءوس الأموال تتفق مع كفاءتهم وطبيعة نشاطهم ، وخصصنا لهم رواتب عادلة .

ثالثاً : حفظنا لأصحاب رؤوس الأموال حقهم فى انتخاب أعضاء مجلس الكونجرس ، وفى ترشيح أنفسهم لذلك المنصب . .

قلت مقاطعاً :

— هل تعنى أنكم — بعد نهاية عام ١٩٦٥، ستعمدون إلى « مصادرة» ما تبقى من الأموال الخاصة . . ؟

قال فى حدة :

— لا نسميها « مصادرة » . . أنا أكره هذه الكلمة . . أنا أسميها تطورا أى : Transformation .

قلت :

— ولكن النتيجة فى الحالتين واحدة . .

قال :

— أنا أصر على تسميتها بالتطور . .

ثم توقف قليلا قبل أن يقول :

— هذا ما حققناه بالنسبة للنتيجة الأولى من نتائج تنفيذ مشروع

السنوات الخمس الأولى . . أما النتيجة الثانية وأعنى بها تأسيس المبادىء الأولية « للتصنيع » فإن تحقيق ذلك قد أدى إلى النتائج التالية :

أولا : خلال تلك السنوات الخمس زاد الإنتاج الصناعى بنسبة ١٨ فى المائة..!

ثانيا : زاد الإنتاج الزراعى فى المدة ذاتها بنسبة خمسمائة وأربعة فى المائة.

ثالثا : بلغ مجموع الأموال التى وظفت فى مشاريع تلك الفترة أكثر من خمسة وخمسين ألف مليون يوان . .

رابعاً : بلغ عدد المشاريع التى نفذت خلال تلك المدة حوالى عشرة آلاف مشروع . . منها خمسمائة مشروع اعتمدت فى تنفيذها على آلات صناعية صممت وأنتجت فى الصين . . وبأيد صينية . . !

خامسا : خلال تلك المدة ، تمت عملية تنفيذ مائة وستة وخمسين مشروعا بمساعدة الاتحاد السوفييتى الذى زودنا بالآلات والخبرة فقط ، مقابل أموال دفعناها ثمناً لها ، كآلات توليد الكهرباء ، والكيمائيات ، ومصانع تكرير البترول ، وآلات المناجم ،وصناعة السيارات والطائرات والحديد والصلب الخ.

سادسا : فى عام ١٩٥٢ كانت كمية الإنتاج من الصلب مليون وثلاثمائة وخمسين ألف طن . . وفى عام ١٩٥٧ بلغ الإنتاج خمسة ملايين وثلاثمائة وخمسين ألف طن . .

سابعاً : أصبحنا بعد تلك الفترة قادرين على إنتاج الكثير من الصناعات الحديثة كصناعة اللوريات من وزن خمسة طن ، والبواخر من وزن ثلاثة آلاف طن ، وأفران لصناعة الحديد والصلب تتسع لألف متر مكعب ومائتين وخمسين طن من الصلب . . بالإضافة إلى صناعات أخرى متعددة !

وتوقف الخبير « يونج لونج كوى » عن الكلام ، وراح يتبادل النظرات مع المراقبين والمرافقين الذين كانوا حوله . . بعضهم كان يسجل إجابته ، وبعضهم يترجمها ، وبعضهم يعلق عليها باللغة الصينية . . ثم بهمته يقول لى :

— والآن سأحدثك عن مشروع السنوات الخمس . . الثانى .

لقد بدأنا فى تنفيذ هذا المشروع عام ١٩٥٨ وأكملناه فى عام ١٩٦٢ .. واستطعنا ـ بوجه عام ـ أن نحقق نجاحا ملحوظا فى الفترة بين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٠ قبل أن نواجه ـ فى منتصف الطريق ـ مفاجآت غير منتظرة كنا خلالها ضحايا تقلب الطبيعة القاسية التى غمرت جنوبى البلاد بالفيضانات ، وحبست مياه المطر عن الشمال مما ألحق بالمواسم أكبر الأضرار . . يضاف إلى ذلك انسحاب الخبراء السوفييت من البلاد مما أدى إلى نقص ملحوظ فى كميات الإنتاج. وهنا قررنا أن نواجه ذلك الموقف الحرج بسياسة جديدة بدأنا تنفيذها فى عام ١٩٦١ وتنحصر خطوطها الرئيسية فى المعانى التالية :

أولا : سياسة اسمها : « إعادة النظر » أو « الإصلاح » . وبالإنجليزية Readjustment

ثانياً : سياسة اسمها : « توحيد أو تمكين أو تقوية النتائج التى وصلنا إليها » . وبالإنجليزية Consolidation .

ثالثاً : سياسة اسمها : سد الثغرات ، بحيث نلغى الفوارق بين مستوى الإنتاج . وبالإنجليزية Filling Out .

رابعا : سياسة اسمها : رفع مستوى الإنتاج عامة . وبالإنجليزية : Raising Standard

وبممارسة تلك السياسة ـ بجوانبها الأربعة ـ استطعنا أن نحقق ثلاث نتائج فى أربع سنوات : وتلك النتائج هى :

أولا : ضاعفنا من قوة الجبهة الزراعية ، والإنتاج الزراعى . . .

ثانياً : أعدنا دراسة مشاريعنا ، وقررنا تأجيل المشاريع الثانوية . . وألغينا بعض المشاريع الأخرى . . وحصرنا القوى العاملة فى المشاريع المهمة وحدها . .

ثالثا : ضاعفنا إنتاجنا الصناعى ورفعنا مستواه الفنى . .

وسألنى يونج كوى :

ــ ولعلك تسألنى لماذا فعلنا كل ذلك . . ؟ أقول لك لأننا كنا أمام الأمر الواقع الذى كان يفرض علينا الاعتماد أولا وأخيرا على أنفسنا . . فقط ! وعندما اعتمدنا على أنفسنا ، استطعنا أن نحول مجرى اقتصادنا القومى إلى ناحية القوة والصلابة وأن نحطم كل الصعوبات التى كانت تعترضنا » .

ثم راح يداعب غليونه بين أصابعه قبل أن يقول لى :

ــ لعلك قد لاحظت خلال إقامتك معنا أننا لم ننشر على الملأ تفاصيل مشروع السنوات الخمس الثانية . . إن لهذا تفسيرا عندى سأحدثك عنه . . ولكنى سأحاول قبل ذلك أن أتحدث أمامك عن خطوط ذلك المشروع بوجه عام . . أريد أن أقول لك قبل كل شىء إننا لم نستدين خلال هذه المدة كلها أموالا من أحد . . بل لعل العكس هو الصحيح ، إذ حرصنا على أن ندفع ديوننا السابقة إلى الإتحاد السوفييتى بحيث لم يبق علينا من الألفى مليون دولار أمريكى له ، سوى عشرين مليون دولار فقط . !

« والآن ــ وأكمل « يونج » كلامه ــ : والآن أقول لك أننا قد أعدنا النظر مرة أخرى فى الخطة الشاملة لعام ١٩٦١ ــ ١٩٦٢ بحيث أجرينا فيها تغييراً أساسياً أبعدها عما كان مرسوما لها من قبل وذلك بسبب الصعوبات التى واجهناها فى الاستيراد ، مع انسحاب الخبراء السوفييت ، واستطعنا فى النتيجة أن نرفع مستوى إنتاجنا وأن نغزو الأسواق بصناعات جديدة لم نكن قادرين على إنتاجها من قبل . . »

قلت مقاطعاً : هل عندك أمثلة لتلك الأنواع من الصناعات . . ؟

قال :

ــ أجل . لقد صنعنا الآلات الجيولوجية الدقيقة ، وآلات التصميم ..

بالإضافة إلى أننا أصبحنا ننتج خمسة وتسعين فى المائة من مجموع كمية الصلب التى نستهلكها فلا نستورد سوى خمسة فى المائة منه . . وكذلك فى وسعنا أن نصنع تسعين فى المائة من الآلات التى نحتاج إليها فى ميدان عملنا الصناعى ونحن — فى جميع ماننتجه وما نصنعه — لا نعتمد إلا على الفن والخبرة والتصميم . . الصينى . . فقط !

وعدت أسأله أن يعدد لى أمثلة من أنواع الإنتاج الذى يتحدث عنه .

فقال وهو يعد على أصابعه :

— نحن الآن نصنع الأفران الخاصة بتذويب الحديد ومساحة كل فرن ألف وخمسمائة متر مكعب .. ويتسع لخمسمائة طن من الصلب .. وقوة الأسطوانة فى المكبس المائى « هيدروليك » أكثر من ١٢ ألف حصان .. وآلة توليد الكهرباء بقوة مائة ألف كيلوات ساعة . . وتراكتورات بقوة تتراوح بين سبعة إلى سبعين حصان . . وسيارات شحن حمولة ثمانية أطنان . . ومراكب بحارية حمولة عشرة آلاف طن . . وقاطرات كهربائية . . ومحركات كهربائية متنقلة بقوة أربعة آلاف كيلوات . . والميكروسكوب الكهربائى بقوة مائتى ألف مرة . . وأن ننتج مليون ومائتى ألف طن من الفحم فى العام . . وأن نضع الآلات الخاصة بإنتاج الأمونياك « النشادر » الصناعى . . وأن نصنع الآلات الخاصة بتكرير البترول . . !

قلت وأنا أعود به إلى موضوع « الخطة السنوية » :

— وهل فى نيتكم العودة إلى إعداد خطة ثالثة لخمس سنوات أخرى قادمة . . ؟

— لا . . نحن الآن نعد خطة سنوية فقط . . أعنى لعام واحد . . لا أكثر !

— هل أستطيع أن أسألك عن بعض التفاصيل المتعلقة بآخر خطة سنوية . . ؟

— تفضل . .

— هل هناك عجز مالى فى ميزانيتكم . . الآن . . ؟

— منذ عام ١٩٥٢ حتى اليوم ، أؤكد لك أننا لم نواجه أى عجز مالى فى ميزانيتنا . .

قلت بصراحة :

— وكيف تريدنى أن أصدقك مادامت أرقام الميزانية محفوظة تحت ستار كثيف من السرية . .

— نحن لم ننشر أرقام ميزانيتنا منذ عام ١٩٦٠ . . وأنت حر فى أن تصدقنى أم لا . !

— وأنا أسألك عن سبب لف هذه الميزانية بستار السرية . .

— هذا أمر يعود إلينا . . وحدنا ؟

— أنا أسألك عن السبب ، لا عن الحق فى التسلح بذلك السبب . . ؟

— الموقف الدولى يفسر كل شىء . .

— يقولون هنا إن الدولة مدينة للشعب بثمن سندات مالية دفع الشعب ثمنها كقروض للدولة . . فما رأيك ؟

— هذا صحيح ، ولكن إصدار السندات قد توقف تماماً فى عام ١٩٥٨ وبعد عامين ، أى فى عام ١٩٦٧ نكون قد سددنا للشعب كل الديون المترتبة علينا ثمنا لتلك السندات . . والتى سددنا منها حتى اليوم أكثر من ثمانين فى المائة . !

— هل تعتقد أن الاصطدامات المسلحة المتكررة على حدودكم مع الهند قد أثرت على ميزانيتكم . . ؟

قال ضاحكا :

— قطعاً لا . ! إن قيام الحرب الشاملة كلها ، لاضد الهند ، لن تؤثر على ميزانيتنا . .

قلت :

— هل تقومون الآن بصنع الطائرات الحربية . . ؟

— أجل . .

— والطائرات النفاثة . . ؟

— أجل . .

— وهل أنت متفائل لمستقبل علاقتكم « التجارية » مع الخارج .. ؟

— لنا اليوم علاقات تجارية مع أكثر من مائة وخمسة وعشرين دولة ومنطقة ، ومبدأنا فى التعامل التجارى هو « المساواة والمنفعة المتبادلة » ! إن بعض « الأعداء » يقولون أننا نمارس سياسة « الباب المقفول » .. وهذا كله كذب . . إذ أننا نعمل على تطوير سياستنا الاقتصادية والتجارية ونعطى الأهمية فى الاستيراد للمواد الخام والآلات الصناعية ، ونعطى الأولوية فى الصادرات للبضائع والمعادن والإنتاج الحيوانى . !

وأطفأ « يونج كواى » غليونه وأعاده إلى الجيب الصغير على صدر بذلته الصينية السوداء وكأنه يعلن أمامى نهاية الحديث ، فقلت له مودعاً .

— كنت أنتظر أن تذكر أمامى شيئاً عن دور «الخنازير» الصينية فى الاقتصاد الصينى . .

قال وهو يمشى معى إلى الباب الخارجى :

— كانت « موسكو » تقول إن الكوميون الصينى قد فشل ، وكنا نجيب على ذلك بحقيقة واحدة لايستطيع أحد أن ينكرها : إننا نحن —الصينيون— الذين نصدر الخنازير إلى الاتحاد السوفييتى ، لا العكس ..! »

وقهقه طويلا ، ولأول مرة ، وهو يقول لى :

— سأبحث عنك عندما أمر بالقاهرة فى طريقى إلى دولة أفريقية جديدة تنشد منا الخبرة والدراسة والرأى الاقتصادى السليم . !

وافترقنا . .

وقالت — المرافقة الدائمة — السيدة « لى » ، ونحن نودع مبنى الاقتصاد الصينى :

— إن أرقاما أخرى تنتظرنا بعد ساعة . . فهل أنت مستعد . ؟

قلت :

— أفضل لى أن أزعم الاستعداد . . وأذهب ، من أن أعتذر ولا أجد من يقبل اعتذارى . . !

وضحكت « لى » بعينيها ، لا بفمها ، وقالت :

— إذن سنذهب إلى معرض بكين الصناعى لكى ترى بعينيك ما سمعته بأذنك عن إنتاجنا الصناعى . .

قلت وكأنى أستجير :

— لقد رأيت ما فيه الكفاية خلال زيارتى لمعرض شنغهاى ! رأيت جهاز شحذ الصلب ، وجهاز قطع الصلب ، وجهاز حفر الصلب فى عمق عشرة أمتار . . ورأيت السيارة الصينية قوة تسعين حصانا ، وسيارة الشحن ماركة « ٦٤ شى » ، وآلات الديزل لإنتاج الكهرباء بقوة ألف ومائتى حصان . .

وقلت لها :

— أليس هذا كافيا . . ؟

قالت وكأنها تسألنى أن أستظهر أمامها درسى الأخير :

— هل لديك اللائحة عن نسبة الإنتاج فى عام ١٩٦٢ ونسبته فى عام ١٩٦٣ ؟

قلت على الفور :

— بكل تأكيد . .

ومددت يدى إلى جيبى وأخرجت لها الدفتر الذى أسجل فيها ملاحظاتى ورحت أقرأ بصوت عال ..

— بلغت نسبة الزيادة فى إنتاج السماد الكيمائى عام ١٩٦٣ عن عام ١٩٦٢ أكثر من ١١٩ فى المائة . .

وفى صنع التراكتورات كانت زيادة النسبة ١١٤ فى المائة . . !

وفى أجهزة ضخ المياه كانت زيادة النسبة ٢٣٤ فى المائة . . !

وفى إنتاج اللوريات كانت زيادة النسبة ٢٣ فى المائة . .

وفى إنتاج الصلب كانت الزيادة ١٩ فى المائة . .

وفى زيادة قوة الكهرباء كانت الزيادة ٢٥ فى المائة . .

وفى إنتاج حامض السلفريك كانت الزيادة ٥٩ فى المائة . .

وفى إنتاج آلات قطع الحديد كانت الزيادة ١٧ فى المائة . .

وفى إنتاج . عجلات إطارات الكاوتشوك . كانت الزيادة ٣٩ فى المائة . .

وفى صناعة الورق كانت الزيادة ١٨ فى المائة . .

وفى آلات الخياطة كانت الزيادة ١٢ فى المائة . .

وفى الصناعة القطنية كانت الزيادة ٢٩ فى المائة . .

وفى صناعة الأقمشة كانت الزيادة ٤٣ فى المائة . .

وفى صناعة الإبر الطبية كانت الزيادة ١٧ فى المائة .. ! !

وسكت . .

ورأيت « لى » تضحك ثم تصفق لى وتقول :

— برافو !

ثم تخرج من حقيبتها مجموعة أرقام جديدة ، وتدفعها لى وهى تقول :

— احتفظ بهذه — أيضاً — فقد تعود إليها عندما تكتب عن الصناعة فى بلدى . .

والواقع أن الحديث عن قفزة التطور الصناعى والعلمى فى الصين يمشى بى — لوحده — إلى مجلد ضخم . . كبير !

فقد مضيت استعيد فى خاطرى كل ما قرأت ، وكل ما رأيت ، وكل ما سمعت ، خلال هذه الأسابيع التى قضيتها فى الصين ، فإذ أنا غارق فى بحر من الأرقام لا يقل ضياعى فيه ، عن ضياع أية قطرة ماء فى بحر الصين الكبير . ! وعندما أو شك أن أنسى الأرقام أقفل عينى على ذكرى ما رأيت واستعيد أمامى — وكأننى أحلم — تلك القوة الجبارة التى استطاعت أن تستحوذ على كل عناصر الإنتاج الزراعى ، وكل عناصر الإنتاج الصناعى ، وأن تصبح ، لا مجرد قوة هائلة لحسب ، بل قوة « مخيفة » . . أيضاً . !

لقد تحدثت إلى العامل الصينى فى مصنعه ، وعلمت منه أن راتبه الشهرى فى عام ١٩٦٤ قد زاد بنسبة خمسين فى المائة عن راتبه عام ١٩٥٢ . .

لقد قابلت المزارع الصينى فى حقله وعلمت أنه لديه الآن أكثر من عشرة أنواع من السماد الكيمائى ، مقابل نوع واحد فقط كان لا يعرف سواه طيلة عشرات من السنوات ، وعندما أردت أن أمتحن صدق كلام الفلاح وسألته عن أنواع السماد الكيمائى التى يستعملها ، أجابنى على الفور :

— عندنا النيتروجين . . والفوسفات . . والبوتاس . . وسلفات الأمونيا .. كذلك عندنا أكثر من عشرين نوعا لمقاومة الحشرات الزراعية .!

قلت وكأنى أتحداه :

— أنكم تستوردونها من الخارج . .

قال ساخراً من كلامى :

— أنا أعلم أن هذه المستحضرات تصنع فى مصنع « وشنبج » بمدينة شنغهاى . . فإذا كانت مدينة شنغهاى « خارج » الصين .. فهذا شىء آخر..!

وقيل لى — أكثر وأكثر — أنهم أصبحوا قادرين على إنتاج أكثر من خمسمائة نوع من الصلب الإسطوانى ! !

وقيل لى إن نسبة زيادة الإنتاج فى الصناعة الخفيفة عام ١٩٦٣ كانت أكثر من الضعف لو قيست بإنتاج الصناعة الخفيفة فى عام ١٩٥٧ .! إن صناعة البلاستيك — مثلا — قادرة الآن أن تنتج أكثر من ستين نوعاً من البلاستيك لصناعة أربعة آلاف صنف . . مقابل عشرين نوعاً فقط فى عام ١٩٥٧ . .

وأنا مستعد أن أصدق هذا الكلام . . أنا مستعد أن أصدق أن الصين — وحدها — قادرة الآن على أن تصمم وتبنى الآلات الخاصة لصناعة الورق ، والسكر ، والزجاج ، والسجائر ، والكبريت ، والجلود ، والجلسيرين والصابون ، والبروسلين ، والكحول ، والفخار ، وعشرات من أنواع الصناعة الخفيفة . ! لقد سمعتهم بأذنى يرددون « الهتاف » الصناعى الجديد الذى أصبح شعاراً للمصانع الصغيرة فى الصين : « قارن عملك بعمل غيرك ، وتعلم ممن هو أقدر منك ، والحق بالذى سبقك ، وساعد الذى وراءك . . » !!

وقلت لرئيس غرفة الصناعة فى شنغهاى :

— ما هو نوع الإدارة الصناعية عندكم . . ؟

أجابنى :

— هناك مجلس خاص « Board » للصناعة فى منطقة شنغهاى انتخبه الكونجرس الخاص بالمدينة ، وجعله مسئولا عن الصناعة . ويضم هذا المجلس عدة « مكاتب » ، وكل مكتب مختص بنوع معين من الصناعة .

قلت :

— ومن هو رئيس المجلس . . ؟

— إنه رئيس بلدية شنغهاى . . « لى كوان زين » . . !

— ومن هم أعضاء المجلس . . ؟

— اخصائيون فى الصناعة . . يضاف إليهم رؤساء « المكاتب » الخاصه التى يضمها المجلس . . !

— وكيف تنظمون علاقتكم مع . . العاصمة . . ؟

— بواسطة رئيس المجلس الخاص الذى يذهب إلى بكين ويشترك فى الاجتماعات التى تعقد هناك برئاسة الوزير المختص .

— ومن هو وزير الصناعة عندكم . . ؟

— عندنا أكثر من وزير واحد . . فهناك وزراء للصناعة الثقيلة ، ووزير آخر للصناعة الخفيفة ، ووزير للنسيج ، ووزير للمعادن . . إلخ . . ولكن . . .

هل انتهى حديث الصناعة فى الصين . .

أم هل انتهى الحديث عن « بعض » ما فى الصين ؟ من زراعة ، وانتاج ، ومرافق ، وحياة . . ؟

لقد رأيت مساكن العمال فى البحيرة « الغربية » وفى بحيرة « تاى هو » وعلى شواطىء « تسنج تاو » . . و « دايرين » . . وعند غابات « لوشان » وجبال « موكان شان » . . وشاهدت مستشفياتهم ، فى « لين تونج » و « شينسى » حيث المياه المعدنية ، والهواء الصحى والحمامات الساخنة ، ورأيتهم يمارسون أساليب العلاج الصينى الشهير فى التدليك ، والرياضة ، « والتاى شيش شوان » أى الملاكمة الخفيفة السهلة الصحية ، ثم يشاهدون الأفلام ، ويقرأون الصحف ، ويتمتعون بممارسة المشى ، وسط جو ملىء بالحنو والرعاية . . وعندما سألتهم عن عدد مصحات العمال فى البلاد ، أجابوا :

— إنها تزيد عن مائتى مستشفى لأكثر من أربعين ألف عامل . .

ورأيت الصبيان والفتيات ، دون العاشرة من العمر ، فى ساعات الصباح الأولى ، وسط الضباب والمطر والعواصف ، يمشون فى شوارع بكين وشنغهاى ، يمارسون رياضة الصباح ويرفعون الأعلام الحمر أمامهم فى طوابير تعد بالآلاف وأصواتهم الصغيرة تسابق الريح وهى تقول :

— نحن خلفاء الشيوعية ، ونصر على النضال فى هذا العالم . . إننا سعداء بوطننا الأم . . !!

فيرد عليهم طابور آخر ينشد كالرعد :

« أينما كنت سنبقى معك . . »

« وإلى أين أخذتنا سنمشى وراءك »

« لأننا نحبك . . لأننا نؤيدك ياماوتسى تونج . . » ! !

ورأيت مئات الآلاف من الموظفين والعمال ، وقد ركبوا دراجاتهم وغطوا أنوفهم بقطعة قماش بيضاء ، وأسرعوا بلاملل ولا تعب ولا هوادة إلى مكاتبهم ومصانعهم ، لايشكون من طقس بارد ، ولا ينتظرون مرور الأتوبيس . .

كلهم يتحركون.. كلهم يمشون.. كلهم يسرعون.. كلهم يسابقون الزمن. كلهم حماس وقوة وعزيمة . . كلهم إيمان بعظمة الصين !

ونهضت ذات يوم بارد ، وارتديت ثيابى واتجهت إلى فندق «سيوشاو» لزيارة صحفى كندى كان ينزل هناك وكان يعمل مراسلا مقيما لمجموعة صحف كندية . .

وقابلت فى بهو الفندق سيدة إنجليزية لم تكد تسمعنى أتحدث مع موظف الفندق بالإنجليزية حتى بادرتنى بالسؤال :

— هل أنت انجليزى . . ؟

قلت :

— بل أنا عربى . . من الشرق الأوسط !

قالت وهى تضحك :

— هذا بلد بعيد جدا عن بلادك . .

قلت :

— ولكنه قريب جدا من كل من يكره الاستعمار واسرائيل . .

واتسعت ابتسامة السيدة وهى تقدم لى نفسها :

— أنا مسز « وستر » .. دكتورة فى الفيزياء ، وأستاذة العلوم فى جامعة كمبردج ببريطانيا . .

قلت :

— وماذا تفعلين هنا . . ؟

قالت :

— لقد استعارتنى جامعة بكين للتدريس فى كليتها . .

وتشعب الحديث ، ثم انقطع عندما نزل الصحفى الكندى لمقابلتى ، وكدت أنسى هذه السيدة لولا أن عدت ورأيتها بعد أيام بجانبى فى الطائرة السوفياتية النفاثة التى حملتنى عبر سيبيريا إلى موسكو . . عائدة إلى بلادها . .

وعدنا نتحدث عن الصين . .

وقالت لى وكلها دهشة وتقدير :

— هذه هى المرة الثالثة التى أزور فيها الصين . . لقد جئت من قبل عام ١٩٥٣ . . ثم جئت للمرة الثانية عام ١٩٥٩ ، ومنذ ستة شهور جئت للمرة الثالثة كأستاذة منتدبة للتدريس فى الأكاديمية العلمية وجمعية العلوم فى جامعة بكين . . وأستطيع أن أقول لك شيئا واحدا : أن العالم بأسره مازال يجهل خطورة مستقبل هذا البلد . . ومدى تأثيره على مستقبل العالم بأسره . .

قلت وكأنى أناشدها أن تسترسل :

— ماذا تعنين ؟

قالت :

— أنا أستطيع أن أحدثك عما رأيته كأستاذة للعلوم والفيزياء أو ما يدخل فى اختصاصى كإخصائية فى هذا الموضوع . . هل تعرف ما هو أعظم ما سمعته من أهل هذا البلد فى تفسير سر هذا البلد . . ؟

قلت :

— لا . .

قالت :

— عبارة قالها لى « شوان لاى » وهى : « إن الشيوعية كما نفهمها هى عملية « إصلاح » الصين . . وإصلاح « العالم » . . واستعملت السيدة كلمة Reform بالإنجليزية . .

قلت لها :

— وما الذى أعجبك فى هذه العبارة . . ؟

قالت :

— خطورتها . . إنهم لا يفهمون الشيوعية كنظام حكم ، بل كعملية « إصلاح » . ولا يحصرون أثرها فى بلادهم ، بل يتعدون بلادهم إلى . . العالم كله !

قلت :

— وهل تظنين أنهم قادرون على تطبيق ذلك . . ؟

قالت :

— بكل تأكيد . . إن بلدا — كالصين — بلغ عدد الذين يدرسون ويعملون فى قسم الفيزياءفقط فى كلية العلوم التابعة لجامعة بكين وحدها أكثر من خمسة عشر ألف شخص . . مثل هذا البلد ، لابد وأن يحقق هدفه . .

ثم التفتت لى قائلة :

— لا تظن أننى شيوعية . . لا ، وإنما أنا تلميذة « علم » لا يدهشنى ولا يشدنى إلا الحقيقة العلمية وحدها . . ومن خلال هذه الحقيقة رأيت الصين . . ورأيت مستقبل الصين . إننى لم أصدق عينى عندما رأيت أمامى مئات الأجهزة من نوع السبكتروغراف « Mass Spectrograph » المختص بتنظيف وتحليل وتصوير اليورانيوم . . وكلها مصنوعة بأيد صينية ! ! هذا شىء يدل على أشياء ، والمختبر «اليهيدروليك» الذى كنا نعمل فيه ، لا مثيل له فى أرقى جامعات بريطانيا ، وحتى فى كمبردج . . وليست جامعة بكين

وحدها فخورة بمثل هذا التقدم العلمى . . لقد رأيت ما يبهر العقل فى جامعة « فودا » العلمية ، وجامعة نانكين ، وغيرهما ، حيث شاهدت بنفسى القدرة على تصميم المقاييس العلمية بما يبهر العقل . . » !

قلت لها :

— وهكذا استطاع «أبوا» القنبلة الذرية الصينية « شين سان شيانج » و « شيين شوشينج » أن يقدما لوطنهما مثل هذا التفجير الذرى العظيم ..!

قالت لى الدكتورة « ووستر » :

ليس « شيانج » ولا « شوشنج » وحدهما أبوا القنبلة الذرية الصينية . إن كل إخصائى صينى فى العلوم والفيزياء قد ساهم فى هذا العمل . . إن كل عالم صينى مغترب خارج الصين وحيثما كان قد ساهم بعلمه — وبوسيلته الخاصة — فى هذا النصر ! هل تذكر ماذا جرى عندما قررت شركة خطوط الطيران الباكستانى أن تسير طائراتها البوينج النفاثة إلى مطار شنغهاى . . ؟

قلت :

— ماذا جرى . . ؟

قالت :

— فى تلك الأيام ظهرت جميع صحف الغرب ، مع صحف أمريكا وروسيا طبعاً ، تقول فى أسلوب الواثق من نفسه أن الشركة الباكستانية لن تستطيع أن تسير طائراتها إلى شنغهاى لأن مطار شنغهاى لا يملك أجهزة الرادار الخاصة بما يسمى « بالهبوط الأعمى » . . أى وسط الأحوال الجوية السيئة . . ولكن سلطات الصين سألت الشركة الباكستانية عن الموعد المحدد لبدء وصول طائراتها إلى شنغهاى ، وفى ذلك الموعد المحدد بالضبط فوجىء العالم كله ، بأجهزة الرادار المطلوبة وقد نصبت فى مطار شنغهاى ، وصنعت بتصميم صينى، وإدارة صينية ، وأيد صينية تستعد لاستقبال الطائرات الباكستانية !

وسألتنى الدكتورة البريطانية :

— هل زرت مستشفيات بكين . . ؟

قلت :

— زرت واحداً منها فقط . . .

قالت :

— أنا أعتقد أن غرف العمليات فى مستشفى بكين لا مثيل لها فى أى مستشفى آخر ، فى أمريكا أو أوروبا ، أو الاتحاد السوفياتى !

وضاع منى صوت الدكتورة « ووستر » وسط صوت قائد الطيارة وهو يعلن أننا سنهبط فى مطار « ايركوتسك » Irkutsk جنوبى سيبيريا ، وأن درجة الحرارة فى أرض المطار عشرون تحت الصفر ، وأن الثلج يغطى المنطقة كلها . . الخ !

ولكن حديث هذه الدكتورة بقى معى إلى اليوم . . وسيبقى معى طويلا . . وسأعود إليه فى صفحات أخرى من هذا الكتاب !

والا . .

هل أستطيع أن أنسى بلاداً مساحتها تسعة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة . .

هل أستطيع أن أنسى وقوفى الطويل على ساحلها الشرقى الذى يزيد طوله عن أربعة عشر ألف كيلو متر . . ؟

هل أستطيع أن أنسى ونحن نمر فوق نهر « اليانكتز » — أطول نهر فى القارة كلها — وصوت « لى » بجانبى تقول وكأنها تخاطب مياه النهر :

— ملايين من أبناء بلدى سقطوا هنا فى نضالهم ضد الاستعمار ، والخونة !

هل أستطيع أن أنسى منظر تلاميذ . . عشرات الآلاف منهم ، وقد انتشروا فى الريف الصينى ، على طول المنطقة الجبلية المحاذية لغربى وجنوبى نهر « اليانكتز » ، يبحثون فى بطن الأرض عن المعادن . . عن الحديد . .

والفحم ، والألومنيوم ، والفوسفات والنحاس ، والطنفستان ، والمنغنيز ، والزنك والرصاص ، لأن أرض الصين — كما أثبتت الأبحاث والتنقيبات ، تضم جميع هذه المعادن الهامة ؟

أم هل أستطيع أن أنسى منظر ذلك الخبير الزراعى وهو يحدثنى بلسان هادىء وقور وكأنه يرتل كتابا مقدساً ويقول لى :

— إن عندنا مائة مليون هكتار من الأرض تحت الفلاحة وأكثر من مائة وأربعة عشر مليون هكتار من الأرض البكر الصالحة للزراعة . !

أم هل أستطيع أن أنسى رقصة القمح ! !

أجل . . رقصة القمح . . بالذات . !

إن لها عندى أكثر من ذكرى . . . كلها حب . . كلها فن . . كلها جمال . . كلها حياة !



الفصل الثامن

خلافنا مع بعض رفاقنا!

قد يكون التعصب والكراهية من أسباب كل خلاف . ولكن السبب المباشر فى انشقاق وحدةاليونانيين يختفى فى المنافسة الشديدة بين مختلف المطارنة الذين احتفظوا بسيادة الكرسى القديم فى أضعف عاصمة حاكمة ، وسط العالم المسيحى » .

« إدوارد جيبون »

كتاب « انهيار الإمبراطورية الرومانية »

إن الصين . . دولة للمناقشات التى لا تنتهى !

« التايمس اللندنية »

قلت لها :

— إن خلافكم مع موسكو سيطول ! لقد بدأ خلاف السنة مع الشيعة فى الدين الإسلامى منذ ألف وثلاثمائة سنة ومازال قائماً ، لأن كلا من الطرفين يعتقد أنه على صواب . . !

« المؤلف »



الصين فى نوفمبر ١٩٦٤ ، رأيتها فى عيد روحانى كبير !

فقد سقط الرجل الذى قال عن زعماء الصين الشيوعية إنهم « متجمـدين » .. « مجانين » .. « مغامرين » .. « ودعاة حرب » ..

واحتفلت الصـين ، بسقوط خروشوف ، على طريقتها الخاصة . ! إنها لم تقم الزينات ، ولم ترفع الأعلام ، ولم تعطل الدوائر الرسمية ، وإنما أطلق زعماؤها شعاراً جديداً ، أعاد الثقة إلى القلوب ، وضاعف الإيمان بالشيوعية فى الصدور ، وأثبت للملايين من أهل الصين أن زعماءهم — فقط — على حق ، وأن خصومهم على باطل وضلال !

شعار واحد بسيط ، سمعته على لسان كل من قابلت فى الصين ، يقول لى فى التعليق على سقوط خروشوف :

— اللينينية تبقى ، وأعداؤها — من المتلاعبين بها — يسقطون ! !

فقد كان خروشوف ، فى نظر حكام الصين ، وبالتالى — طبعاً — فى نظر الشعب الصينى ، الرجل الذى انحرف عن الخط الشيوعى الصحيح عندما حاول أن يصحح أو ينقح أو يعدل ذلك الخط على طريقته الخاصة ..!

وبسقوط خروشوف — سقطت معانى الانحراف والتعديل كلها . .

وسقوطه — كما قالوا — نذير بسقوط كل من يحذو حذوه ويمشى على

خطواته . . سواء فى منغوليا . . أم فى تشيكوسلوفاكيا . . أم فى ألمانيا الشرقية ورومانيا . .

لقد أطلقوا عليه — على مسمعى — صفات الرجل الخائن ! . . . . المتقلب ! . . . الذى يبدل لون جلده — كالأفعى — الأحمق الثرثار . . ثم قرأوا — على مسمعى ترجمة لمقالات قديمة ظهرت فى جريدة « الشعب » الصينية وفيها وصف لخروشوف بأنه أشد خطراً على الشيوعية من الاستعمار الأمريكى ومن أمثال تشانج كاى شك . . » ! !

وأحسست فى حديثهم مرارة وألما . ! إنهم مجموعة بشر تؤمن بزعيمها وتقدسه إلى حد الألوهية ! ولكن خروشوف فى ربيع عام ١٩٦٤ قال عن ماوتسى تونج أنه نسخة من « تروتسكى » . . وأنه سيلاقى نفس المصير الذى لاقاه تروتسكى . . أين هو تروتسكى اليوم ! ! ؟ ؟ » .

وجن جنون شعب الصين . وعلى رأسه الحزب الشيوعى الحاكم ، الذى يضم الخمسة عشر مليون صينى . .

وقال لى السيد « كوموجو » الرئيس العام لمؤتمر السلام الدولى ، ونائب رئيس اللجنة الدائمة للكونجرس ، عند مقابلتنا فى مكتبه بدار الكونجرس الصينى :

— أظنك تعلم تماما أن سياسة خروشوف كانت تعاون الاستعمار ، وتتعاون معه . . وإنها كانت تهدف إلى اقتسام العالم بينه وبين أمريكا . . ولكن الشعب السوفيتى يريد السلام مع الشعب الصينى ويريد صداقتنا ، والحزب الشيوعى السوفييتى حزب عظيم لن يسير فى الخط السيء الذى سار عليه خروشوف . . »

ثم استطرد يقول :

— إن كل ما أستطيع أن أقوله إن سقوط خروشوف كان إنذاراً لمن

يجيء بعده فى بلاده ،ولمن يحذو حذوه فى أى بلدشيوعى ، بأن متابعةسياسة خروشوف معناها أن يلاقى صاحبها نفس المصير الذى لاقاه خروشوف . . »

قلت للسيد « كو » وأنا أبحث عن نقطة أبدأ معها خيط حديثه :

— إننى أشعر بالمرارة تملأ حروف كل كلماتك عن خروشوف . !

قال وهو يصيح أمام مجموعة من مساعديه ومرافقيه :

— إننا « لن » نغفر له الطعنة التى وجهها إلينا فى ظهورنا . ! لقد استغل هذا « الأحمق الثرثار » المصاعب الاقتصادية التى كنا نعانيها بسبب العواصف والتقلبات الجوية ، فطعننا فى السر وأساء بذلك لا إلى نفسه فحسب ، ولا إلى الصين فقط ، بل أساء إلى الأخلاق والمثل الشيوعية . ! لقد كان هدفه أن يخدم أمريكا عن طريق القضاء علينا . ! لقد ظهر على حقيقته « اللئيمة » عندما أمر بسحب الخبراء السوفيات من بلادنا ، وكان عددهم يزيد عن ألف وسبعمائة خبير ، . . عادوا جميعا فى شهر واحد . ! لقد داس هذا «المجرم» على ثلاثمائة وثلاثة وأربعين فقرة من الاتفاقية الذرية المعقودة بيننا وبينه . . وتجاهل مائتين وخمسين عقدا مع خبراء سوفييت فى ميدان العمل الذرى . ! ويمكنك أن تتصور أثر مثل هذه الضربة على رأس الصين . لقد أحسسنا بفجيعتنا فيه عندما ذهب « على بطنه » إلى « كامب دافييد » لمقابلة أيزنهاور فى عام ١٩٥٩ ، وأصبح أسير تلك السياسة وسجينها فتنكر للاتفاقية المعقودة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى والتى تفرض على الحكومة السوفيتية مساعدتنا فى التطور الذرى ، ومضى يناصبنا العداء بوقاحة وعناد وإصرار . . » .

وسكت السيد « كوموجو » ، وله فى الصين اسم علمى وسياسى كبير ، ثم قال :

ولكننا نشكر خروشوف للخدمة التى أداها لنا . . إذ لولا موقفه

العدائى منا لما استطعنا أن نعتمد على أنفسنا .. إن أخلاقنا الشيوعية تفرض علينا — منذ أن اعتنقناها — أن نعتمد على أنفسنا ، ولكننا لم ننفذ ذلك — بحذافيره — إلا بعد عام ١٩٦٠ .. وبعد أن خذلنا خروشوف مرة واحدة .. » !

قلت أسأله :

— وهل معنى ذلك أن ضربة القضاء على خروشوف قد جاءت من هنا .. من بكين ؟

قال بعد التشاور مع مرافقيه ومساعديه :

« أنا لا أستطيع أن أتحدث نيابة عن الشعب السوفياتى ، ولكنى أقول لك إن خروشوف قد فشل فى جميع نواحى سياسته ، الداخلية والخارجية ؛ إن عملية طرده ، عملية خطيرة ، ومعناها أن الجرائم التى اقترفها خروشوف كانت خطيرة .. وإلا لما كان هناك مبرر لطرده . ! إن العقاب يساوى الجريمة . وإنى إذ «أسمح» لنفسى أن أعلق على طرد خروشوف ، فإنى أقول لك .. وهنا رآنى السيد كوموجو أبتسم .. ثم أضحك ، فسألنى عن سر ذلك ، فقلت له :

— لأنك يا سيدى قد « سمحت» لنفسك — بالفعل ، وبكل حرية — أن تقول رأيك فى خروشوف دون استئذان أو حرج . !

ولكنه تجاهل ملاحظتى وكأنه لم يفهمها ، ومضى يقول :

لقد طردوا خروشوف لثلاثة أسباب : أولا لأنه اعتبر أصدقاءه أعداء .. واعتبر أعداءه .. أصدقاء ! وبذلك التصرف خلق التجزئة والانقسام فى المعسكر الشيوعى ! ثانياً لأنه خسر تأييد الشعوب المناضلة فى آسيا وأفريقيا. إنه هو الذى قال وكأنه يهذى : ـ إن شرارة النضال الوطنى قد تخلق حربا عالمية .. وثالثا لأنه لم يستطع أن يجنى أى مكسب من وراء مهادنته المعسكر الرأسمالى

الاستعمارى الأمريكى . إن خروشوف لم يرسم لنفسه أو لبلده سياسة معينة تجاه الصديق ، أو تجاه العدو » . .

ثم سرح « كوموجو » ، قليلا وكأنه يتذكر أسبابا أخرى لنهاية خروشوف ، وقال :

وهناك أسباب أخرى تتعلق بسياسته فى الميدان الداخلى . فقد فشل أولا فى السياسة الاقتصادية عندما أصدر توجيهات خاطئة أضرت بالبلاد . . وقد يكون معذورا فى ذلك لأنه لا يملك أية معلومات عن علم الاقتصاد ! وفشل - ثانيا - فى الميدان العسكرى والثقافى عندما فتح الباب أمام « التحرر » المبدئى الخاطىء . . وفشل - ثالثا - نتيجة أخلاقه الخاصة وتصرفاته الذاتية . . فقد سمح لنفسه أن يهاجم « ستالين » لكى يبنى شخصيته . . هو . ! لقد هاجم ديكتاتورية ستالين كى يؤسس ديكتاتورية خروشوف . ! وسمح لنفسه أن يوظف أقرباءه فى أعلى المناصب ، وأن يستسلم للمحسوبية والمنافع الخاصة . . وأن يتولى العمل على طريقة الاستبداد بالحكم وبالمسئولية دون استشارة رفقائه ، وأن يهذى . . ويملأ الدنيا كلاما محموما بلا معنى ولا فائدة . ولكن خيانته الكبرى فى نظرنا نحن الصينيين أنه خان الماركسية واللينينية فاستحق هذه النهاية » . .

ثم مضى الحديث إلى مواضيع أخرى متعددة . .

وقد حاولت بعدئذ أن أناقش قصة « خيانة » خروشوف - هذه - المبادىء الماركسية واللينينية مع أكثر من مسئول صينى . ناقشتها مع مجموعة « الخبراء » الذين جاءوا لمناقشتى وكشف الحقائق أمامى . ناقشتها مع كبار الصحفيين وقادة الرأى العام .. ناقشتها مع كبار رجال الخارجية الصينية وعلى رأسهم مديرها العام « شيانج وين شين » . ناقشتها مع السيد « لين كوان » السكرتير العام للجنة الدائمة لمجلس الكونجرس الصينى .. ناقشتها مع السفراء

العرب ، والسفراء الشرقيين ، فى العاصمة الصينية . . . وقد خرجت من ذلك كله بما يلى :

أولا — تباين المسلك السياسى — لدى كل من حكام موسكو وبكين — كان أكبر فى أثره ونتائجه من الاختلاف . . المبدئى . . رغم ادعاء كل من الطرفين عكس ذلك . .

ثانياً — الخلاف الشخصى — فى الطبع والخلق والماضى والاتجاه — كان المحرك للخلاف المسلكى . .

وقبل أن أمضى إلى سرد جوانب أخرى فى أسباب الخلاف ، أقف قليلا لكى أفسر هذا الكلام وأقول :

إن قصة أول اشتباك مسلح على الحدود الصينية الهندية فى سبتمبر ١٩٥٩ ، وإعلان موسكو موقفها « الحيادى » من هذا الاشتباك وما رافق ذلك من إضعاف للحزب الشيوعى الهندى وانقسامه بين فريق يؤيد موسكو وفريق آخر يؤيد بكين ، ثم وفاة رئيس الحزب « أجوى غوش » فى يناير سنة ١٩٦٢ ، وأثر ذلك على تغلب فريق موسكو على فريق بكين ، وتجدد الاشتباكات على نطاق أوسع فى أكتوبر ١٩٦٢ ، وموقف الجناح المعادى للصين من الحزب الشيوعى الهندى بسبب هذه الاشتباكات ، ورأى الصين الرسمى فى مثل هذا الموقف الذى نال فيه نهرو تأييد بعض الماركسيين « الخصوصيين » من أمثال « دانج » المسمى رئيس الحزب الشيوعى الهندى «مما يوجب على كل شيوعى صادق فى الهند أن يبحث عن أصدقائه وحلفائه فى الصين وحدها لا فى موسكو» . . أقول مثل هذه الاصطدامات الصينية — الهندية وما تبعها من «غزو» صينى شامل للحدود المشتركة مع الهند فى ٢٠ أكتوبر عام ١٩٦٢ دون استشارة موسكو ، مما دفع موسكو — مرة أخرى — إلى إعلان « حيادها » الظاهر تجاه هذه الأحداث . . كل ذلك قد ألهب

العلاقات الصينية السوفياتية أكثر مما ألهبتها الخلافات العقائدية المعقدة بين البلدين رغم ما تتضمنته تلك الخلافات العقائدية من خطورة . .

شيء آخر . . أو مسلك آخر .

إذ بينما كان الصينيون يرفعون أنوفهم فى شموخ الانتصار على جبال « هملايا » ضد القوات الهندية ، كانت موسكو — على حد تعبير بكين — تستسلم فى خنوع ومذلة أمام الإنذارات الأمريكية فى كوبا ! لقد سمعتهم فى الصين يستعملون كلمة Capitulationism أو « الاستسلام » فى وصف موقف موسكو من أزمة كوبا . . وكانت موسكو تبرر موقفها فى الانسحاب بحجة تجنبها دفع العالم إلى حرب ذرية شاملة . . بينما كانت بكين تهاجم الاستعمار الأمريكى فى عنف وتدافع عن ضرورة مساندة موقف « كاسترو » مهما يكن الثمن ، ومهما تكن التضحيات . ! كانت موسكو تدافع عن موقفها بالحديث عن أخطار الحرب . وكانت بكين ترد فى عنف وتتهم موسكو — وبالتحديد خروشوف — بأنه قد خلق « ميونيخ » أخرى على حساب «المسكين» كاسترو وعلى حساب استقلال كوبا .! قال لى رئيس جمعية الصحافيين الصينيين فى معرض حديثه عن هذه « المأساة » أمام زملائه من كبار رجال الرأى فى الصين :

— لقد حطم خروشوف هيبته الشيوعية بهذا الاستسلام المخزى أمام تهديدات كنيدى . . ونحن لم نكن نريد الحرب الشاملة لحل أزمة كوبا . . ولكننا نقول بالحرف مايلى : « إن موسكو لم تسألنا رأينا فى مثل هذه العملية . وهى عملية مملوءة بالمغامرة أكثر منها مجرد سياسة . وما دامت موسكو لم تسألنا رأينا فنحن لسنا ملزمين بالنتائج . ولكن، مادامت موسكو قد دخلت وغامرت فلماذا هى تتراجع وتستسلم . . ؟ ! »

وكانت نتيجة هذا المسلك ، ليس فى مضاعفة حدة الخلاف بين موسكو

وبكين فحسب ، بل فى أن يبادر كاسترو إلى إعلان حياده بين المعسكرين الشيوعيين المتطاحنين وأن يرفض طلب السوفيات فى مقاطعة ومحاصرة حكام « ألبانيا » وأن يملأ صحف بلاده بنشر هجمات موسكو على بكين ، وضربات بكين على موسكو . . ! !

وقلت لهم فى بكين :

— ولكن لماذا كل ذلك ؟ لماذا هذا التباين الواضح فى المسلك السياسى والاتجاهى لدى كل من موسكو وبكين والذى كان فى أثره أقوى من الخلاف المبدئى أو النقاش السياسى الفلسفى ؟ ؟ لماذا تدخل الصين فى أزمة ضد الهند ، فتلتزم موسكو الحياد ، أو تدخل موسكو فى أزمة ضد أمريكا فتلتزم بكين الحياد ! ؟

قالوا لى فى صراحة تامة بلسان أكبر المسئولين عندهم :

— أين كان خروشوف عندما قامت الثورة الشيوعية فى روسيا ؟ وهل كان له أى دور فيها ؟ وهل استطاع أن يساهم بعقله أو بفكره أو بجهاده فى إنماء هذه الثورة ؟ ومن هو خروشوف ؟ ما هو تاريخه ؟ ما هى ثقافته ؟ هل اشتهر فى العالم كشاعر كبير ، أو مفكر ، أو مؤلف ، أو محلل ، أو فنان ؟

قلت لهم بصراحة متواضعة :

— لم أفهم ماذا تقصدون . . ؟

قالوا :

— إن « ماوتسى تونج » مثلا ، وهو رئيس الحزب الشيوعى الصينى ومؤسسه منذ عام ١٩٢١ ، رجل عاصر المعارك وخاض الحروب ودفع الثمن من صحته وشبابه ، بل من زوجته وأولاده . ! إنه هو الذى نظم ثورة الخريف عام ١٩٢٧ المعروفة بثورة « هونان » . إنه هو الذى خلق الجيش الأحمر بالاشتراك مع زميله « شوئيه » ! إنه هو الذى أقام دولة سوفياتية

وأعلن قانون إصلاح الأراضى فى مقاطعة « كيانجزى » ! إنه هو الذى قاد فى عام ١٩٣٤ موكب « السير الطويل » لمسافة ثلاثة آلاف ميل من « كيانجزى » إلى « ينان » وخسر خلال ذلك أعز أفراد عائلته . إنه هو الذى أعاد تنظيم الجيش الأحمر عام ١٩٣٧ وجعله جزءا من الجيش الصينى الوطنى لمحاربة اليابانيين المستعمرين . . هو بطل المعاهدات ، والمفاوضات ، والمباحثات التى جاءت إلى بلادنا بالخير والقوة والمنعة . . هو نسيج وحده ، لا مثيل له فى تفكيره وشخصيته وإيمانه ببلده . . ألم يقرأ العالم مؤلفاته فى الفن ، والأدب والتربية والسياسة ؟ ألم تسمعه الملايين خطيباً عظيما . . ومع ذلك ما أشد تواضعه عندما يخاطب أهل الفكر فى بلاده قائلا : « إننى أطالب هؤلاء الذين بنوا علمهم على كتاب واحدفقط بينما عجزوا عن مواجهة حقائق الأمور أن ينقدوا أنفسهم ويعيدوا النظر فى عيوبهم فيصبحوا أكثر تواضعاً فى مسلكهم . هذا هو زعيمنا الكبير ، وتلك هى شخصيته ، فأين منه خروشوف وأمثال خروشوف . ! »

هكذا سمعتهم يفسرون لى شخصية زعيمهم ماوتسى تونج . . وأطنبوا فى الإشادة بروحه المرحة وبساطته وسهولة منطقه وحديثه وإيمانه بالمصير الشخصى الذى لا يصنعه إلا الشخص . . وحده . . وقالوا لى عنه وكأنهم يتحدثون عن الله : « إنه أعظم من واشنطن . . ومن نابليون . . ومن لينين ومن ستالين . . فكيف — إذن — نقارنه بهذا الرجل المسمى خروشوف بل كيف نطلب منه أن يكون هو على خطأ ، ويكون رجل مثل خروشوف على حق ! ؟ إن الفرق بين الرجلين أن زعيمنا ضاعف إيمان الشعب بالشيوعية وكسب للمبدأ الشيوعى ربع سكان العالم . . أما خروشوف فقد زعزع الإيمان بالشيوعية وخان مبادئها وتخلى عن رسالة مؤسسيها واستسلم لأعدائها . ! » .

وهكذا شعرت من خلال حديثهم أنهم لا يريدون الإشادة بعظمة زعيمهم « ماو » — إذ هو عندهم لايحتاج إلى حديث أو إشادة — بقدر مايريدون الحط من قيمة خروشوف وكشف تاريخه وضآلته أمام العالم. وبالتالى شعرت أنهم فى حديثهم إنما يعكسون صدى آراء زعمائهم ويؤكدون دون أى شك ، أن سر ضآلة شخصية خروشوف وضعفها وانحلالها ، يضاف إلى ذلك تاريخه الذى لم يسجل له انتصاراً واحداً على أعداء الشيوعية ، هى التى دفعته إلى التنكر للمبادىء اللينينية الماركسية الأصيلة ، وبالتالى إلى الخلاف مع الشيوعيين الحقيقيين ، وبالتالى إلى مهادنة أعداء الشيوعية ، وبالتالى إلى إصدار الفتاوى الحزبية التى يبرر بها انحرافه الحزبى الواضح . !

ترى لو بقى ستالين حياً فى الحكم إلى يومنا هذا ، هل كان يجرى هذا الذى يجرى من خلاف شخصى ، أدى إلى خلاف عقائدى ، وتبلور فى خلاف مسلكى ، بين موسكو وبكين . . . ؟

قلت لهم فى بكين :

— ولكن « لينين » نبيكم ، يؤمن بالتعايش السلمى الذى تنكرونه على السوفييت . .

قالوا بعنف وكأنى كافر يتحدث أمامهم بجهل عن الدين :

— دعك من لينين . . فإنه لم يذكر التعايش السلمى إلا مرات قليلة بقصد أسباب معينة منها — مثلا — إخراج روسيا من الحرب العالمية الأولى . ! أجل ، دعك من لينين فهو الذى قال بالحرف « إنه لايستطيع أن يتصور تعايشاً سلمياً بين السوفييت ودولة استعمارية » . . ولكننا — مع هذا — نقول إننا لسنا ضد التعايش السلمى إذا كانت هناك شروط معينة لمثل هذا التعايش . أننا نؤمن بالتعايش السلمى على أساس المبادىء الخمسة التى نادى بها شوان لاى مع نهرو فى نيودلهى عام ١٩٥٤ . . ونؤمن بأن التعايش السلمى كلعبة « البنج بونج » لايمكن أن تلعب من طرف واحد..

إن أساس التعايش السلمى أن يكون الطرف الآخر — أيضاً — على استعداد حقيقى لأن يمارسه ويؤمن به ، إننا لا نؤمن بالتعايش بين الذئب والحمل إن هذا ليس تعايشاً ، إنه مجرد أمنيات من طرف واحد :

One-Sided Wishful Thinking

قالوا وقد صمموا على كشف أوراقهم مرة واحدة :

— وكلمة « السلام » عند قادة السوفيات قد فقدت معناها الحقيقى . إنهم يتحدثون مثلا عن تعبير يطلقون عليه عبارة « التحول السلمى » أو Peaceful Transition ويقصدون به ترديد مبدأ قديم للاشتراكية الديمقراطية ينادى بأن تكون الانتخابات البرلمانية وحدها الطريق أمام العمال من أجل الفوز ، وبالتالى الوصول إلى مقاعد الحكم . . ويقولون إن هذا يدعى « بالصراع البرلمانى » . . ولكننا — نحن — لانؤمن بهذا المبدأ . . ولا نؤمن بمفعوليته ! لقد فاز الشيوعيون فى فرنسا — مثلا — بنحو نصف مقاعد المجلس الوطنى ، ولكنهم عجزوا عن التأثير على عجلة واحدة فى موكب الحكم الفرنسى أو إثبات رأيهم ووجودهم فى تغيير الأوضاع . وما يقال عن فرنسا ، يقال عن الكونغو . لقد كان للزعيم « لومومبا » برلمان يؤيده ويؤيد سياسته ، ولكن ذلك لم يمنع كازافوفو من أن يطرد لومومبا ثم لم يمنع تشومبى أو الاستعمار من قتل لومومبا . ! إن البرلمان الذى كان يقف وراء لومومبا لم يستطع أن ينقذ لومومبا من النهاية المحزنة التى انتهى إليها . مامعنى ذلك ؟ معناه أن « الجانب » الآخر لايؤمن بقيمة البرلمانات ولا بأثرها ولا بمفعولها . . ونحن — بالتالى — لا نؤمن بها . إن « التطور السلمى » هذا قد أصبح أساساً لسياسة خروشوف، وقاعدة لآرائه تجاه الحركات الشيوعية فى أمريكا اللاتينية وغربى أوروبا . . لم يعد خروشوف يؤمن بالثورات . . لقد فقد تقديره لها ، وفقد حسه فى تفهمها !.. »

وتناول دفة الحديث شاب صينى كنت قد رأيته خلال مقابلتى لرجال الخارجية الصينية، ولرجال المجلس الوطنى الصينى، ثم عرفت أنه المسئول عن التوجيه « المبدئى » للشباب فى بكين، فقال :

— وهناك « سلام » ثالث يتحدث عنه خروشوف وأمثاله، ونعنى به مايسمى « بالتنافس السلمى » أو Peaceful Compitition ويريد خروشوف من وراء المناداة بهذا « السلام » إرغام الملايين من الشيوعيين على الإيمان بأن الشيوعية لا تنتصر بالثورات، بل بالتنافس الاقتصادى. ونحن — مع إيماننا بالقوة الاقتصادية وأثرها ووجودها — لانتخلى عن إيماننا بالصراع السياسى أيضاً. إن النصر فى المعركة الاقتصادية — لا يعنى النصر فى المعركة السياسية.. وكيف يتسنى لنا أن ننافس الرأسمالية الأمريكية مثلا فى الميدان الاقتصادى.. هذا مستحيل.. لأننا ننافس أكبر الدول الرأسمالية فى العالم.. وبالتالى لا يمكن لأية دولة صغرى كبلادكم مثلا أن تنافس أية دولة كبرى.. إن الإنتاج الاستعمارى يغزو أسواق الدول الصغرى ويحطم اقتصادها ويشل إنتاجها.. »

ومضى المسئول عن التوجيه العقائدى الشيوعى فى بكين يقول :

— ونسمعهم، بل وقد سمعناهم عشرات المرات يتحدثون عما أسموه بالتسوية أو Compromise ولهذه الكلمة فى القانون اللغوى وفى العقائدى السياسى أكثر من معنى؛ إنها تعنى مثلا « التعريض للظنون ».. « والشكوك ».. « والحط من الشرف ».. « وإقامة للهوان ».. كما تعنى أيضاً المشاركة أو التسوية أو الاتفاق.. ولكننا نفهمها — نحن — بكل هذه المعانى. إننا نسأل أتباع الخروتشوفية : ماذا تعنون بهذه الكلمة؟ وهل أنتم متأكدون أن « أمريكا » مستعدة لأن تدخل معكم فى.. تسوية؟ وكيف تكون مثل هذه التسوية، وعلى أى أساس؟ وهل تبقى التسوية،

« تسوية » إذا فقدت معانى الشرف والعدل والحق فيها . . ؟ هل إعطاء أموال للاجئين العرب فى فلسطين مقابل تنازلهم نهائياً عن وطنهم ، هو تسوية . . ؟ هل بيع الفرد لوطنه وحريته ، يسمى تسوية ؟ لا . . هذه ليست تسويات . . إنما هذه خيانات فإذا قمنا نحن ورفضنا مثل هذه التسوية قالوا إننا دعاة حرب وإننا لا نؤمن بالسلام . ! »

واستطرد يقول :

— وما أكثر ما نسمعهم يتحدثون عن « الحل السلمى » للمشكلات . ! سلمى . . سلمى . . سلمى . . ترى هل يتفق السلام مع التآمر . ؟ أم هل يتفق السلام مع الشر ؟ . أم هل يتفق السلام مع النوايا الخبيثة . ؟ أم هل يتفق السلام مع الباطل . . ؟ ! »

وسكت « معلم » المبادىء الشيوعية للنشء الجديد من أهل بكين ، لكى يفسح المجال أمام « خبير » صينى آخر يقول لى :

— نحن نؤمن أن « الانحراف » المبدئى الذى أصاب خروشوف وجماعته قد كان — فى حد ذاته — خيانة واضحة لثورتين اثنتين ، أولاهما الحركة الاجتماعية التحررية العمالية فى الدول الرأسمالية ، وثانيتهما خيانة الحركات الوطنية للشعوب المستعمرة . . »

قلت له :

— ولماذا يسخر خروشوف من نظام الكوميون عندكم . . ؟

قالوا :

— لأنه لا يريد لهذا النظام أن ينجح عندنا ، حيث فشل عندهم . هو لا يريد أن يقال بأن الصينيين أقدر على وضع المبادىء الشيوعية موضع التنفيذ من السوفيات ، وأنت تعلم أن الكوميون قد فشل — كأسلوب حياة — فى السوفيات ، لا بسبب عجز الكوميون ، بل بسبب عجز السوفيات .

ولهذا قلنا لخروشوف : إن فشلكم فى تنفيذ الكوميون — بالأمس — لا يعنى أن الصين ستلاقى نفس الفشل . . إن الأيام قد تبدلت . . والوسائل الزراعية والعمالية اليوم ، غيرها بالأمس على أيام « لينين » أو « ستالين » . . »

« . . إن الكوميون مهم للشيوعية .. حيث لا شيوعية بلا كوميون .. إنه أساسها ، إن أول ثورة للشيوعيين فى باريس عام ١٨٧٦ كانت تحمل اسم : « باريس كوميون » ! إن الكوميون أسلوب .. والشيوعية أسلوب .. والأسلوب الأول يخدم الأسلوب الثانى . . إنه نظام الشيوعية وهيكلها الاجتماعى ، وإذا كان ستالين قد مات قبل أن ينفذ أسلوب الكوميون كما يشتهى فليس معناه أن فكرة الكوميون قد ماتت . . إن ستالين بالذات قد أعلن أنه سيعود إلى تنفيذ هذه الفكرة فيما بعد ، ولكنه مات قبل أن يفعل ذلك ، فلماذا لا تريدون منا أن ننفذ فكرة هى فى صميم الفكر الشيوعى ، وفى صميم تفكير أقطاب الشيوعية » . ؟ »

قال لى الخبير :

— كان هذا مضمون حديثنا إلى الحكام السوفيات ، فى معرض دفاعنا عن أسلوب الكوميون . ولكنهم بدلا من تشجيعنا على ذلك ، راحوا يؤكدون أننا قد فشلنا ، وأن اقتصاديتنا تتدهور . . وأننا على حافة الإفلاس ، وأننا نغير من تقدمهم الاقتصادى ونحقد بسبب ذلك ، عليهم » . » !

وسكتت — أخيراً — مجموعة الخبراء . .

ورحت بنفسى أسأل كل من عرفت ، وكل من قابلت فى بلاد الصين :

— هل هذا هو « كل » أسباب الخلاف بين الصين والاتحاد السوفييتى ؟ أعنى هل الخلاف الشخصى الذى تسبب فى الخلاف المسلكى وبالتالى ، فى الخلاف العقائدى ، هو كل أسباب الخلاف بين موسكو وبكين . ؟ ؟

وجاءنى الجواب بعد ثلاثة أسابيع فى البحث والتساؤل :

— لا . .

أو كما يقول المثل اللبنانى الذى وجدت لسانى يتمتم به فجأة :

— مش رمانة . . بل قلوب مليانة . . »

أى أن السبب فيما وقع لا يعود إلى الخلاف على « حبة » واحدة من « الرمان » بل لأن القلوب كلها ملآنة بالحقد والغضب ! ترى هل أستطيع أن أكشف تلك الأسباب . . ؟

لقد تذكرت « فجأة » وأنا فى الصين ، قولا قديما أطلقه « فلادمير لينين » ذات يوم وقال فيه « أن روسيا القيصرية قد سرقت من الصين بعض أراضيها ويجب علينا — أى على السوفيات — أن نعيد تلك الأراضى إلى أصحابها . . »

ولكن « خلفاء » لينين — حتى اليوم — لم ينفذوا هذه الوصية ، وبقيت « بعض » أراضى الصين فى يد روسيا . .

وهذا — فى نظر الصينيين — إن كان جائزاً بالأمس عندما كانت الصين دولة ضعيفة فقيرة مقسمة ، إلا أنه لا يجوز اليوم عندما أصبحت الصين دولة اشتراكية موحدة حرة . . « وذرية . » .

ولكن « موسكو » — كما يبدو — لا تريد أن تتذكر ذلك ، وبالتالى ، لا تريد أن تعيد الأرض إلى أصحابها ، تلك الأرض « الصينية » التى تعرف اليوم « بالمقاطعة السوفييتية فى الشرق الأقصى » ، وسينكيانج ومنغوليا الخارجية » . . إلخ . . إلخ .

لقد أكدلى المسئول الصينى أن كل ماتطمع فيه الصين هو أن « تستعيد » أراضيها المفقودة . . سواء فى الجنوب أو فى الغرب أو فى الشمال الغربى . . وهذا — فى نظر المسئول الصينى — ليس استعماراً ، ولا توسعا ، وإنما هو

حق وعدالة . . إنها تريد أراضيها التى سرقها منها القياصرة بموجب اتفاقيات جائرة فرضت على الصين عام ١٨٥٨ وعام ١٨٦٠ . .

وإلا . .

وإلا ماذا . . ؟

وإلا ، ويقول المسئول الصينى ، سيأتى اليوم القريب الذى لا يمكن معه لأى مسئول صينى بل لأى مواطن صينى أن يرضى بأن يرى جزءا كبيراً من أرض أجداده ما زال محكوما بأيد أجنبية . .

هذه واحدة لا تحتاج إلى تفسير . .

أما الثانية فأدهى وأكبر . .

إن من حق « ماو » — كما يقول الصينيون — أن يعتز بأنه وحده ، الذى قاد وانتصر فى الثورة الشيوعية الصينية . . وأنه يقود شعباً ذا تاريخ وعلم وثقافة لا علاقة بين واحد من أفراده وبين واحد من أمثال خروشوف . . بفظاظته وعاميته وخشونة كلامه وألفاظه . . » . .

وبالتالى ، قال لى أكثر من صينى إننا — أى الصين — دولة آسيوية ، لا أوروبية ، وأن علينا مسئوليات تجاه جميع دول آسيا — بالدرجة الأولى — ومعنى هذا أننا بموجب مبادئنا وفلسفتنا ووجودنا مرغمين على أن نساعد أية دولة أسيوية تريد أن تتحرر من ظلم الاستعمار وتريد أن تختار لنفسها الاشتراكية العمالية . ! إننا لا نريد من وراء ذلك « زعامة » أو قيادة . . بقدر ما نريد أن نوحد شعوب آسيا وأن نحررها وأن نصهر إمكانياتها لكى تقف صفا واحدا أمام الاستعمار . .

ولكن هذا — ويؤكد المسئولون الصينيون ذلك — لم يكن يلاقى ارتياحا ولا قبولا من أوساط موسكو الحاكمة . لقد كانت تلك الأوساط تنظر بحذر إلى توسع النفوذ الصينى عبر كوريا وكمبوديا وفيتنام وأندونيسيا . .

وأن ذلك يعنى مجىء يوم قريب تصبح فيه دولة السبعمائة مليون نسمة زعيمة للقارة الآسيوية كلها ، وخصما عنيداً للاتحاد السوفيتى .. بالذات . ! ومن أجل هذا ، حرصت موسكو — كما يقول الصينيون — على نشر الدعايات المضللة عن الاقتصاد الصينى بغية تسميم الآبار أمام أية دولة آسيوية تريد أن تتلفت صوب بكين لكى تناشدها المساعدة أو المعونة . بل لقد أحسست ذلك بنفسى عندما توجهت إلى سفارة الاتحاد السوفياتى فى بكين للحصول على تأشيرة دخول للاتحاد السوفيتى فى طريق عودتى إلى القاهرة عبر سيبيريا .. فقد جلست بجانب القنصل السوفياتى العام فى العاصمة الصينية نتحدث عن الصين . وقلت للقنصل السوفياتى واسمه على ما أذكر السيد « ايدانوف » عما إذا كان سعيداً بالإقامة فى بكين ، فأجابنى وهو ينفخ دخان سيجارته :

— أنا مسرور لأن أفراد عائلتى وأصدقائى معى ..

قلت :

— وماذا عن الحياة فى بكين ؟

قال :

— لا تتقدم . ! لا تتقدم واستعمل عبارة . No Progress !

قلت :

— أما زال لديكم خبراء يقيمون هنا .. ؟

قال :

— أجل .. ولكنهم لا يتجاوزون ألفين أو ثلاثة آلاف للتجارة والآلات فقط .. فنحن نشترى منهم المواد الخام ونعطيهم الطائرات والآلات .!

قلت له :

— ولماذا تمنعون دخولهم — أعنى الصينيين — إلى مبنى سفارتكم . ! إن مرافقتى السيدة « لى » ومرافقى « يونج » رفضا الدخول معى إلى

هنا بحجة أنكم لا تسمحون للصينيين بدخول هذا المبنى ؟ !

قال القنصل السوفياتى وهو يقهقه :

— بل هم الذين يرفضون دخول سفارتنا بأمر القانون . !

ولم أعرف ، أيهم — حتى الآن — صادقا . .

ولكنى أردت أن أنشر هذه الحادثة لكى أدلل على مدى الحساسية فى العداء بين أكبر عاصمتين شيوعيتين فى العالم . .

ولهذا ، كانت « بكين » حريصة كما يبدو ، على أن تكمل رسالتها تجاه دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، حتى النهاية . ! ولقد شاهدت بنفسى معظم أدوار الفنادق الكبرى فى بكين مليئة بالمئات من أصحاب الوجوه السمر من دول أفريقيا المستقلة ، وبالشباب الشيوعى من دول كمبوديا ولاوس وفيتنام وكوريا وأندونيسيا ، وبالزعماء الشيوعيين من مختلف الدول الآسيوية والأفريقية ، وقد زينوا صدورهم بمختلف الأوسمة والشعارات الشيوعة وراحوا ينفذون البرامج المعدة لهم فى التنقل والدرس والزيارة. لقد أصبحت بكين — كما يبدو واضحا — تعمل جاهدة لزعامة آسيا . لقد كان ستالين ينادى بأن « الوطن الأم هو للشيوعية ـ ويعنى بذلك الاتحاد السوفياتى ـ يجب أولا وقبل كل شيء أن يتطور ويكبر ويصبح أمثولة ناجحة للثورة العالمية » ولكن بكين تقول فى الرد على ذلك » « وما المانع إذا أصبحت الصين — أيضاً — هى المثل الناجح للثورة العالمية » . ؟ !

وهكذا بدأ الخلاف الحقيقى يأخذ لونه « القاتم » منذ أن أحست موسكو بالرسالة الجديدة التى تحملها بكين ، وبالشعارات الجديدة التى ترفعها . . أمام العالم .

وعندما فجرت الصين أول قنبلة ذرية ، بكل فخر وتيه — لم يكن همها — كما أحسست بعد أسبوعين من تفجيرها فى الصين — أن تفاخر بذلك أمريكا

وبريطانيا أو فرنسا ، بقدر ما كان همها أن تفاخر بذلك . . الاتحاد السوفيتى . !

كان لسان حالها يقول : « بالرغم من الاتفاق القائم بيننا وبين موسكو من أجل مدنا بالخبرة الذرية . وبالرغم من أن موسكو قد أخلت بذلك الاتفاق وتخلت عنا نهائياً فى يونيو عام ١٩٥٩ . وبالرغم من أن موسكو قد رضيت — فى « ذلة ومهانة » — أن توقع فى منتصف ١٩٦٣ على اتفاقية منع التجارب الذرية مع الغرب . . مع أعدائنا فى الغرب . . والتى رفضنا — نحن — أن نقرها أو نؤيدها لأننا رأينا فيها عملية « احتكار » للقوة الذرية بين واشنطن وموسكو . . نقول بالرغم من كل ذلك ، فقد استطاعت الصين — بأيد صينية . . بمعرفة صينية . . بأموال صينية . . أن تفجر أول قنبلة ذرية صينية . ! »

لقد شعرت أن الصين بعد تفجير أول قنبلة ذرية — قد وقفت كلها فى شوارع بكين تمد لسانها . . باتجاه الغرب . . الشمالى . . باتجاه موسكو . !

وكانت الصين فى ذلك الشهر ، وقد حققت أعظم انتصارين فى تاريخها الحديث : الانتصار المبدئى والسياسى على خروشوف ، والانتصار العلمى على أسرار الذرة . . قد وقفت وكأنها تستطلع الغيب عما ستكون عليه الخطوة التالية بعد هذين الانتصارين بالنسبة لعلاقاتها مع موسكو . ! كانت وكأنها تتساءل عما سيكون الرجل القوى الجديد فى موسكو بعد اليوم ؟ هل هو « بدغورنى » الخفى أم هو كوسيجين .. المعروف ؟ وهو سيقبل العهد السوفياتى الجديد أن يؤجل المؤتمر الشيوعى الدولى الذى كان قد دعا إليه خروشوف قبل عزله ؟ وهل يكون ثمن التقارب مع موسكو أن تقبل بكين بعض التضحيات أو بعض الشروط ... ؟

هكذا رأيت الصين بعد وصولى إليها . .

ولـكن تلك الأسئلة — كلها — كانت تجول فى خاطرى قبل أن أصل إلى الصين وأنا فى طريقى لمقابلة السيد « أغاشاهى » المدير العام للخارجية الباكستانية والخبير فى الشئون الصينية وشقيق المندوب السامى الباكستانى فى لندن .. عندما هبطت بى الطائرة فى كراتشى ..

قلت للسيد « أغا شاهى » :

— هل قابلت « المارشال شين ى » وزير خارجية الصين عند مروره هذا الأسبوع ببلدكم فى طريقه إلى الجزائر .. !

قال :

— نعم ..وقدحضرت مقابلته معوزير الخارجية لمدةخمس ساعات كاملة.!

قلت :

— وماذا كانت أهم نتيجة لتلك المقابلة . . ؟

قال :

— تضمن البلاغ المشترك عبارة جديدة تقول أن « الصين تؤيدنا فى كشمير بغض النظر عن أية علاقات أو ظروف دولية ، لأن موقفها مبنى على المبدأ » . . وهذا شىء عظيم . .

قلت :

— وما هو أثر إقالة خروشوف ، عندكم . . ؟

قال :

— لقد مر هذا الأسبوع السيد رئيس وزراء رومانيا ، وكان له حديث طويل مع الرئيس أيوب خان حول إقالة خروشوف . . لأن هذا الأمر يهمنا جدا ، بقدر ما يهمنا أن يتفاهم حكام الصين مع حكام موسكو لأن تفاهمهم سيضع حدا للتسليح الروسى للهند ، ويبعد عن الصين خطر العزلة ، وبالتالى

خطر العدوان عليها الذى لو وقع لأدى إلى حرب تشترك فيها الهند ، ونرى أنفسنا طرفا فيها رغم أنفنا !

قلت :

وماذا قال رئيس وزراء رومانيا عن الخلاف الصينى ـ السوفياتى . . ؟

قال :

ـ لقد أعرب الرئيس الرومانى لرئيسنا عن اعتقاده بأن الخلاف القائم ليس صعب المعالجة . . بعد غياب خروشوف . . !

قلت :

ـ وما هو رأى الباكستان الرسمى فى الموضوع . . ؟

قال :

ـ إن الصين تثق بنا . . وسيزور رئيسنا بكين فى مطلع عام ١٩٦٥ . . ومنها سيزور موسكو . . ونحن على استعداد للتوسط . .

قلت :

ـ وهل هناك اعتقاد بأن موسكو ستفرض على الصين بعض التضحيات مقابل أن تتفاهم معها . . ؟

قال :

ـ الصين ـ كما نعرف ـ لن تقبل أن تضحى بشىء .. والخلاف فى نظرهم ليس مسألة أشخاص ، بل مسألة مبدأ ، وسياسة . . ولن يكون هناك أى تغيير مقابل فى القيادة الصينية . .

قلت والحديث يجرنا إلى موضوع الأحلاف :

— لا أفهم أن تكون الباكستان حليفة للصين ، وعضوا فى الأحلاف الغربية ، فى وقت واحد . . ؟

قال :

— إن الصين تؤيد أى مشروع محلى إقليمى لا يعتمد على الغرب .. ونحن ـ مثلها ـ ضد مبدأ استعمال الأسلحة الذرية ، وليس فى عضويتنا للأحلاف ما يمنعنا من الاعتراف بالصين ، ومد خطوطنا الجوية إلى قلب شنغهاى ، وقبول القروض المالية منها ! انظر .. هذا هو رئيس وزراء رومانيا يزورنا ويوقع معنا بلاغا مشتركا بالرغم من عضوية رومانيا لحلف وارسو، وعضويتنا للأحلاف المضادة . وها هى رومانيا تؤيدنا فى موقفنا الحق من كشمير بتأييدها للقرارات الدولية المعروفة حول هذا الموضوع . . وبعد هذا ، فليس فى هذه الأحلاف أى نص يرغمنا على الوقوف بجانب الولايات المتحدة فى أية مشكلة دولية » . .

وأعود إلى قلب بكين وأقول :

— إن أكثر ما شعرت أنه يهدد التفكير الصينى الرسمى ، ويقلق باله ، ويقضى مضجعه ، هو أن يتأثر الجيل الصينى الجديد بالنزعة الشيوعية المنحرفة أو « المعدلة » ويصبح — كخروشوف — ضحية للمؤامرة الكبرى ...!

إن بكين تخشى أن يخطىء الجيل الصينى الصاعد مفاهيم الشيوعية على حقيقتها ولا يؤمن مثلا بأن « الحروب والثورات هى أساس السياسة الدولية » . . وأن أعدى أعداء الشيوعية الماركسية اللينينية هى الإصلاح أو الاعتدال أو الانحراف . !

ومن أجل ذلك ، رأيت وأحسست بأن « الصين الثورة » عازمة على المضى فى حربها ضد مثل هذا الانحراف ، بكل طاقاتها ووسائلها . . وأنها

تؤمن بأن الزمن معها، وأن الأحزاب الشيوعية فى البلاد الأخرى التى استطاع خروشوف — بوسيلة أو بأخرى — أن « يضللها » ، ستنضم فى النهاية إلى معسكرها ضد الانحراف وضد التعديل المبدئى ..

من أجل ذلك ، جندت « الصين الثورة » كل إمكانياتها ، فى المدرسة ، وفى المصنع ، وفى الحزب ، وفى الفن .. وأعدت مئات الروايات ومئات الأناشيد ومئات القصص ضد أى تعديل أو انحراف فى المبادىء اللينية الماركسية المعروفة .. وكلما أخذونى إلى مسرح أو مصنع أو دار عرض ، سمعت ورأيت رواية جديدة تحكى إخطار « اللعب » بالمبادىء الماركسية اللينينية .. الخالدة !

وهكذا أردت أن أحس بأن سقوط خروشوف قد يكون مقدمة لأى تفاهم قريب بين موسكو وبكين .. ولكنى لم أنجح .

هل السر هو فى العداء التقليدى القديم بين البلدين لمدة ثلاثمائة عام أو يزيد ؟

لا . !

هل السر هو فى انعدام الخبرة والمعونة والمال والقروض السوفياتية إلى الصين ؟

لا . !

هل السر هو فى تأييد السوفيات للهند ، أعدى أعداء الصين ، وفى عدم تأييدها للصين ضد أمريكا من أجل استعادة كيموى . . ؟

لا . !

ماذا إذن . . ؟

إن الأسابيع التى قضيتها فى بكين لم تستطع أن تفتح أمامى ثغرة واحدة

أنفذ منها خلال الضباب القائم الذى يفصل ما بين الصين والاتحاد السوفياتى ! وقد سمعت عشرات من المسئولين الصينيين يتغنون أمامى بحبهم للشعب السوفياتى، وبالصداقة التقليدية بين الثورتين الشيوعيتين الكبيرتين .. بل إن وزير الخارجية الصينية قال لوزير خارجية الباكستان إنه كان متأكداً من أن الاتحاد السوفييتى سيهرع إلى مساندة الصين بكل قواته لو أن أزمة «فييتنام» الأخيرة تطورت إلى حرب شاملة ، وعندما سأله الوزير الباكستانى :

— ولكن خروشوف لن يقبل ذلك ؟

أجابه الوزير الصينى :

— لو خروشوف رفض مساعدتنا . . سيسقط . . سينهار . . سيعزل .!

كما سمعتهم — عندما ذهب شوان لاى إلى موسكو للتهنئة بأعياد الثورة منذ شهور ، يبنون آمالا كباراً على هذه الزيارة التى جاءت فى أعقاب سقوط خروشوف . . ولكن كل ذلك لم يستطع أن يشق برقاً واحداً فى الضباب الأسود الذى يلف العلاقات الصينية المشتركة .. !

فقد سألتهم فى بكين بعد عودة شوان لاى :

— هه . . هل عندكم الآن مايطمئنكم على العلاقات مع موسكو ؟

قالوا لى :

— إن موجة « الريفجنزم » Revisionism أو الاعتدال المبدئى فى الاتحاد السوفياتى لم يكن يمثلها خروشوف وحده . إن خروشوف كان واحد من كل . . شعرة من رأس . . وقد سقط خروشوف ، فأصبح علينا أن « ننتظر طويلا » قبل أن تسقط موجة الخروشوفينزم ، أو الريفجنزم كلها . ! إن هذه الموجة « مع الأسف » ، مازالت موجودة وقائمة . . وقد سقط خروشوف نتيجة الصراع بين أفراد هذه الموجة . . ومن طبيعة

الريفجنست « المعتدل » أن ينفى أنه كذلك . . وقد طردوا خروشوف ليكون كبش فداء أمام الناس بالرغم من كونهم ، هم ، مثله .. رغم محاولتهم نفى ذلك.. . !

هذا ماسمعته منهم بالحرف الواحد .. رغم معارضتى له وارتيابى فى صحته .

فقلت لهم متسائلا :

— ولماذا استطاعت الخروشوفية أو الريفجنيه أن تبقى رغم سقوط خروشوف ؟

قالوا بصراحة :

— « لقد ظهرت فى السوفيات طبقة جديدة حاكمة تتناول مرتبات ضخمة ، وتخلق الفساد والرشوة فى البلد . ! وقد جعلت هذه الطبقة راتباً للعامل لا يقل عن خمسين روبل فى الشهر ، وللموظف الكبير راتباً يزيد عن أربعة آلاف روبل فى الشهر..وهذه الطبقة مع عمالها وموظفيها ، قد أفسدت النظرية الشيوعية . . وسمحت بإنشاء مصانع سرية تحت الأرض ، يملكها أفراد قلائل ، وتستأجر عمالا بأجور مرتفعة ، وتنتج مصنوعات ، وتغزو بها الأسواق لحساب أصحابها لا لحساب الدولة . ! »

قلت لهم وأنا أكاد أسخر من مثل هذه التهمة :

— والسلطة ، أين السلطة . . ؟

قالوا :

— إنها تفتح عيناً وتغلق عيناً . . تتظاهر بالسيطرة ولكنها تغض النظر . .

قلت :

— وهل وصل هذا الفساد إلى الزراعة . . ؟

قالوا :

— بالتأكيد . . وهو ذاته سر الأزمة الغذائية التى تجتاح تلك البلاد السوفياتية الآن . . !

قلت :

— وما هو أثر ذلك على علاقتكم بهم . . ؟

قالوا :

— الثورة فى قاموسنا المبدئى والسياسى هى « الثورة التحررية الاجتماعية للعمال » ، « والثورة الوطنية للشعوب » وقد تنكرت موسكو اليوم لهاتين الثورتين فلم يعد ما يربطنا بها . .

وهكذا تركت بكين إلى موسكو ، ومرارة الخلاف ما زالت تملأ قلوب حكام الصين . . وعلى أشدها . . ! !

وعندما وطأت قدمى أرض العاصمة السوفياتية ، كان همى أن أعرف الوجه الآخر فى الحقيقة ، وأثر الأحداث الأخيرة على أى تقارب محتمل مع الصين ، فإذ بى لا أرى من التنبؤات أو التخمينات ما يصل بى إلى أبعد من هذه الخطوط :

أولا — بالرغم من حرص موسكو على معاملة « شوان لاى » طيلة أيام زيارته الأخيرة على أنه « مجرد » رئيس وزراء دولة شيوعية شقيقة ، إلا أنه نجح فى أن يؤجل موعد المؤتمر الشيوعى الدولى من موعده المحدد إلى ربيع ١٩٦٥ . .

ثانيا — تم الإتفاق على وقف الهجمات العلنية بين العاصمتين الشيوعيتين مؤقتاً . . وإلى حين !

ثالثاً — تم الإتفاق على أن يسبق المؤتمر الشيوعى الدولى القادم ، إجتماع ثنائى بين أقطاب الصين والاتحاد السوفييتى ؛ أنا شخصياً أشك فى تحقيق ذلك!

رابعاً — تم الإتفاق على أن يكون الهدف الأكبر للمؤتمر الشيوعى القادم ، ليس « عزل الصين » من المعسكر الشيوعى ـ كما أراد خروشوف ـ بل العمل على توحيد الجبهة الشيوعية . . « إن كان ذلك ممكناً » بس ... ولا شيء آخر .! مجرد تأجيل وتسويف ومماطلة . مجرد كسب وقت!

وبعد . .

مياه كثيرة سيقذفها النهر الأصفر إلى بحر الصين ..

ومياه أكثر سيرميها نهر الفولجا إلى البحر الأسود ..

قبل أن يتلاشى الضباب الكثيف ويصفو الجو العاصف بين بوابة « تين آن من » والكرملين ..

بين موسكو ، وبكين !



الفصل التاسع

نحن وأنتم .. والعدو!

« إن اتجاه بلادنا الثابت الذى لايتغير فى الشئون الدولية هو السعى لأجل القضية النبيلة ، قضية سلم العالم وتقدم الإنسانية . . »

المقدمة :

دستور الجمهورية الشعبية الصينية

« إن للعرب ألفى مليون صديق . . »

إن المستعمر يحفر قبره بيده . . »

إن حليف الشيطان الوحيد ، هو الموت . . »

إن النصر فى طريقه إلى إخواننا العرب .. الأماجد .. »

بكين : ١٩٥٨ « شين شون جو »



الصين ليست خبرا يبحث عنه الصحفى ، إنها السر الذى يفتش عن حله .. العالم !

الصين ليست مجرد بلد يزار .. إنها مدرسة تعلم البشر كيف يعيشون .. الثورات !

الصين ليست مجرد رحلة إلى أقاصى الشرق .. إنها أسلوب حياة عالج الفقر بالإنتاج ، وقهر الجوع بالعمل ، وحارب الطبيعة بالجد ، وانتصر على التخلف بالإيمان !

ولم يكن همى عندما وصلت إلى الصين أن أتعرف فقط إلى الأحوال الشيوعية التى يحياها سبعمائة مليون صينى . كان كل همى - أيضاً - أن أدرس أسلوب حياتهم التقليدى فى آمالهم ، وتصرفاتهم ، وحبهم ، وحربهم ، ويأسهم ، .. وكيف يعبرون عن طموحهم .. وكيف يظهرون ألمهم .. أو حقدهم .. أو كبرياءهم .. وما هى « الحياة اللذيذة » فى قاموسهم .. وما معنى الوفاء فى أخلاقهم . إننى - وقد قلت هذا لنفسى - لو استطعت أن أدرس كل ذلك لاستطعت — قطعا — أن أكتشف كل حدث كبير فى تاريخ الصين الحديث ... !

ولم تكن حاجتى إلى أكثر من أيام قليلة قضيتها تحت سماء الصين .. أواجه خلالها عملية الالتزام ببرنامج مزدحم بكل الأسفار والمقابلات والزيارات، حتى بدأت أمسك الخيط من أوله ...

هذا بلد آسيوى .. يواجه نفس التطور الذى واجهه مثله - من قبله ومعه - أى بلد آسيوى آخر ... تأثر فى اصطدامه بالطابع الغربى بكل

ما احتواه هذا الطابع من علوم حديثة ، واختراعات جديدة ، وتأكيد للوعى الوطنى . ! إنها — وأعنى الصين — فى هذا المعنى ومع بعض الفوارق ، مثلها ، مثل اليابان وبورما وكمبوديا وكوريا وسيام . ولكن إذا كانت اليابان قد استغلت مبادىء القوة الغربية فى خدمة أغراضها العسكرية . . وإذا كانت بورما أو كمبوديا أو كوريا قد استسلمت للغزو الاستعمارى البشرى بكل نتائجه ، إلا أن الصين لم تستسلم للغزو ، ولم تستغل الطاقات الغربية فى خدمة أغراضها العسكرية . . وبقيت لأكثر من قرن كامل أشبه بالسجين فى قفصه ، ليست مستعمرة مستسلمة ، ولا هى دولة عصرية . .

ومن هنا لم تخضع الصين للأحكام والمؤثرات — وبالتالى النتائج — التى خضعت لها بقية دول آسيا ! إنها — وحدها — تمتلك أكبر مساحة من الأرض . . وهى وحدها تمتلك لشعبها الميزات الخاصة به كشعب معين ذاتى سبق له وعاش هذه الميزات بكل قوته لمدة لا تقل عن أربعة آلاف سنة . . . !

ونظرة سريعة على التاريخ الصينى قادرة أن تفسر كل شىء . ! إن المجتمع الصينى — إلى ما قبل هذا القرن هو مجتمع زراعى .. لا تجارى ولا سياسى .. يحكمه ويتصرف به أصحاب الأرض وملاكها ، لا رجال السياسة ولا أصحاب البنوك . . وهو مجتمع يعيش أبناؤه فى الحقل ، وفى بناء السدود ، وفى شق الترع ، وفى مقاومة الفيضانات ، بلا حس معين يشد صاحبه إلى الوطن ، أو ولاء حاد يفرض حق الوطن على المواطن ! أن الفرد يعتمد على عائلته . . ويعيش ضمن حدودها ، لا على ولائه الوطنى ، ولا على الدولة ! أن الأمبراطور هو « الأب » للجميع ، ولكنه ليس زعيمهم وليس ممثلهم . . !

وهكذا كانت الصين عالما لوحدها . . لا مجرد شعب بين الشعوب . ! عالم ، استقبل القرن العشرين ، وهو ضعيف ، مفكك ، محكوم ، فقير ،

كل عاداته ، وكل أفكاره ، وكل مبادئه ، أبعد ما تكون عن عادات وأفكار ومبادىء هذا القرن العشرين . .

وهكذا — أيضاً — وجد الصينيون أنفسهم أمام تحد مصيرى هائل يفرض عليهم إعادة النظر فى تنظيم أنفسهم ، وفى تنظيم مشاعرهم ، وأهوائهم ، ومجتمعهم ، ولغتهم . . وتصرفاتهم . .

ولم يستطع «صن يات صن» — بكل ثورته — أن يغلب ذلك التحدى . .

ولم يستطع « شانج كاى شك » بكل جبروته أن يقهر ذلك التحدى . .

ولم تستطع الدول الاستعمارية للصين ، كاليابان مثلا ، أن تسحق ذلك التحدى . .

بل ولم تستطع الآلاف الملايين من الدولارات التى صبتها الولايات المتحدة الأمريكية فى الصين — وقد دفعت واشنطن أكثر من سبعة آلاف مليون دولار للصين فى الفترة ما بين عام ١٩٤٦ ، عام ١٩٤٩ . . أن تواجه ذلك التحدى . . !

القوة الوحيدة التى استطاعت أن تواجه ذلك التحدى ، وأن تجد له العلاج ، وتقاومه ، وتقضى عليه . . هى — كما رأيتها بنفسى فى الصين — الشيوعية الماركسية اللينينية الممثلة بالحكم القائم حالياً هناك .

هى وحدها استطاعت أن تواجه شعباً — بالملايين — يملأ وجوده كل ذرة رمل فوق أرض الصين . . بكل الآفات الناتجة عن كثافة السكان ، بكل ظلال الفقر والجوع والمرض والقذارة والحقد المنتشرة معه ، ومن حوله . . بكل تاريخه المعروف . . بكل الحروب والمعارك والأزمات التى عاشها والتى أنهكت قواه واستنفدت دمه وحياته . . !

ولا أريد أن أقول أن مثل النظام الشيوعى وحده هو القادر على أن يحمل الحل المطلوب للبلاد الكثيفة السكان ، أو الفقيرة أو الجائعة !

إن كل ما يهمنى أن أؤكده أننى لم أر فى الصين كلها ، شحاذاً واحداً ، أوعاريا واحداً ، أو مريضاً ملقى على رصيف الشارع ، أو قاذورات المنازل مرصوصة أمام الناس فى الميادين . .

لم أسمع فى الصين صيحة عاطل عن العمل ، أو شكوى شاب جامعى لم يأخذ الدرجة التى كان يحلم بها . .

لم ألمس فى الصين أزمة لحوم . ! أجل ، لقد رأيتهم يأكلون خضر « الخسّ » ويسمونه هناك « باى ساى » Bai Sai كوجبة رئيسية ، يقلونها ، ويملؤون بها بطونهم ، ويحملونها فوق ظهورهم ، وتكاد تكون مظهراً دائماً من مظاهر حياتهم .. وهم سعداء بها ، لا يتركونها للشكوى والتعلل ..!

لم أسمع أن فى الصين أزمة دواء . . أو أزمة علاج . إن مستشفيات الصين اليوم ، تقف مع أعظم مستشفيات العالم ، والعلاج فيها مجانى ، مع الدواء ..!

لم أتحسس فى الصين نقمة أو احتجاجا ! إنه شعب عظيم رفع شعار القناعة والطاعة والرضى منذ كونفوشيوس حتى اليوم !

وقد خلت الصين من الأوبئه . . ليس فى الصين كوليرا . . أو جدرى . . أو تيفوئيد . . أو حمى صفراء .

وهذا كل شىء . .

وإلى أن يستطيع أى نظام آخر — غير النظام الشيوعى — أن يجد الحل المطلوب لمشاكل مماثلة لمشاكل الصين ، فى أى بلد كبير ، كالصين — ولا داعى لذكر الأسماء — أقول ، إلى أن يتحقق ذلك ، أجد من حقى أن أقول بأن النظام القائم حالياً فى الصين — رغم كل شىء — استطاع أن يكون الحل الأول والأخير للمشاكل المزمنة الخطيرة التى عانتها الصين ، ومعها ملايين الصينيين مدى آلاف السنين . . رغم كل شىء ، ورغم المآخذ المتعددة للحكم الصينى القائم التى لا أنكرها ولا أتجاهلها . . بل ولا أرضى بها فى نوع الحكم الذى أريده لنفسى أو لبلدى . . !

وقد حاولت خلال إقامتى فى الصين أن أنفذ إلى « المآخذ » التى يتضمنها كل نظام شيوعى ، والتى لا أقرها ولا أرى حرجا فى معارضتها ، وأعنى مثلا : الدين . .

فقد أصبح معروفا أن الشيوعى . . لا يؤمن بالله ، ولا يعترف بوجوده وأن قادة الشيوعية يطالبون الأعضاء بمحاربة الدين . . وأن الدولة الشيوعية تضطهد المواطن المتدين بحجة أنه ضد الدولة . . وأن لينين ردد كثيراً أقوال ماركس من أن الدين هو أفيون الشعوب . . إلخ . . إلخ .

ولهذا ، كان حرصى شديداً وأنا فى الصين أن أسأل عن مصير خمسة عشر مليون مسلم . . فيها . ؟

وقلت لهم :

— أريد أن أذهب إلى « سينكيان » لزيارة إخوتى المسلمين هنا . .

واعتذروا لى بأن الطريق إلى مقاطعة « سينكيان » مسدود — حاليا — بسبب الفيضانات والأحوال الجوية السيئة . .

وصدقتهم . . أو حاولت أن أصدقهم . . ! فليس خوفهم من زيارتى للمسلمين هناك هو سبب عدم تنفيذ رغبتى فى الزيارة . . بل لعل السبب هو أن سينكيانج قد أصبحت — حاليا — مركزاً للنشاط الحربى الذرى . . وأن مدينة « لوبنور » فى مقاطعة سينكيانج بالذات هى المكان الذى تمت فيه عملية إعداد التفجير الأخير . . !

ما علينا . .

فقد تظاهرت بقبول عذرهم وأنا أقول لهم :

— ولكن كيف السبيل إلى مقابلة مجموعة من إخوتى المسلمين الصينيين ؟

قالوا :

— غدا سنذهب معك إلى دار المعهد الإسلامى الصينى حيث ينتظرك هناك رجال الجمعية الإسلامية الصينية فى بكين . .

وهكذا كان . .

واستقبلنا على باب مبنى الجمعية الإسلامية ، رئيسها الحاج « محمد على شانج شيه » ونائب رئيسها « محمد على يحيي ليوبنج ى » ونائب رئيس المعهد الإسلامى الصينى « الحاج يوسف شامونج بى » بالأحضان . . والقبلات . . « والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . » .

وقلت « للحاج محمد شانج شيه » ونحن نجلس فى صالون الجمعية بالطابق الثانى :

— لماذا أنت هنا . . ؟

وسمعت « لى » تترجم له سؤالى ، فقلت له :

— ألا تعرف اللغة العربية يا حاج محمد . . ؟

ولم يرد . .

أو لعله لم يفهم . .

أو لعله لم يشأ أن يفهم . . .

وعندما سمعته يرد على سؤالى باللغة الصينية فتتولى « لى » مهمة ترجمته أدركت أنه حريص على أن يكون الكلام بالصينية خوفا من النتائج . .

أية نتائج ؟ ؟

وقال لى الحاج محمد :

— إن فى بكين — وحدها — مائة وخمسون ألف مسلم . .

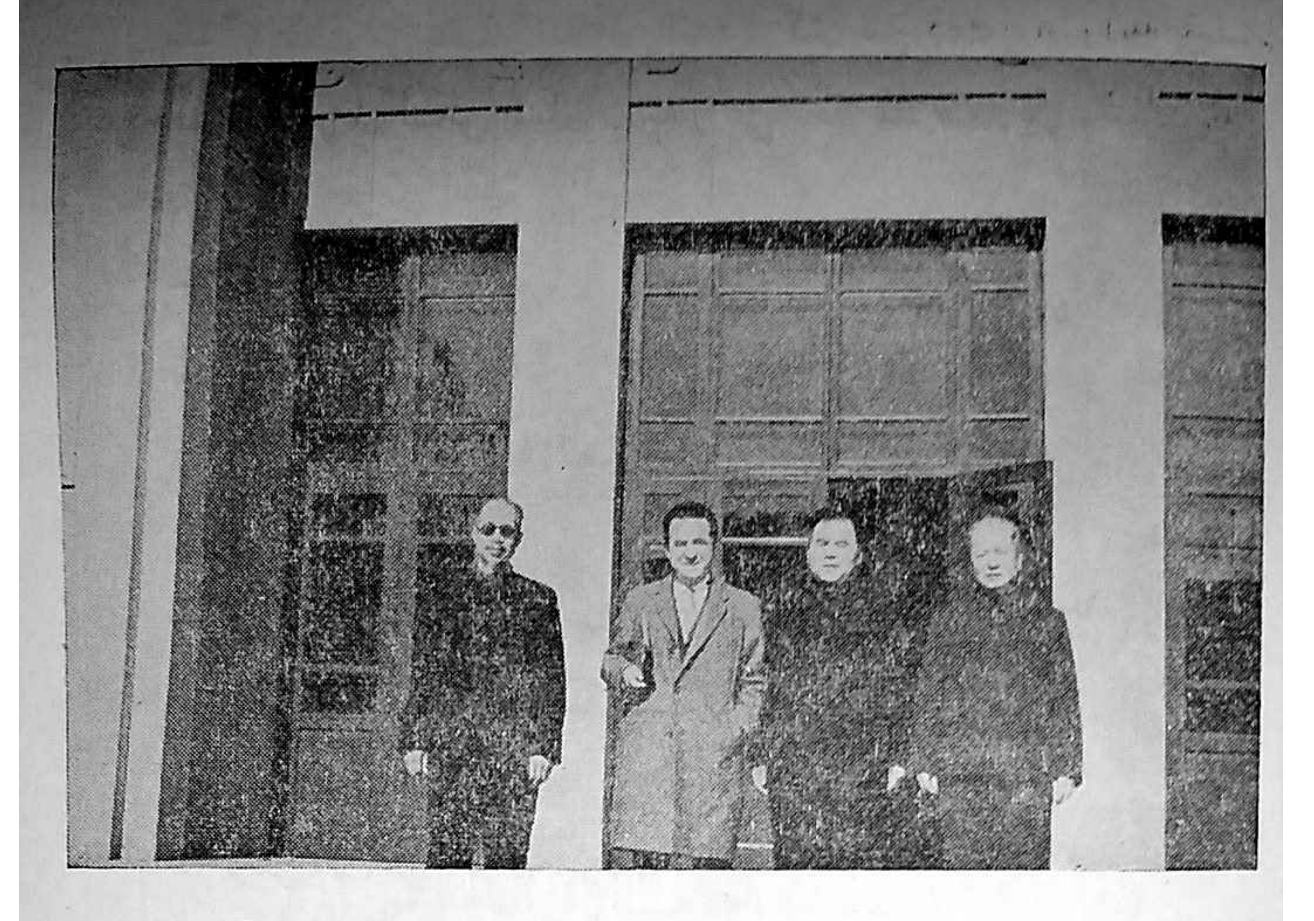
قلت :

— وكم عدد المسلمين فى الصين كلها . ؟

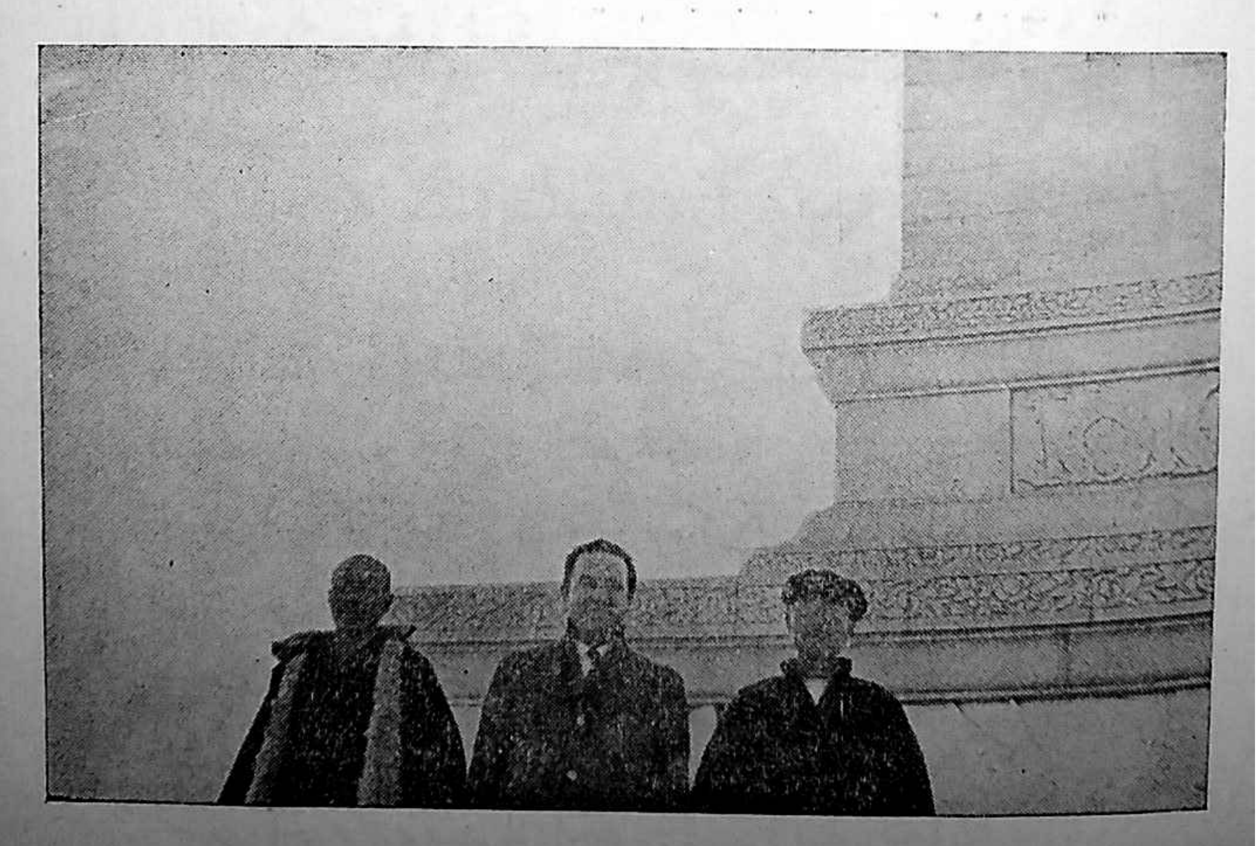
قال :

— عشرة ملايين . !

قلت :



مع زعماء المسلمين فى الصين على باب مبنى دار المعهد الاسلامى الصينى فى بكين



مع زعيمين مسلمين صينيين أمام تمثال الجندى المجهول

— أنا سمعت من مصدر ثقة أن العدد أكثر من ذلك . . وأنه يزيد عن عشرين مليونا ولكن السلطات تصر على جعله عشرة ملايين لأسباب . .

قال :

— لا أدرى . .

قلت :

— وأين يقيم المسلمون فى الصين . . ؟

قال :

— فى الشمال الغربى . . فى منطقتين إحداهما « فيغوا » Vigua والثانية « ننج شا » Ning sha فى مقاطعة سينكيان . !

قلت له :

— وهل أنت على اتصال بهم . . ؟

قال :

— أجل . . إنهم يأتون إلى هنا . . أو أذهب أنا إلى مقابلتهم . . ولكن الطريق إلى هناك صعبة ومخربة . .

قلت :

— ولماذا لا تطير عندما يتعذر عليك ركوب السيارة . . .

قال :

— أنا أفعل ذلك إذا كان هناك ما يستحق أن أطير من أجله . .

قلت له وقد بدأنا ندخل فى التفصيلات :

— هل لديكم من يمثلكم فى مجلس الكونجرس . . ؟

قال :

— هناك نحو خمسين شخصا يمثلوننا ..!

قلت :

— متى آخر مرة ذهبت إلى الحج . . ؟

قال :

— فى إبريل الماضى من هذا العام . .

قلت :

— وكم مرة حججت . .؟

قال :

— ثلاث . .

قلت :

— وكم كان عددكم فى آخر مرة للحج . . ؟

قال :

ثمانية . ؟

قلت : وكم كان عدد الحجاج الصينيين فى العام الماضى . . ؟

قال :

ثمانون . ؟

قلت :

هل يسمحون بالسفر لأى مسلم يريد الحج . . ؟

قال :

— إن ذلك يخضع لأوصاف صحية ومهنية وأخلاقية . .

قلت :

وإذا استوفى الشروط . . ؟

قال :

— يسمحون له . .

ولم أشأ أن أعلق دفعاً للإحراج . فأكملت أسألتى قائلا :

وما هى مهمة الجمعية الإسلامية التى ترأسونها . . ؟

قال :

— تأمين حرية الدين لشعبنا ، وخدمة الإسلام ، والدفاع عن البلد ، والحفاظ على الثورة . .

قلت :

— وهل أصبتم أى نجاح فى مهمتكم . . ؟

قال :

نعم . . !

قلت :

— أعنى بالنسبة لخدمة الإسلام . . !

قال :

— نعم ؟ إن فى بكين وحدها أكثر من سبعين مسجدا . .

قلت :

— هل بنيت هذه المساجد قبل الثورة ، أم بعد الثورة . . ؟

قال :

— معظمها قديم . . قبل الثورة !

قلت :

— وهل أنفق على بنائها الأفراد ، أم الدولة . . ؟

قال :

— جمعيات . . . مختلفة !

قلت :

— ومن يرعى مصالحكم ، كمسلمين . . ؟

قال :

— لجنة الأقليات التى أنا عضو فيها . .

قلت :

— هل تشعرون بالمساواة بينكم وبين بقية الأقليات . . ؟

قال بلهفة زائدة تلفت النظر :

— أجل .. أجل !!

قلت :

— هل لديكم مفتى . . ؟

قال :

— لا . . لدينا « إمام » !

قلت :

— من يشرف على قضاياكم من الناحية الإسلامية . . ؟

قال :

— الإمام . . !

قلت :

— ولماذا لاتنتخبون من بينكم من يحمل لقب « المفتى » . . ؟

قال :

— لأننا ننتمى إلى دولة غير إسلامية . . ولا دينية . !

قلت :

— هل فى انتمائكم إلى دولة غير إسلامية مايؤثر على حريتكم فى ممارسة شعائر دينكم . . ؟

قال :

— نحن نصوم . . ونصلى .. ونحج إلى بيت الله .. ولا يعترض طريقنا أحد.

قلت :

— يقولون إن الدولة لاتشجع ممارسة الشعائر الإسلامية عندكم . .

قال :

— الدولة لادين لها . . ومامنطبق على بقية الأديان ينطبق علينا . . !

قلت :

— هل صحيح أن الدولة تقوم بعملية تبادل السكان لكى لايتجمع المسلمون فى بقعة واحدة . . ؟

قال :

— لم أسمع عن شىء من ذلك . . ؟

قلت :

— هل أنت عضو فى الحزب الشيوعى . . ؟

قال :

— نعم . .

قلت :

— ولكنك تؤمن بالله . .

قال :

— بكل تأكيد . .

وانتهى الحديث . .

ولم يكن من مهمتى أن أفتح قلب الحاج « محمد على شانج شيه » وأتبين فيه حقيقة إيمانه بالله ، أو حقيقة شيوعيته . .

فإذا كان لى أن أحكم على المظاهر فإن ماسمعته من « رئيس » المسلمين فى الصين يؤكد لى أن الدولة هناك قد تركت المسلم وشأنه . . مادام أنه فى ممارسته لإسلامه لا يؤثر على مصالح الدولة ، ولا على الإنتاج ، ولا على قوة الحزب ، ولا على ضراوة المعركة ضد الاستعمار .. ولاعلى الإيمان بزعامة ماوتسى تونج !

ولم يضر المسلم الصينى شيئاً ، إنه عاجز — تماماً — عن أن يصعد إلى المئذنة ويؤذن فى الناس للصلاة . إن الدولة لاتسمح له بذلك ، وهو لايطالب الدولة بأن تسمح له بذلك ، وكفى الله المؤمنين شر القتال . .

. . وشر مخالفة الدولة !

أقول هذا وأنا أتحدث — فقط — عن المسلم فى الصين .

أما المسيحى ، وأما المسيحية ، فلها فى هذا الكتاب حديث آخر . .

فقد انتقلت بعدها إلى البحث عن مأخذ آخر من مآخذ الحكم الشيوعى ، أنفذ منه للدرس والنقد مادمت لا أقر ذلك المأخذ ولا أرى حرجاً فى معارضته .

فقد قيل لى إن الجو العدائى القاتم الملفوف بالشك والحذر هو الذى يسود الحياة فى الصين اليوم . .

جو بوليسى . . مظلم مخيف . . يفرض على الناس رأياً واحداً ، وزياً واحداً ، وحياة — قد تكاد تكون — واحدة . . واحدة !

جو خال من الحب ، من الشوق ، من العاطفة ، من الحرية . !

وبدأت أبحث عن « الحقيقة » شيئاً فشيئاً . .

فقد كان صحيحاً — مثلا — أن رجال السلك الدبلوماسى الأجنبى فى بكين يقيمون فى حى واحد يسمى « وجى تالو » Wge Talo أى « مساكن الأجانب » . . وهو عبارة عن مجموعة من البنايات محاطة بسور عال ، ويقف على البوابة شرطيان يسجلان نمر السيارات الداخلة والخارجة . . وأن موظف السلك الدبلوماسى الأجنبى فى بكين لايسمح له بالتجول خارج المدينة دون إذن خطى . . وأن وزارة الخارجية الصينية وحدها هى المرجع الوحيد الذى يتصل به رجال السلك الدبلوماسى الأجنبى إذا أرادوا الحصول على سفرجى أو مربية أطفال أو نجار لتصليح سرير مكسور !! وأن السفراء الأجانب لايسمح لهم بزيارة أنحاء البلاد إلا خلال رحلتين رسميتين فقط تنظمهما وزارة

الخارجية إلى الأماكن التى تختارها بنفسها ، وتجعل واحدة منها فى الربيع والأخرى فى الخريف وترسل مع الوفد عدداً مماثلا من رجال البوليس والمخابرات الصينية . .

وصحيح ، أيضاً أن جو الحذر والحيطة والجدية يلف دنيا الصين من أولها إلى آخرها ! إننى أذكر أننى كنت فى سيارة واحدة مع المرافقين والمترجمة فى طريقنا من بكين إلى زيارة لسور الصين العظيم . وكانت الساعة تبلغ الثامنة صباحاً ، والمزارع من حولنا على الجانبين والسكوت يخيم على السيارة وعلى الطريق . وفجأة رأيت إلى جانب الطريق حقلا مملوءا بزرع أبيض يشبه القطن . ودفعنى حب الفضول أن أسأل المترجمة عن اسم هذا المحصول الأبيض وهل هو زهرة القطن أم لا . .

قلت لها بهدوء برىء :

— مسز « لى » هل هذا الشىء الأبيض بجانب الطريق ، هو القطن . ؟

ومالت « لى » برأسها على زميلها المرافق وقالت له بالصينية :

— هل هذا الذى بجانبنا . . قطن . . ؟

ومال المرافق على زميله الجالس بجانبه وسأله وكأنه يضع مسئولية الجواب على كتفيه :

— هل هذا قطن . ؟ ! !

وساد السيارة صمت رهيب ، دام طويلا ، طويلا . .

ولم أسمع أحدا ينبس ببنت شفة . .

ولم يرد على سؤالى أحد . .

وإلى الآن لم أعلم عما إذا كان المحصول الأبيض الذى رأيته بجانب الطريق قطناً أم لا . .

كل هذا صحيح . !

وصحيح أيضاً أن الطبيعة الصينية البشرية أصبحت تحرص على أن تسدل ستاراً من السرية التامة حول أمور — تراها هى — خطيرة وسرية ، ولكنها عند العالم ليست سرية ولا خطيرة . .

مثلا : لقد عيل صبرى وتعب لسانى وأنا أسألهم عن موعد الجلسة القادمة لمجلس « الكونجرس » الوطنى الذى يجتمع مرة فى العام . . ولكنى لم أحصل منهم على جواب . . !

مثلا : لقد سألت عشرات من كبار رجال الحزب الشيوعى عن موعد المؤتمر القادم للحزب الشيوعى الصينى . . ولماذا لا يعقد هذا الحزب مؤتمراً عاما لمناقشة المسائل العالمية . ؟ ولكنى لم أحصل منهم على جواب . !

مثلا : لقد انتابتنى آلام حادة فى مكان القلب بعد زيارة طويلة متعبة إلى المصانع والمزارع مما دعانى إلى استشارة الطبيب . وبعد انصراف الطبيب سألت المرافق عن نمرة الغرفة التى ينام فيها فى الفندق للاستعانة به فى حالة اشتداد الآلام على قلبى خلال الليل . ولكن المرافق تظاهر بأنه لا يعرف نمرة غرفته ونصحنى أن أدق الجرس وأطلب الجرسون . . وأسأل الجرسون أن يستدعى المرافق . . لكى يقوم المرافق باستدعاء الطبيب . .

قلت له وأنا أضحك رغم ألمى :

— وإلى أن يتحقق كل ذلك ، أكون أنا قد انتقلت إلى رحمة الله . !

ولكنه لم يضحك . .

أجل . ! هذا كله صحيح . . ومع الأسف الشديد !

وقد يكون صحيحاً أيضا ، ما سمعته من مصادر عربية موثوقة فى العاصمة الصينية ، بأن روح العمل والجد والمثابرة والفناء فى الدولة ، لم يترك عند أحد مجالا للحب أو الشوق ، أو الهيام، أو اللوعة ، أو البكاء ، أو الألم . . ! فقد قيل لى مثلا إن كل ماتفعله المرأة عندما يموت زوجها ، هو أن تتصل

بالدائرة المختصة التى تتولى إرسال سيارة خاصة تنقل الجثة إلى المحرقة أو إلى مثواها الأخير ، ثم ترتدى السيدة الأرملة ثياب المصنع وتتوجه رأساً إلى عملها دون أن يشغلها عن ذلك أى شاغل . . !

بل إن مرافقتى السيدة « لى » قد مضى عليها سبعة شهور طوال لم تر خلالها زوجها الذى يعمل فى شنغهاى بينما تقيم هى فى بكين . . وعندما قيل لى إن هذه السيدة الصبية سترافقنى إلى شنغهاى ، شعرت بالسعادة نيابة عنها ، وقلت فى نفسى إنها مناسبة عظيمة لها لكى ترى فيها زوجها . . ولكن « لى » جاءت معى إلى شنغهاى ، ودارت معى على المصانع والمزارع ، واستمعت معى إلى أحاديث رجال الصحافة والإذاعة والرأى ، ثم عادت معى على نفس الطائرة إلى بكين . . وعندما سألتها فى طريق العودة وهى تجلس بجانبى فى الطائرة ، عن مقابلتها لزوجها ، أجابت بكل هدوء :

— ولكننى لم أره . !

هذا أيضاً صحيح . !

وصحيح أيضاً أن كل شخص صينى ذكر كان أو أنثى مرغم على ألا يرتدى إلا البدلة الزرقاء الخاصة المعروفة باسم «تسونج صان تسوان» أى بدلة «تسونج صان» نسبة إلى الاسم التنكرى للزعيم « صن يات صان » الذى كان أول من ارتداها . . وهى عبارة عن جاكيت أزرق مقفول بالأزرار . . وبنطلون أزرق مثله . . ثم لا شىء . . وهكذا تشعر وكأنك تعيش وسط جيش بالملايين ، يرتدى لباس الميدان . . ويمشى إلى طريق المعركة . !

هذا صحيح . .

والصحيح أيضاً أن الزائر أو الدبلوماسى المقيم أو الضيف ، لايستطيع أن يتصل بأى وزير أو مسئول صينى مهما تكن صفة الضيف ، ومهما تكن صفة المسئول ! لقد حدثنى سفير دولة شرقية فقال : « أثناء زيارة وفد بلادى

إلى بكين — وهو وفد وزارى على مستوى عال — كنت أوجه الدعوات إلى مختلف الوزراء الصينيين لحضور الحفلات التى كنت أقيمها على شرف الوفد. ولكن فى الساعة الأخيرة كان رئيس التشريفات فى وزارة الخارجية يتصل بى لكى يعتذر لى عن عدم تمكين الوزراء الذين دعوتهم عن حضور المأدبة. وعندئذ يسقط فى يدى فأطلب منه أن يتصرف وأن يدعو نيابة عنى من يشاء، وفى الموعد المحدد أفاجأ بحضور وزراء لم أدعهم.. وبغياب الوزراء الذين دعوتهم. !!

هذا صحيح..

والصحيح أيضاً أن كل مصادر الأخبار فى البلد محصورة فى نشرة وكالة أخبار رسمية، وصحيفة صباحية.. وكفى الله المؤمنين «والقراء» القتال!

والصحيح أيضاً أن الصين دولة المناقشات التى لاتنتهى.. ولكنها المناقشات التى تدور فى دائرة واحدة معينة محصورة بالولاء للدولة أولا، وبالتمسك بشعائر الدولة ثانيا، وبمحاربة أعداء الدوله ثالثا، وبالحرص على الإنتاج والخدمة رابعا! إن المناقشات تدور فى كل مكان.. تحت سقف كل مصنع ومدرسة ومؤتمر، ولكنها المناقشات التى تنتهى عادة بتأييد رأى الدولة ومضاعفة قوته وصلابته.. لا العكس!

لقد أردت بهذه الأمثلة أن أصور بعض جوانب الحياة فى الصين.. وهى حياة يراها الصينى المواطن هانئة سعيدة، ويراها الأجنبى صعبة ظالمة، فالمسألة، إذن، مسألة نسبية.. وما يراه الأوروبى شقاء يراه الصينى حلوا كالعسل.. كل هذا لا يهمنا.. إن المهم هو أن نفسر سر هذه الأحوال، لكى لا نظلم الصين، ولا نظلم الحكم الصينى الجديد.

إن الصين منذ إعلان الجمهورية الشيوعية، وهى فى معركة مستمرة لم تنقطع..

فى بدء المرحلة، كانت المعركة على أشدها، من أجل إصلاح الأرض،

وتحطم الإقطاع ، ونقل وسائل الإنتاج إلى الشعب ومقاومة « الملايين » من أتباع شانج كاى شك . . وأصحاب الأرض ، وأصحاب الأملاك ، وكبار الرأسماليين . . والرجعيين . .

وانتقلت المعركة إلى ميدان « التصنيع » ومارافق كل ذلك من صعوبات وأزمات ، وضيق . . وحصار اقتصادى !

وفجأة بدأت حرب كوريا . . وذهب الملايين من الصينيين إلى الميدان للحرب على مبادىء : ما وتسى تونج . .

ثم جاء دور الأقليات . . وفى الصين نحو واحد وخمسين قومية أقلية يزيد عدد سكانها عن أربعين مليون نسمة . . وكل أقلية لها لغتها ، ولها تقاليدها ، ولها عاداتها وسلطانها ! وبدأت المعركة من أجل إخضاع تلك الأقليات إلى الحكم الحالى وهى التى كانت دائما الورقة التى يلعب بها الاستعمار ضد أى حكم سابق فى الصين . وكانت المعركة تحتاج إلى شق الطرق للوصول إلى تلك الأقليات. ثم مقاومة الآفات الطبيعية فى مزارعها والأوبئة والجراثيم بين أفرادها . . والتعرف إلى أحوالها وتحطيم المشاغبين وأعداء العهد من أهلها . . ثم محاولة السيطرة على الموقف لكى لايترك أى مجال لأية قوة شرقية — كالسوفيات . . مثلا — للتسلل إلى تلك الأقليات . . ! وهكذا كانت المعركة فى مقاطعات الأقليات مثل « ثاى » و «شنغ بو» و «هانيس» و « واز » و « يانبين » و « كوانكزى شوانغ » و « يونان » و « شو » و « منغوليا الداخلية » وغيرها . .

ثم جاء الحصار الاقتصادى . .

ثم جاءت الاصطدامات المسلحة ضد فورموزا . . عبر الشواطىء . .

ثم جاء الخلاف مع السوفيات . . مبتدئا على المستوى الحزبى . . ثم على المستوى الحكومى . . وشعرت الصين أن موسكو تنوى أن تضحى بها

إرضاء للغرب . . وأن موسكو تعطى الأسلحة للهند لـكى تحارب بها الصين وأن موسكو لا تريد للصين أن تصبح دولة قوية فسحبت — لذلك — خبراء الذرة منها ومنعت عنها البترول . . وأن موسكو تعاملها كدولة « ذيل » كما تعامل مثلا رومانيـا أو بلغاريا . . وأن موسـكو لا ولن تشارك الصين إيمانها بالدور الملقى على عاتقها فى قيادة دول آسيا وأفريقيا نحو الاشترا كية العالمية . .

ثم جاءت المعركة ضد الطبيعة .. ضد الفيضانات والصواعق . . والأعاصير فى الجنوب . . وضد انحباس المطر والجفاف فى الشمال .

ثم تضاعفت شدة المعركة ضد خروشوف.. وضد من يؤيده من الأحزاب الشيوعية فى أوروبا . .

وهكذا مرت على الصين منذ قيام الدولة الشيوعية ، خمس عشرة سنة ، لم تهدأ خلالها الصين يوما واحدا . .

وتتلفت الصين حولها فتجد نفسها العدو الأكبر ، لأكبر دولة رأسمالية فى العالم . . ونعنى بها أمريكا . . !

وتقرأ الصين صفحات تاريخها مع أمريكا ابتداء من الصورة المخطئة التى كان الأمريكى يرى فيها الصينى وهو يأكل « الجرزان » . . إلى الجلسات المضنية المتـكررة التى عقدها — ومازال يعقدها — سفيرا الصين والولايات المتحدة الأمريكية فى وارسو للوصول إلى تفاهم . . فلا تجد الصين فى كل تلك الصفحات إلا العداء . .

مثلا : عداء فى تفهم الطبيعة الصينية . .

مثلا : عداء فى تفهم العادات الصينية . إنهم — كما يقول الأمريكى عن الصينى — يقرأون لغتهم من اليمين إلى اليسار . . ونساؤهم ترتدى البنطلون .. وآخر طبق فى وجباتهم . .هو الشوربا . . ولون الحداد عندهم هو الأبيض..

والعروس ترتدى الثوب الأحمر . . والاسم الأخير للشخص يأتى فى الأول . . والكرسى على الشمال — لا على اليمين — هو كرسى الشرف . !

وهكذا كله صحيح ، ولكن محاولة تفهمه شيء ، والنظرة العدائية الساخرة إليه ، شيء آخر . .

ثم ، مثلا : عداء أمريكى للمصالح الصينية إرضاء للمصالح البريطانية حتى عام ١٩٢٠ . .

ثم عداء أمريكى للمصالح الاقتصادية الصينية على طول الخط! إن الرقم الأكبر الذى وصلت إليه عملية توظيف الأموال الأمريكية فى الصين — فى كل الصين — عام ١٩٣٠ مثلا كان أقل من ثلاثة أرباع البليون من الدولارات . . وهو نفس الرقم بالنسبة للأموال الأمريكية الموظفة فى اليابان وهى كلها تساوى واحد على خمسة من الأموال البريطانية الموظفة فى الصين فى ذلك الوقت . .

ثم عداء أمريكى فى الاتجاه السياسى نحو الصين حتى عام ١٩٤٤ ، وبالأخص خلال الحرب العالمية الثانية . .

ثم اعتبار الصين — الوطنية — دولة « كبرى » فى مؤتمرى القاهرة وطهران عام ١٩٤٣ وبإصرار من « روزفلت » بالذات . . ثم التنكر لذلك الاعتبار عندما تحولت الصين من « وطنية » إلى دولة شيوعية . .

ثم عداء للشيوعية الصينية ، ومحاوله إقناع « ستالين » فى مؤتمر « يالطا » بتأييد الحكم الوطنى الصينى مقابل احتفاظ روسيا بالقطاع « القيصرية » فى شمالى شرقى آسيا .. مع مساندة واضحة لشيانج كاى شك بعد عام١٩٤٤ !

ثم تأييد الحكم « المنحرف » لعصابة شيانج كاى شك ، فى « تيوان » كما يسميها الصينيون أو « فرموزا » كما يسميها الأمريكيون وحماية ذلك الحكم بالقوة والأساطيل . .

تلك هى — كما قرأوها لى فى مدن الصين وبألسنة كبار المسئولين فيها — صفحات التاريخ الأمريكى بالنسبة للصين . .

عداء ، وحصار ، ومؤتمرات . . ومؤامرات !

وبالتالى ، معركة مستمرة ، وحرب لم تنته . .

وقال لى مدير قسم الأمن فى العاصمة الصينية :

— هل يلومنا أحد إذا حاولنا الحفاظ على أمننا واستقرارنا ونحن فى معركة مستمرة لم تهدأ نيرانها بعد . . ؟

الجواب ليس عندى ، ولا عند الصينيين . . . أنه عند القراء !

ولهذا شعرت بالمرارة التى لاحدود لها عند كل مسئول صينى ضد أمريكا . .

إنهم يسمونها : « العدو الأكبر » . . « الاستعمار الأكبر » . . « الاستغلال الأكبر » . .

وكلما جاء ذكر الاستعمار ، جاءت بعده ومعه ، كلمة أمريكا . .

لقد أحسست أن « أمريكا » هى عقدة العقد فى تفكير الصين السياسى .

وعندما قابلت المتحدث بلسان الخارجية الصينية ، واستمعت إليه لمدة ساعتين وهو يحدثنى عن السياسة الأمريكية ، شعرت وكأنه يقول لى فى كل سطر من سطور حديثه :

— إنها عدوتنا . . وعدوتكم أيضاً . . !

ولقد سألت المتحدث الرسمى باسم خارجية الصين :

— ماهو موقفكم لو تخلت أمريكا عن « تيوان » وتركت مصيرها بيد الصينيين ؟

قال :

— يجب أن يتبع ذلك اعتراف أمريكا بنا . .

قلت :

— ولماذا لاتحاولون الوصول إلى إتفاق حول ذلك بالطرق الدبلوماسية؟

قال :

— أجرينا أكثر من مائة وثلاثين اجتماعا بين سفيرنا والسفير الأمريكى فى جنيف أولا ، ثم فى وارسو ولمدة تسع سنوات . . ولكننا لم نصل إلى نتيجة . .

قلت :

— وماذا تطلبون أنتم . . ؟

قال :

— نطالب بأن يحترم الأمريكيون المبادىء الخمسة للتعايش السلمى . . وأن تنسحب أمريكا من تيوان . .

قلت له :

— ولكن أمريكا — هى التى تتهمكم — بالتدخل المسلح فى كمبوديا وفييتنام وكوريا والهند . . !

قال :

— الحقائق تقول أن أمريكا قد تدخلت فى شئون فيتنام وأنها أنزلت قواتها فى لاوس وكذلك فى كمبوديا كما أعلن ذلك الأمير سوهانوك ، واحتلت أمريكا كوريا الجنوبية ، بالقوة ، وشنت الحرب علينا عام ١٩٥٠ وضربت بالقنابل حدودنا مع كوريا عند « النهر الأصفر » مما شكل تهديدا خطيرا على سلامة الصين ودفعنا إلى إرسال متطوعين إلى كوريا . .

قلت :

— كم كان عدد « المتطوعين الصينيين » الذين ذهبوا إلى كوريا . . ؟

قال :

— الرقم سرى . . ولكنه كبير . . بمئات الآلاف . . وقادر على سحق العدوان الأمريكى . .

قلت :

— وكل هذا لمحاربة أمريكا . . ؟!

قال :

— بل لمحاربة العدوان الأمريكى . ! لقد أقامت أمريكا « هلالا » عسكريا عدوانيا يمتد من اليابان إلى الهند وغرضه شيئان : أولا السيطرة على البلاد التى تقع ضمن نقطتى « الهلال » عن طريق عملائها هناك . . وثانياً تهديد الصين من خلال تلك القواعد العسكرية العدوانية ! إن أمريكا تنتظر الفرصة المناسبة لشن الحرب على الصين واستخدام تلك القواعد كنقطة انطلاق ضدنا . هل تستطيع أن تفسر لى الغرض من إرسال غواصات ذرية أمريكية إلى اليابان فى الوقت الحاضر . . ؟!

قلت له :

— وماهو مدى التعاون بين الحزب الشيوعى الصينى والأحزاب الشيوعية الأخرى المحيطة بكم . . ؟

قال :

— ماذا تعنى . . ؟

قلت :

— أعتقد أن سؤالى واضحاً . .

قال :

— إذا كنت تعنى التعاون فى « مقاومة الاستعمار الأمريكى » فنحن نؤيد تلك الأحزاب ونساعدها مالياً ومعنوياً ، ولايخفى ذلك على أحد . .

قلت :

— وهل هناك مساعدة عسكرية . . أيضاً . . ؟

قال :

— فى الميدان العسكرى نتبادل البعثات العسكرية . .

قلت :

— وهل تحصرون مساعداتكم فى الدول الاشتراكية وحدها . . ؟

قال :

— كمبوديا ليست دولة اشتراكية ، ولكن الأمير سوهانوك قال إنه يعتمد علينا فى مساعدته ضد أمريكا . . وقد لبينا رغبته لكى نمكن كمبوديا من المضى فى سياستها التحررية .. كما أننا نساعد ماليا ، وفى المستقبل، كل دولة أسيوية أو أفريقية تريد مقاومة الاستعمار الأمريكى . !

قلت :

— معنى ذلك أن تشتعل الأزمات والمعارك فى كثير من البلاد ، وقد تؤدى إحداها إلى حرب عالمية ثالثة . .

قال :

— إن سياستنا هى سياسة السلام منذ اليوم الأول لتأسيس هذه الجمهورية الاشتراكية . . ولا نريد الحرب . . لأن شعوب العالم تكره الحرب ، ولأننا نفضل أن ننصرف عن الحروب لكى نبنى بلادنا التى تركها الرجعيون والإقطاعيون متأخرة وفقيرة . . ولكن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت أن تخلق حولنا اشاعة ظالمة وأن تنشر هذه الإشاعة فى أرجاء العالم وهى أن الصين دولة فقيرة ، وأنها — لذلك — تريد التوسع ، وأننا لا نملك من محصول القمح مايكفينا ، فأصبح علينا النظر إلى ماحولنا..إلخ. وهذا كله غير صحيح . . إننا نملك عشرة ملايين كيلو متر مربع من الأرض

الزراعية ، ولا نحتاج إلى مساعدة أحد . . وأحوالنا بخير . . وحياة الشعب الصينى ارتفعت خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة إلى المستوى المطلوب . وقد يكون صحيحاً أننا مررنا بصعوبات وأزمات — كثيرة — ولكننا تغلبنا عليها . . وليس فى سياستنا أو مخططنا أن نتوسع على حساب أى بلد آخر . . لقد أردنا أن نثبت حبنا للسلام فسلكنا عدة طرق تؤدى — كلها — لخير السلام . . فعقدنا المبادىء الخمسة للتعايش السلمى مع الهند وبورما عام ١٩٥٤ واشتركنا — بكل طاقاتنا — فى مؤتمر باندونج واتفقنا على تسوية الحدود مع دول الأفغان ، والباكستان ومنغوليا ، ونيبال ، وبورما . . باستثناء الهند ، ولكن المسئولية فى الخلاف مع الهند تقع على عاتق الهند لا علينا . . كما أننا عقدنا اتفاقيات سلام وتفاهم وصداقة مع دول كمبوديا ، وبورما ، وأفغان ، واليمن ، وإندونيسيا ، وعدد من الدول الأفريقية ، وفى ديسمبر قام شوان لاى بزيارة الكثير من الدول الأفريقية ودول الشرق الأوسط وأعلن فيها مبادىء السلام كما نريدها ونفهمها ونتمسك بها . .

قلت مقاطعاً :

— ولكن أسألك ماذا يكون الموقف لو أن أمريكا تمسكت بسياستها التى لا ترضى الصين ، بينما تمسكت الصين بسياستها التى لا ترضى أمريكا . . ألا يعنى ذلك احتمال قيام حرب ذرية ؟

قال فى اندفاع وحماس :

— إن الموقف الدولى يخضع لإرادة الشعوب . . والشعوب تريد السلام فى معظم دول العالم . . حتى فى الدول الرأسمالية حيث نرى أن زعماء الرأسمالية قد اختلفوا على هذه السياسة كما اختلف ديجول مع واشنطن . إننى أرى أن سياسة « حب السلام » قد اتسعت وأن خطر الحرب لم يعد قائماً كما كان من قبل وأن أمانى الشعوب فى السلام تتحقق شيئاً فشيئاً . ولكنى أبادر

وأقول لك أن ليس معنى هذا أن التوتر الدولى قد زال نهائياً . لا . . إننى أسألك ماهو مصدر هذا التوتر . . ؟ أليست هى الولايات المتحدة الأمريكية وسياستها . . ؟ أليست هى أمريكا التى تتدخل فى شئون دول العالم ؟ إن المناطق التى يسود فيها التوتر — فى نظرى — أربعة :

١ — الهند الصينية . .

٢ — كوبا . .

٣ — فلسطين والجنوب العربى . .

٤ — الكونغو . .

ترى ، من الذى خلق التوتر فى هذه المناطق الأربعة ، نحن أم أمريكا ، ؟ إن أمريكا تهدف من وراء احتلال الكونغو إلى أن تشن حرباً ضد شعب الكونغو وضد الشعوب المحيطة بالكونغو أيضا . . »

وحاول الناطق بلسان الخارجية الصينية أن يسترد أنفاسه قبل أن يقول لى.

— لاتستطيع أمريكا أن تزعم بأن الصين قد بنت لها قاعدة عسكرية صينية واحدة فى أية منطقة من تلك المناطق الأربع المذكورة . ! إننا نريد التعايش السلمى ، بشرط أن يضمن لنا ذلك التعايش شرطا واحدا هو أن « نعيش » قبل أن « نعايش »... أما إذا تركنا لأمريكا حرية التصرف كما تشاء ،وتساهلنا معها بشأن اعتداءاتها المتكررة ، فإن معنى ذلك أننا قد اعترفنا لها بحرية احتلال الدول الأخرى . . كاحتلال « تيوان » مثلا ، وهذا ما لا نقبله . . !

قلت :

— وهل تكون الخطوة التالية هى الحرب . . مثلا . . ؟

قال :

— لا . ! إننا لن نشن حرباً ضد أمريكا إلا إذا كانت هى التى بدأت بالعدوان على أرضنا . .

قلت :

— وهل تـكون القنبلة الذرية السلاح المنتظر لتلك الحرب القادمة . . لو جاءت . . ؟

قال :

— إننا نملك — اليوم — القنبلة الذرية ، ولـكنها أقل فعالية وفنا من القنبلة الأمريكية . إن أمريكا قد أجرت وفجرت ثلاثمائة تجربة ذرية حتى اليوم . . ولـكننا لن نـكون أول الدول فى استعمال السلاح الذرى . .

قلت :

— لقد سمعتك تتحدث عن الـكونغو . . فهل أستطيع أن أسألك عما إذا كان تأييدكم للـكونغو معناه محاربة أمريكا فى الـكونغو . . ؟

قال :

— أمريكا هى التى خلقت تشومبى لـكى تجعل من « ليوبولدفيل » قاعدة لها فى أفريقيا ! إننا مع شعب الـكونغو ضد تدخل أمريكا . . ولـكن ليس لدينا اتصال مباشر مع الثوار فى الـكونغو . . أعنى ليس لدينا سفارة أو موظفين . .

قلت :

— وهل ترسلون إليهم السلاح . . لو طلبوه . . ؟

قال يسألنى . . وهو يضحك :

— وهل طلبوه . . ؟

قلت ضاحكا رغم أننى :

— على ما أعلم . . أجل طلبوه . .

قال :

— إذن سنرسله . . بالرغم من بعد المسافة وتعذر وسائل النقل . !

قلت :

— وهل كان حرمانكم من عضوية الأمم المتحدة سببا فى حرمانكم من مساعدة دول أخرى « غير الكونغو » فى المجال الدولى . . ؟

قال :

— من تعنى . . ؟

قلت :

— فلسطين . . ؟

قال بالحرف الواحد ، وها أنا أسوقها إلى أهلى من العرب :

— نحن مستعدون أن نساعد شعب فلسطين لو رأينا أن شعب فلسطين قد بدأ يساعد نفسه . . قل لى . . ما هى أخبار « الكيان الفلسطينى » ؟ وهل هو كيان جدى . . ؟ أعنى هل هو قادر على العمل الجدى من أجل استعادة فلسطين . . ؟ إن الأخبار التى لدينا عن منظمة التحرير أو جيش فلسطين قليلة جدا ، ولكن موقفنا لا يحتاج إلى تفسير . . أليس كذلك..؟

قلت :

— أجل . . مع شكرنا وتقديرنا . . . !

قال :

— هل أكشف لك سرا لم يعرفه إلا القليلون .. أن إسرائيل قد حاولت الإتصال بنا بواسطة سفيرها فى « وارسو » وأعلنت أنها مستعدة أن تعترف بنا ، وتسحب كل صلة لها بحكومة شانج كاى شك ، إذا كنا مستعدون أن نبادلها الاعتراف وأن ندخل معها فى مفاوضات تجارية . ولكننا رفضنا

« حتى » مجرد الرد عليها . ألم تلاحظ أن رسائل الرئيس شوان لاى إلى دول العالم بعد تفجيرنا القنبلة الذرية قد ذهبت إلى جميع رؤساء دول العالم باستثناء.. إسرائيل ! ؟ إن موقفنا واضح صريح لا نسئل فيه عما إذا كنا سنعترف أم لا نعترف بإسرائيل . . بل عما إذا كانت إسرائيل ستبقى أم لا تبقى . . لأننا لا نريد لها البقاء ، ولن ندخر جهداً فى القضاء عليها . . » !

وسكت رجل الخارجية الصينية لكى يتركنى فريسة صراع بينى وبين نفسى ، وأنا أسأل فى ذهول :

— ماذا وراء كل هذا الكلام ؟ وماذا يريد رجل الخارجية الصينية أن يقول لى . . بالضبط ؟

— ولم تطل حيرتى عندما وجدت نفسى أحس الجواب على هذا السؤال دون قدرة على النطق به . ! لقد أحسست أن كل مسئول صينى أراد أن يقول لى — عن طريق الأمثلة والأدلة والشواهد — إننا « نحن العرب » ، معهم وفى صفهم فى معركة .. وأنهم — أى «شعب الصين» - معنا وفى صفنا فى معركة . . وأن عدونا هو عدوهم . . وأن انتصارهم على هذا العدو هو انتصارنا نحن عليه ! ذلك ما أحسست به فى الصين ، وذلك — بالضبط — ما أحس به كل سفير عربى فى بكين تسنى له أن يجتمع بماوتسى تونج أو شوان لاى . بل ذلك — بالضبط — ما سمعه السفير العربى فى موسكو السيد « مراد غالب » من شوان لاى خلال آخر زيارة قام الرئيس الصينى إلى موسكو فى دار السفارة العربية فى العاصمة السوفياتية . . .

وكذلك خلال الحديث الطويل الذى دار بين المشير عبد الحكيم عامر نائب رئيس الجمهورية ورئيس وزراء الصين . .

هم ، ومعركتهم ضد العدو الذى لم يعترف بهم ، ومضى يحاربهم فى فورموزا ، وكوريا ، وفييتنام ، ونحن ومعركتنا ضد نفس العدو الذى

اعترف بأعدائنا ومضى يحاربنا فى اليمن ، وفى فلسطين ، وفى المنطقة العربية بأسرها . ! هكذا كان المنطق الصينى فى حديثهم معى .. منطق من يقول لى :

— « نحن حلفاء . . وأصدقاء . . وإخوة . . رغم البعد ورغم اختلاف الأنظمة . . لأننا نحارب ، ولأننا فى معركة ، ولأن عدونا واحد . . وبالتالى لأن مصير المعركة ، واحد . . » !

بل لقد تذكرت هذا المنطق وأنا أستمع إلى صديقى السفير الباكستانى فى بكين وهو يروى لى تفاصيل آخر مقابلة أجراها مع « نبى » الصين ماوتسى تونج منذ أسابيع عندما ذهب برفقة الوفد الباكستانى الرسمى لزيارة الرئيس الصينى . لقد قال ماوتسى تونج للسفير الباكستانى وهو يبدأ معه الحديث :

— ترى لماذا نحن أصدقاء رغم أنكم مسلمون ونحن لا نؤمن بالدين .. ؟

فحاول السفير الباكستانى أن يرد بمختلف الأجوبة لولا أن قطع عليه ماوتسى تونج كلامه قائلا :

— إننا أصدقاء لأننا لا نطمع بكم . . ولأنكم لا تطمعون بنا . . أنتم ونحن لا نفكر بعقلية الاستعمار . إن الهند — مثلا — تؤمن بالأديان ولكنها تؤمن كذلك فى العدوان ، ومثلها أمريكا . ! »

هكذا تفكر الصين الرسمية . . على أعلى المستويات . .

لقد قالوا لى بلسان واحد لم يتغير ولم يتبدل منذ أن دخلت إلى « كانتون » حتى غادرت بكين !

— لن نتنازل عن شىء من مبادئنا وتفكيرنا . نحن دولة ماركسية لينينية نؤمن بالتطور لألف سنة قادمة ، لا بالتكرار ولا بالحنين إلى ماضى

تعيس .! ليس فى أسرتنا طغيان الأسرة الحاكمة بل « رعاية » الحزب الحاكم . . وتعاليم كونفوشيوس — على عظمتها — قد تخلت عن مكانها لتعاليم لينين . . وحياتنا نقاش مستمر . . ومجتمعنا واحد بلا طبقات . . والجندى له عندنا مكان التقدير . . وأبطال الإنتاج هم القدوة الصالحة للنشىء . . الجديد !

ثم يسكتون قليلا ويقولون :

— ونحن أصدقاء آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . . نريد لشعوبها أن تتضامن لأن تضامن تلك الشعوب هو — فقط — السلاح ضد الاستعمار ..!

وعندما كنت أحاول أن أنفذ أمامهم إلى أى مأخذ جديد من مآخذ الحياة العامة فى الصين كانوا يردون على الفور :

— إن عظمة إنتاجنا فى الميدان المادى لا يضاهيها إلا عظمة إنتاجنا المعنوى ! لولا وحدة الفكر الصينى ، لما قامت المصانع الصينية !

قلت لهم :

— إن العالم يخاف من إنتاجكم المعنوى هذا . !

قالوا :

— العالم يخاف كل بلد موحد . . قوى . . مستقر . . منتج !

قلت :

— والعالم يقول إنكم تحاولون اللعب فى السياسة الدولية على نفس منوال أجدادكم . .

قالوا :

— ماذا تعنى ؟

قلت :

— هناك مثل قديم عندكم يقول : « استعمل البرابرة فى محاربة البرابرة » .. كانت أسرة « هان » من حكامكم الأقدمين تستعين بشعب « نيوهه » لمحاربة « سيونج » ! وبعدها لجأ حكام « المينج » منكم إلى المنغوليين الغربيين لمحاربة المنغوليين الشرقيين ، ثم استعملوا الشرقيين لمحاربة الغربيين ! واليوم ها أنتم تحاولون ضرب أمريكا ببريطانيا ، وضرب إنجلترا بالسوفيات، وضرب الأمم المتحدة وأمريكا ضد اليابان ! تماماً كما كان الشيوعيون من صفوفكم بعد الحرب الثانية يعتمدون على السوفييت ، بينما كانت شانج كاى شك — وهو منكم وفيكم — يعتمد على أمريكا .. !

قالوا :

— أليست هذه مهارة .. ؟

قلت :

— ولكنها لا تفوز بالثقة ولا بالاطمئنان .. !

قالوا :

— إن سياستنا تجاه الاستعمار لا تحتاج إلى ثقة أحد ، ولا اطمئنان أحد ! إن نجاح الحكم الشيوعى فى الصين ، كان فى قاموس السياسة الأمريكية بمثابة « المصيبة الوطنية الكبرى » ! كيف — إذن — نحاول أن تكسب ثقة طرف يرى فى نجاحنا خسرانا له .. ؟ كيف — إذن — تحاول أن تطمئن إلى دولة ترى أن الشر الكامن فى حكمك هو الذى سيقضى على ذلك الحكم ؟ كيف — إذن — نسالم دولة تريد أن تمزق أرض الصين وتجعل من جزيرة واحدة ، — كيوان — بعشرة ملايين صينى ، مساوية فى القيمة والوزن والإسم لأرض الصين كلها ، بالسبعمائة مليون ! ؟

ولـكن أمريكا — ليست هى وحـدها ، دولة « الاستعمار » فى نظر حـكام الصين . .

هناك أيضا . . الهند !

وكنت حريصا خلال مقابلاتى الرسمية أن أسأل عن موقف الصين — الهندى ، وعن شروط الصين لإيجاد حل لهذا الخلاف . .

ومن أ كثر من مسئول صينى جاء فى الجواب التالى :

— إن هناك شرطان أساسيان فقط لتسوية خلافنا مع الهند ، والشرط الأول هو أن نعامل بعضنا البعض على أساس المساواة لا أن يحاول أحدنا أن يترفع على الآخر وأن يعطيه الأوامر . . والشرط الثانى أن نسوى هذه الخلافات بواسطة « المباحثات » على مائدة واحدة مع افتراض وجود النية المخلصة للتسوية .

ثم استطردوا :

— لقد زار شوان لاى ، دولة الهند خمس مرات من أجل هذا الموضوع . ولـكن الهند لا تريد أن تجد حلا لهذا الموضوع . أن رأيها محصور فى أن نقبل شروطها . . وأن نسلم باحتلالها لأ كثر من تسعين ألف كيلو متر مربع على الحدود الشرقية . . وأن ننسحب نحن من مساحة قدرها ثلاثين ألف كيلو متر مربع على الحدود الغربية ، فهل هذا معقول ؟

قلت :

ولـكنى أحسست على ضوء أحاديثى مع زعمائـكم أنكم مستعدون للتراجع إلى ما وراء خط « ما كماهون » بشرط احتفاظـكم بمواقعكم فى الحدود الغربية . .

قالوا :

— نحن على استعداد للتنازل من أجل التفاهم ، ولـكن الهند لا تريد أن نتفاهم . ! !

وبعد . . هل بقى شىء . ؟ !

أجل . .

بقيت كلمة واحدة خرجت بها ، وأنا أخرج من الصين :

— لا مكان فى الشرق الأقصى لدولتين . . كبيرتين . . متصارعتين !

إما الصين . . وإما أمريكا !

سجلوها لى ، وعلى لسانى . . .



الفصل العاشر

من يحكم الصين ؟

« إن المجلس الوطنى لنواب الشعب هو الهيئة العليا لسلطة الدولة .. »

المادة ٢١ — الدستور الصينى

« الهيئة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب هى هيئة دائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب .. »

المادة ٣٠ — الدستور الصينى

« .. من تاريخ الصين ، ينبثق أسلوب الحكم الصينى الحديث ، إن أسلوب حكمنا هو أسلوب حديث من معانى الديمقراطية فى الدولة والحكومة .. مع إتحاد عدة طبقات ديمقراطية .. »

«ماوتسى تونج»



ما أغرب هؤلاء الصينيون ..
هم يهتمون أكثر الاهتمام بأى
رأى يبديه الزائر فى نواحى حياتهم ..
ولكنهم — مع ذلك — لا يسعون
لهذا الرأى — ولا يبدلون حياتهم من أجله ولا يتركون له أثراً فى حماستهم واندفاعهم .. بل هم لا يكترثون إذا كان ذلك الرأى مخيبا لأملهم أو عدائيا لمبادئهم ... !

وهم يعلمون — بالضبط — المآخذ التى يهاجمهم منها ، ومن خلالها ، أعداؤهم فى الداخل وفى الخارج فيعملون على ملافاتها والرد عليها بأسلوبهم ووسيلتهم الخاصة ..

مثلا : هم أحرص الناس على الظهور بمظهر الدولة المسالمة .. التى تعمل للسلم وتؤمن به .. وترعى حقوق الناس .. وتحرص على كيانات الدول الصغيرة .. ولا تطمع فى مال أحد ، وتساعد من يلجأ إليها ، كل ذلك ، لا لأن الصين الشعبية تؤمن بمثل هذه المبادىء فحسب ، بل لأنها لا تريد أن يصدق الرأى العام العالمى الآراء التى يشنها أعداء الصين بأنها دولة كبرى متضخمة السكان ، كثيفة المشكلات ، عدوانية الطبع ، بوليسية السياسة ، لا تملك فى داخلها من أسباب العيش ما يمنعها من النظر إلى ماحولها والسعى لامتلاكه والسيطرة عليه !

مثل آخر ..

هم أحرص الناس على الظهور بمظهر الدولة الديمقراطية .. الدولة التى تكفل للمواطن الحرية والعدالة والأمن والاستقرار . ! الدولة التى لا تظلم

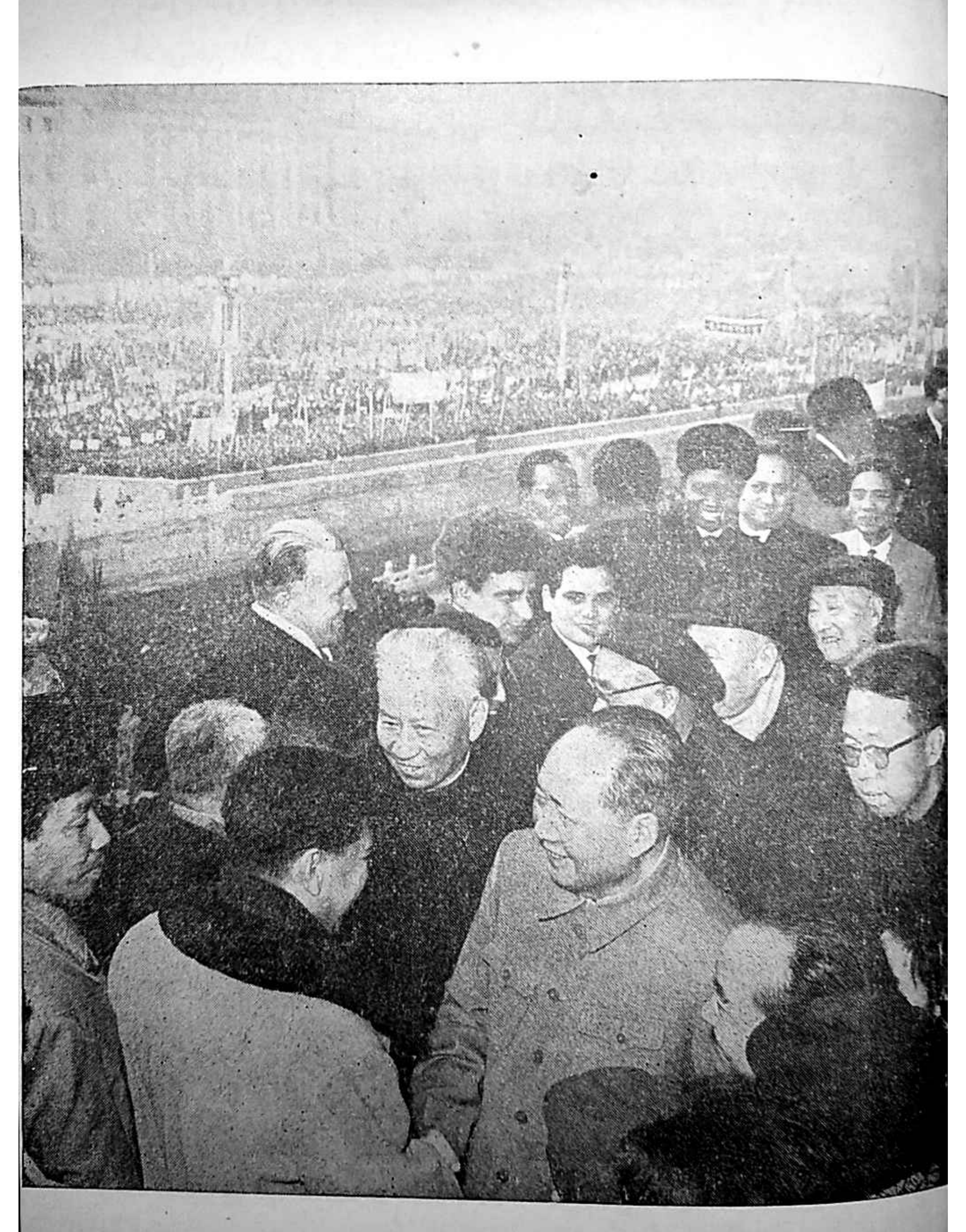
ولا تأكل حقاً . . الدولة التى تخدم آراء المواطنين . . الدولة التى تفتح المجال أمام كل مواطن لكى يقول رأيه بأمانة وصراحة مطلقتين . .

وهكذا شعرت وأنا أحدثهم عن نظام الحكم فى الصين أنهم أحرص منى على التحدث معى فى هذا الموضوع وعلى إبراز عدة نقاط مهمة مركزة . .

أولا : سمعتهم يكررون — عن ظهر قلب — المادة الأولى من دستورهم والتى تنص على أن الجمهورية الشعبية الصينية هى دولة « ديمقراطية » شعبية تقودها الطبقة العاملة وتقوم على أساس التحالف بين العمال والفلاحين » .

ثانياً : هم يرددون على الفور الرأى القائل بأن نظامهم فى الحكم يختلف عن النظام السوفياتى بالرغم من التساوى فى المعنى الشيوعى . لقد قال لهم ماوتسى تونج « يقول ماركس إن الديمقراطية هى الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الاشتراكية ولكن الصراع من أجل الديمقراطية فى الصين يحتاج إلى وقت طويل يفرض علينا أن نقوم بثورة ديمقراطية بورجوازية من طراز جديد يقودنا فيها الحزب الشيوعى للوصول إلى الديمقراطية . . وقد يظن البعض أن انتصار الشيوعية فى الصين معناه أن تقوم ديكتاتورية بروليتارية بأسلوب الحزب الواحد . إن جوابنا على ذلك أن قيام دولة جديدة تعتمد على اتحاد عدة طبقات ديمقراطية ، لأمر يختلف فى الأساس عن معنى الدولة التى تستند إلى ديكتاتورية البروليتاريا . ولهذا ليس عندنا دكتاتورية الطبقة ولا احتكار الحكومة . . وإذا شاءت أية منظمة أو فئة اجتماعية أو شخص خارج الحزب الشيوعى أن يتعارض معنا فنحن مستعدون . . إن التاريخ الروسى هو وحده المسئول عن وجود النظام السوفياتى الحالى . . وتاريخنا وحده هو الذى يرسم نظام الصين الحاضر والمستقبل » . .

ثالثاً : هم يشعرون بالسعادة المطلقة عندما يتحدثون عما يسمى « بالمجلس الوطنى لنواب الشعب » إذ يرونه أروع مثل للمعنى الديمقراطى الصحيح . !



الزعيم الأكبر . . ووراءه الزعماء . . « وتلامذة » الثورة الحمراء فى كافة انحاء العالم ! وأمامهم الملايين . . !

إن كل ما عندهم ، « وما ليس عندهم » من معنى الحكم الديمقراطى ، يتجلى بصورة واضحة جلية عندما سمعتهم — عشرات المرات — يتحدثون أمامى عن المجلس الوطنى لنواب الشعب . .

لقد كان مبنى المجلس الوطنى — لنواب الشعب — هو أول منطقة حرص المسئولون فى بكين على زيارتى لها ، وتفقد معالمها ، وإقناعى بأن فى الصين دولة « ديمقراطية » تستحق أن يكون لها مثل هذا المبنى الفخم الذى اشترك « ماوتسى تونج » نفسه فى بنائه ، كما اشترك فى البناء جميع سفراء الدول فى بكين ، وفى مقدمتهم السفراء العرب . .

ما علينا . .

فقد وجدت نفسى فى الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم ، فى المكتب الرئيسى لمبنى المجلس الوطنى لنواب الشعب مع سكرتير اللجنة الدائمة للمجلس ، أستمع إليه وهو يقول لى :

— أن لدينا مجالس وطنية محلية شعبية على المستوى المركزى والقاعدى ، ولكن النظام الذى تسير عليه بلادنا هو نظام المجلس الوطنى لنواب الشعب .. ويليه المجلس المحلى للمقاطعة ، والمجلس المحلى للمنطقة ، ذات الحكم الذاتى والمجالس المحلية التابعة للمراكز الإدارية ، ثم المجالس المحلية للأقضية ، ثم مجلس القرية . . وهكذا ترى أن النظام السياسى للصين الحديثة إنما هو نظام مؤتمرات الشعب . .

قلت له :

— ومتى كانت أول جلسة كاملة للمجلس الوطنى . . ؟

قال :

— فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٤ . .

قلت :

— وكم كان عدد الأعضاء فى ذلك المجلس . . ؟

قال :

— ألف ومائتان وستة وعشرون عضواً . . يمثلون مختلف الأحزاب والفئات والأقليات . .

قلت :

— وكم سيكون عدد أعضاء المجلس الجديد الذى سيجتمع فى آخر شهر من عام ١٩٦٤ . . ؟

قال :

— سيرتفع عدد الأعضاء إلى نحو ثلاثة آلاف . .

قلت :

— وهل سبب الزيادة يعود إلى زيادة عدد السكان . . ؟

قال :

— لا . ! بل إن سبب الزيادة يرجع إلى أنه قد أصبح لدينا مبنى ضخم يستطيع أن يستوعب هذا العدد الجديد . . !

وظننت أنه يمزح معى ، فضحكت ، ولكنى تأكدت بعد لحظة أنه جاد فى قوله ، فسألته :

— وإذا قررتم تشييد مبنى آخر فى المستقبل يستطيع أن يضم عشرة آلاف عضو ، فهل يزيد عدد أعضاء المجلس إلى عشرة آلاف . . مثلا . .؟

وأجابنى بكل جد :

— هذا ممكن . ! هذا ممكن جداً . !

ولم أضحك . . ولكنى مضيت أسأله :

— وما هى سلطات مجلس الشعب . . هذا ؟

قال :

— تعديل الدستور . . ووضع القوانين . . ومراقبة تطبيق الدستور . . وانتخاب رئيس الجمهورية ونائبه . . والموافقة على ترشيح الوزير الأول لمجلس الدولة ، وأعضاء لمجلس الدولة . . ورئيس مجلس الدفاع الوطنى وأعضاءه ، وانتخاب رئيس المحكمة الشعبية العليا ، وانتخاب المدعى العام ، والموافقة على ميزانية الدولة ، والعفو العام ، وتقرير الحرب والسلام ، وسلطات أخرى يرى أن من حقه أن يمارسها كعزل رئيس الجمهورية والوزراء . . إلخ » .

قلت :

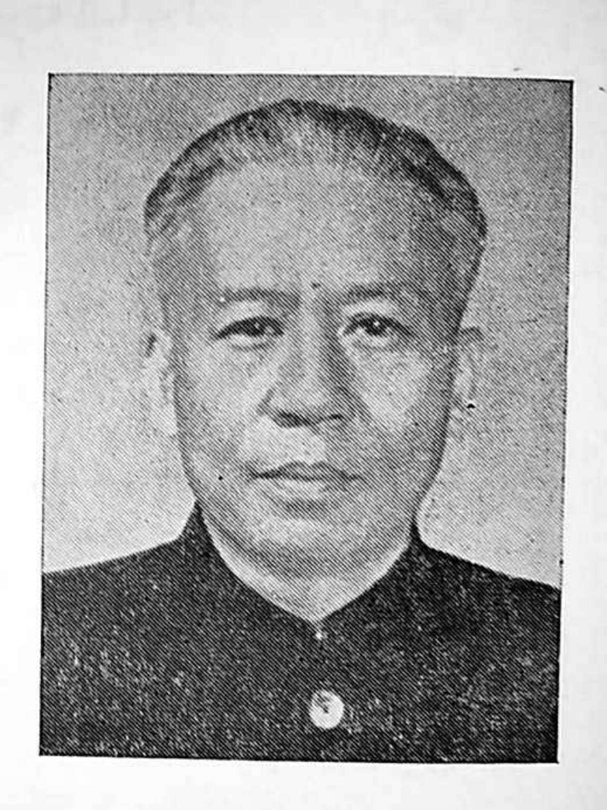
— وهل تنتظر هذه القضايا الخطيرة عاما كاملا حتى يحين موعد عقد الدورة لمناقشتها . ؟

قال :

— لا . . وإنما يمارس المجلس الوطنى لنواب الشعب سلطاته بواسطة « اللجنة الدائمة » للمجلس وهى تتألف من أشخاص ينتخبهم المجلس الوطنى ويعطيهم الصلاحيات فى إدارة الانتخابات وعقد الدورات وشرح القوانين ووضع المراسيم ومراقبة مجلس الدولة وإلغاء القرارات التى تخالف الدستور وعزل الوزراء وتعيين الممثلين الدبلوماسيين المطلقى التفويض لدى الدول الأجنبية وإبرام المعاهدات وتقرير الأوسمة والألقاب والعفو الخاص وإعلان حالة الحرب وجميع السلطات التى يمنحها إياها المجلس الوطنى لنواب الشعب . .

قلت :

— وبعبارة أخرى إن السلطة الحقيقية فى البلاد هى بيد ما يسمى باللجنة « الدائمة » للمجلس الوطنى . . أليس كذلك . . ؟



ليو تشاو شي
« رئيس الجمهورية »



شوان لاى
« رئيس الحكومة »

قال :

— إنها بيد المجلس الوطنى الذى ينقلها إلى اللجنة الدائمة المنبثقة عنه .. وله الحق فى عزل أعضاء تلك اللجنة إذا شاء !

قلت :

— هذا ما أردت أن أقوله . ! أردت أن أقول إن الحاكم الحقيقى هو «اللجنة الدائمة» ، لا المجلس الوطنى ، وإن المجلس الوطنى لم يعزل منذ تأسيسه حتى اليوم ، عضواً واحداً من أعضاء اللجنة الدائمة !

قال :

— هذا هو الواقع .. تماما !

قلت :

— وما هو راتب العضو فى المجلس الوطنى .. ؟

قال :

— لا شىء .! إن راتب العضو محصور فى بدل نفقاته التى يتكبدها خلال أسفاره الرسمية للتفتيش على أمور الدولة ..

قلت :

— وهل المطلوب من عضو المجلس أن يتفرغ تماما لعضويته .. ؟

قال :

— ليس هناك عضو متفرغ . إن عضو المجلس — فى الوقت ذاته — يشغل منصبا آخر .. أما بالنسبة « للجنة الدائمة » ، فإن هناك بعض الأعضاء المتفرغين ..

قلت :

— وهل من حق أى عضو أن يرشح نفسه للانتخابات .. ؟

قال :

— النواب خاضعون لمراقبة المقاطعات التى انتخبتهم ولهذه المقاطعات سلطة استبدال النواب الذين تم انتخابهم فى أى وقت حسب الاجراءات التى يقررها « القانون . . » !

قلت :

— إننى أسأل عما إذا كانت عملية الترشيح تخضع « للقانون » . . ؟

قال :

— بالطبع . . إن « القانون » قد حرم أشخاصا من حقهم فى الترشيح والانتخابات . .

قلت :

— وعدد النواب ، وطريقة انتخابهم ، تخضع أيضا « للقانون » . . الذى يصدر فى المناسبات وحسب المناسبات ؟ ! أليس كذلك ؟

قال :

— بالطبع . .

قلت أخيراً :

— بصراحة تامة أنا لا أطيق كلمة « قانون » هذه ، وأرى وجودها فى جميع هذه الحالات اعتداء على حرية الانتخابات ، وعلى نزاهتها ، وعلى صلاحيات الأعضاء . . بل على كرامة المعركة الانتخابية ، كلها !

قال :

— إن الموضوع يحتاج إلى تفسير . .

قلت :

— بل أقولها بصراحة إن الموضوع يحتاج إلى « تصحيح » . .

قال :

— إن الصين دولة متعددة الأحزاب . فهناك تسعة أحزاب سياسية بالإضافة إلى الحزب الشيوعى . . وهذه الأحزاب قد سبق لها وتعاونت مع الحزب الشيوعى إبان الثورة ، واتفقت أهدافها مع أهدافه فى محاربة الاستعمار والإقطاعية ، والانحراف ، مما خلق ودا وتفاهما بينها وبين الحزب الشيوعى .. ومن هذه الأحزاب ما يسمى « باللجنة الثورية لحزب الكومينتانج » ثم حزب « الحلف الديمقراطى الصينى » . . ثم حزب « الديمقراطية لبناء الدولة » وهو حزب البرجوازية الوطنية « ثم جمعية تنمية الديمقراطية فى الصين » وهو حزب المدارس الثانوية . . ثم الحزب « الديمقراطى للفلاحين والعمال » فى الصين وهو حزب الفنانين والممرضات بالرغم من كون اسمه يشير إلى شىء آخر . . ثم حزب « عدم الأنانية » وأعضاؤه من الصينيين الذين يقيمون فى الخارج . . ثم حزب « اليوم الثالث من سبتمبر » ويشمل المهندسين والفنيين والعلماء . . ثم حزب « الحلف الديمقراطى للاستقلال فى تيوان » . . ثم « عصبة الشبيبة الشيوعية الصينية » وهى منظمة للشباب . .

قلت :

— وكم عدد أعضاء هذه الأحزاب كلها . . ؟

قال :

— لا أدرى . !

قلت :

— وكم نسبة نفوذها بالنسبة للحزب الشيوعى . . ؟

قال :

— الحزب الشيوعى هو الحزب الحاكم فى البلاد . !

قلت :

— وهل تختلف هذه الأحزاب فى — فى برامجها — عن الحزب الشيوعى؟

قال :

— الأهداف الرئيسية واحدة وهى : مكافحة الاستعمار والرأسمالية والبيروقراطية . . !

قلت :

— وكم نسبة تمثيل هذه الأحزاب — كلها — بجانب الحزب الحاكم فى داخل المجلس الوطنى . . ؟

قال :

— نحو ٥٧ فى المائة يمثلها الحزب الشيوعى وحده . . ونحو ٢٣ فى المائة لمجموع الأحزاب ٠٠و١٩ فى المائة لاحزبيون . . !

قلت :

— معنى هدا أنه لو تضافرت جميع هذه الأحزاب وحاولت أن تقف أمام الحزب الشيوعى لعجزت أن تفعل شيئا . . أليس كذلك . ؟

قال :

— هكذا تقول هذه الأرقام . . والأرقام لا تكذب !

قلت :

— وبلغة أخرى إن السلطة كلها — أو معظمها — فى يد الحزب الشيوعى الحاكم . . أليس كذلك ؟

قال :

— الأحزاب الأخرى تتمتع — أيضاً — بالسلطة . . !

قلت :

— ولكنها سلطة محدودة لا تكاد تذكر . ؟ هل توافقنى ؟

ولم يجب . . !

قلت :

— لو كنت مكان تلك الأحزاب التسعة لألغيت نفسى بجرة قلم وانضممت إلى الحزب الشيوعى . .

قال :

— ولكنها أحزاب تمثل «طبقات» فى البلاد مازالت قائمة. إن بعض الناس يظنون أن ليس فى الصين طبقات . إلا أننى أقول لك أنه مازالت هناك طبقات من ناحية الأيديولوجية والعقائدية . فعلى الرغم من أن المشاريع الاقتصادية التى كانت تابعة للبرجوازية قد أصبحت فى إدارة مشتركة مع الدولة ، إلا أن أصحاب العمل السابقين مازالوا حتى اليوم يأخذون الفائدة الثابتة من الدولة . إن الحزب الشيوعى مع تمثيله لمصالح البروليتاريا إلا أنه يتبع سياسة التعويض بالنسبة للبرجوازيين الوطنيين . . وبالرغم من أن الفائدة المالية لتلك الطبقة قد تلغى قريباً ، إلا أن ذلك لايعنى إلغاء البرجوازيين . إنهم مازالوا هنا . . كطبقة قائمة فى أيديولوجيتها وأسلوب معيشتها ، وإن القضاء على هذه الطبقة ليس بالأمر السهل ، إنه يتطلب عشرات بل مئات من السنين . .

قلت :

— هل تعنى أن هذه الطبقة كبيرة ومنفذة فى البلاد . ؟

قال :

— نحن نسميها — بصورة عامة — الطبقة البرجوازية . إلا أنها متعددة المظاهر . . فهناك البرجوازية المتوسطة ، والصغيرة أى البرجوازية الوطنية . . وكل ذلك يعنى حقيقة واحدة هى وجود بقايا الطبقة الإقطاعية فى البلاد . .

قلت :

— لقد سألتك عن نفوذ تلك الطبقة ، وعددها . .

قال :

— عددها محدود ، ولكن نفوذها فى بعض المناطق ما يزال كبيراً . . كمناطق الأقليات الوطنية التى مازال بعض كبار المسئولين فيها يملكون الرقيق ويتاجرون فيه وعلى رأس تلك المناطق منطقة « التبت » . . ونحن ننفذ بالنسبة لهؤلاء سياسة المصادرة والتعويض على ماصادرناه . إنها الخطورة الأولى فى سبيل القضاء على الطبقات — كما يقول « ماوتسى تونج » . !

قلت :

— أليست هناك برجوازية بين الموظفين الرسميين أيضاً . . ؟

قال :

— إذا اختلس الموظف أو قبل الرشوة وحصل على المال اللازم أصبح عنصراً جديداً للبرجوازية . . ولكن الحكومة تتخذ إجراءات شديدة لمنع ذلك ، وكذلك نتخذ إجراءات مماثلة ضد أصحاب الأراضى والمزارعين الذين يتاجرون فى السوق السوداء ويعملون على تخزين المأكولات لمضاعفة أسعارها . .

قلت له :

— لقد سمعت على لسان « شوان لاى » أن البرجوازية الصينية قد بدأت تقاوم الحكم الشيوعى ولاسيما فى التبت على يد « البانشين لاما » الذى يشغل نائب رئيس لجنة إعداد التبت للحكم الذاتى . .

قال :

— هذا صحيح تماماً . !

قلت :

— وفى منطقة سيكيانج . ! ؟

قال :

— وهذا أيضاً صحيح . . !

قلت :

— إنّ الأرقام التى فى يدى تقول إن نسبة الذين اشتركوا فى انتخابات المجلس الأخيرة بلغت تسعة وتسعين فى المائة . . وأنا أرجوك أن تتقبل منى عدم استعدادى لأن أصدق هذا الرقم . . خاصة وأنتم أنفسكم تعترفون بأن هناك موجات قوية من العداء للحكم القائم فى مناطق الأقليات قد أخذت طريقها إلى الظهور . . وأن البرجوازية تعادى الحكم . .

قال مقاطعاً :

— سأسأل عن هذا الرقم ، وأجيبك . . !

قلت والحديث ينتقل إلى موضوع « هادىء » آخر :

— يقولون إن الصين بلد المناقشات التى لاتنتهى . . فما معنى ذلك . ؟ !

قال :

— سأضرب لك مثلا على ذلك مع تحفظى بالنسبة لعبارة « لاتنتهى » ! إن الصين بلد مناقشات . . ولكنها تنتهى . إننا حريصون على أن نترك للشعب حرية مناقشة جميع القضايا المهمة المتعلقة به ، مثال ذلك ماجرى فى أثناء عملية إقرار الدستور . فقد تشكلت لجان خاصة لصياغة نصوص الدستور ، ثم قدمت عملها إلى مؤتمر استشارى سياسى للشعب الصينى لمناقشته . . ثم تناول العمل لجنة الخبراء التى وزعته بدورها على الخبراء المنتشرين فى أنحاء البلاد وعددهم بالنسبة للدستور ، ثمانية آلاف شخص .. وهم بدورهم قدموا لنا آلاف من الملاحظات والآراء . . وقد تمت عملية جمع هذه الآراء

وصهرها ورفعها إلى اللجنة المركزية لصياغة الدستور بغية إدخال التعديلات اللازمة على عملها . . ثم تبع ذلك عملية عرض الدستور على الشعب لدراسته وإبداء رأيه فيه . . وقد اشترك فى مناقشة الدستور أكثر من مائة وخمسين مليون شخص أدلوا بأصواتهم وملاحظتهم فى كل بند من البنود . . ! إننا نسمى هذا الأسلوب « من الجماهير إلى الجماهير » ! إن كل قانون صينى قد صدر بإجماع الأصوات . . وهذه هى الحقيقة الكبرى وهى أن ديمقراطيتنا خالية من أى زيف . . وحسب قول ماوتسى تونج : « إن المركزية فى الحكم هى مركزية قائمة على ديمقراطية شاملة كاملة . . » .

قلت وقد استهوانى الحديث :

— وما هى المراحل التى يمر بها إقرار القانون العادى . ؟

قال :

— إذا أردنا مثلا أن نشرع قانوناً ما ، فإنا نكلف بذلك اللجنة المختصة التابعة لمجلس الوزراء . . وهذه اللجنة تبادر إلى جمع الآراء فى الموضوع من الأوساط المختلفة . . فإذا كان القانون يتعلق بالضريبة ، بادرت اللجنة إلى جمع آراء التجار ، ثم تقوم بتقديم مشروع القانون إلى وزارة المالية لإدخال ماتراه من تعديلات فإذا وافقت الوزارة على ذلك ، انتقل المشروع إلى لجنة القوانين المركزية التابعة للحكومة فإذا وافقت عليه رفعته إلى اللجنة الدائمة المنبثقة من المجلس الوطنى ، لإقراره . . وفى اللجنة الدائمة تجرى عملية بحث القانون بواسطة لجانها المختصة ثم تقدم رأيها إلى المجلس الوطنى أو إلى اللجنة الدائمة . .

قلت : لا أعتقد أن تشريع قانون عادى واحد يحتاج إلى جميع هذه المراحل ، ما دامت الكلمة الأولى والأخيرة فى الموضوع ، تعود إلى الحزب الشيوعى الحاكم . . وحده .؟!

قال : نحن نريد أن نشرك الشعب فى جميع الأمور المتعلقة به . .

قلت : إشراك الشعب فى الأمور شىء ، ثم الأخذ برأى الشعب أو عدم الأخذ بذلك الرأى ، شىء آخر . .

قال : الشعب يتجاوب دائماً مع مصلحته . .

قلت : وهل تتجاوب تلك المصلحة — دائماً — مع مصلحة الحزب الشيوعى الحاكم ؟ !

قال : أجل . .

قلت : بلا معارضة . ؟

قال : معارضة المصلحة العامة للشعب ، لا قيمة لها . إنها . . جهل أو انحراف !

قلت : وأصحابها يستحقون العقوبة . . أليس كذلك ؟

قال : بالتأكيد . .

قلت : وقد تصل تلك العقوبة أحياناً إلى حد . . الموت !

قال : بالتأكيد . . ! !

وسكت . . ذهولا أو استحياء !

وسكت سكرتير اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى . . متعباً . !

فقد مضت عليه ثلاث ساعات وهو يتكلم . .

وقد شربنا خلال الحديث مالا يقل عن عشرة أقداح من الشاى الصينى ، واستهلك هو مالا يقل عن علبة كاملة من السجائر . . !

وقلت لسكرتير اللجنة الدائمة بعد قليل :

— وهل يحق لرئيس الجمهورية أن يعين أعضاء فى المجلس الوطنى . . ؟

قال :

— لا . !

قلت :

— وهل يحق للحزب الشيوعى الصينى أن يرشح أعضاء لانتخابات المجلس الوطنى . . ؟

قال :

— بالطبع . !

قلت :

— وهل تذكر معارك انتخابية فرعية فاز فيها عضو من خارج الحزب الشيوعى على عضو فى الحزب الشيوعى . . ؟

قال بعد تفكير :

— لا أذكر . .

قلت :

— وهل تذكر لى اسم وزير صينى واحد سقط من الوزارة بسبب هجوم أحد الأعضاء ، أو سحب الثقة منه . . ؟

قال بعد صمت :

— لا أذكر اسما معينا . .

قلت :

— بأية وسيلة يتعاون الحزب الشيوعى مع المجلس الوطنى ، وما هو أسلوب هذا التعاون مع الأحزاب الأخرى . . ؟

قال :

— فيما يتعلق بالأحزاب الديمقراطية الأخرى فإن الحزب يلعب دور القيادة . .

قلت :

وهل يجب على الحكومة أن تستجيب إلى أى اقتراح يتقدم به الحزب الشيوعى . . إليها . ؟

قال :

— لا . . ! لقد قال الرئيس ماوتسى تونج إنه « على استعداد لأن يتقبل آراء الجماهير . . وأن ليس كل ما يتقدم به الحزب ملزم للدولة . كذلك أوصى الرئيس « ماو » بوجوب الاستماع إلى الآراء المعارضة فإذا كانت معقولة تبناها . لذلك نقول دائما إن الحزب الشيوعى يجيد الاستماع إلى آراء الجماهير وذلك — بالضبط — هو سر قوته ! إنه حزب يجيد الاستماع إلى الآراء المعارضة واللجوء إلى أساليب المناقشة والتشاور وتصحيح الأخطاء إذا وجدت . . »

قلت :

— هل من حق الحزب الشيوعى مراقبة أعمال الدولة . . ؟

قال :

— المجلس الوطنى هو الذى يراقب أعمال الدولة ، أما الحزب فيراقب أعمال الحكومة بصورة غير مباشرة . . أى من خلال أعضائه الموجودين فى الحكومة والمشتركين فى تحمل مسئولياتها .

قلت :

— ومن الذى يرسم السياسة العامة للدولة . . ؟

قال :

— المجلس الوطنى . إنه هو السلطة العليا . . !

قلت :

— وكم عدد الأيام التى تستغرقها الدورة السنوية للمجلس . . ؟

قال :

— نحو أسبوعين . .

قلت :

— وهل يستطيع المجلس خلال أسبوعين فقط أن يرسم ويناقش أمور الدولة كلها . .

قال :

— إن اللجنة الدائمة هى التى تتولى ذلك . .

قلت :

— وهل جميع أعضاء اللجنة الدائمة أعضاء فى الحزب الشيوعى ؟

قال :

— معظمهم . .

وهكذا مضى الحديث إلى ما بعد « الغروب » بينى وبين الأمين العام للنجة الدائمة للمجلس الوطنى الصينى . .

وبالرغم من كثرة أسئلتى ، « وصراحة » أجوبته ، لم أستطع الاقتناع بأن المجلس الوطنى ، أو اللجنة الدائمة التابعة له ، هما — وحدهما — مركز السلطة فى بلاد الصين . .

إن ما اقتنعت به تماما يختلف عن ذلك . . حيث وجدت بالدراسة والفحص أن الحزب الشيوعى الصينى هو وحده خالق كل قرار فى الصين . ! هذا الحزب هو وحده الذى يتولى أعضاؤه أهم الوزارات الصينية ، ويترك للباقين بعض وزارات الدرجة الثالثة . ! هذا الحزب ، ومن خلال مكتبه الدائم هو الحاكم بأمره دون شريك ولا رقيب . ! هذا الحزب ومن خلال اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى التى يتكون « معظم » أعضائها كما قال لى سكرتيرها العام — من الحزب الشيوعى ، هو المسيطر على البلاد . !

وفيما عدا ذلك ، يتمتع أعضاء الأحزاب السياسية الأخرى فى الصين ، « بالاحترام التام » ما دامت تلك الأحزاب مخلصة فى أداء واجبها الطبيعى

الذى يفرض عليها المساهمة فى تنفيذ سياسة الدولة ، « لا » فى رسمها أو تخطيطها .

تلك هى الحقيقة بلا لبس ولا غموض . .

وذلك ما خرجت به برغم الساعات الطوال التى حبسنى فيها خبراء التنظيم السياسى ، ورجال المجلس الوطنى ، وفقهاء الدستور الصينى وهم يحدثونى عن الديمقراطية الصينية . . الصحيحة . . الأصيلة !

الديمقراطية فى الصين ، هى ديمقراطية صينية . . من نوع خاص لا علاقة لها بالمفهوم الدولى أو الغربى لهذه الكلمة . .

إنها ديمقراطية الحزب الشيوعى الحاكم . . فإذا ما اختلفت مصلحة الحزب مع مصلحة الدولة ، انتصرت على الفور مصلحة الحزب . ! ولذا فقد تتحسن العلاقة على مستوى الدولة بين موسكو وبكين مثلا ، ولكنها لن تتحسن على مستوى الحزب ، وبالتالى لن يعود التقارب بين الصين والسوفيات على ما كان عليه فى الماضى . ! إن الحزب ومبادىء الحزب تأتى قبل كل شىء آخر . . ! إن أعظم قوة تشريعية وتنفيذية وعسكرية فى الصين ، محصورة فى المكتب السياسى للحزب الشيوعى المؤلف من ماوتسى تونج ، وليو شاوشى رئيس الجمهورية وشوان لاى رئيس الوزراء ، وشوته ، وتنج سياوبنج ، ولين بياو . ! إنهم لا ينسون أن الصين الحديثة مدينة بكل ما فيها للثورة . . وأن الثورة لم تكن لتنتصر لولا ماوتسى تونج الذى قاد ثورة الفلاحين ، وليو تشاوتشى الذى قاد العمال ، وشوتيه الذى قاد الجيش . . !

لقد قال لى « كوموجو » رئيس اللجنة الدائمة فى معرض حديثه عن الانتصارات الصينية الحديثة :

— هل سمعت عن ذلك الجراح الصينى الشاب الذى استطاع أن يعيد

ـ بعملية جراحية واحدة ـ اليد المقطوعة إلى مكانها الطبيعى ويحقق بذلك معجزة طبية لم تستطع بريطانيا ولا أمريكا ولا السوفيات تحقيقها . ؟ !

قلت :

ـ سمعت . .

قال :

ـ وهل رأيت الآلة الصينية الجديدة الخاصة بالكبس والضغط بقوة آلاف الكيلوات . . والتى لا مثيل لها فى موسكو أو واشنطن . . ؟

قلت :

ـ رأيت . !

قال :

ـ وهل قرأت عن العملية الجراحية الأولى من نوعها التى أجراها طبيب صينى فى أحد مستشفيات شنغهاى واستطاع بها أن يعيد أصابع اليد المقطوعة إلى مكانها . . وهو ما عجز عنه غيرنا . . ؟

قلت :

ـ قرأت . .

قال :

ـ وهل زرت المستشفيات والجامعات والكوميون والمصانع وأحسست بمولد المعجزة فى الصين . . ؟

قلت :

ـ زرت . !

قال :

ـ وهل استطعت أن تكتشف سر ذلك كله . . هل لمست سر المعجزة ؟

قلت :

— لا . . !

قال :

— سأكشف لك عن السر . . إنه فى نقاط ثلاث : أولا وقبل أى شىء القيادة الواعية للحزب الشيوعى الصينى . وثانياً . .

وقلت مقاطعاً :

— الحزب الشيوعى الصينى !!

قال :

— لا .. بل الولاء الشعبى للحزب وحماسة هذا الشعب الذى نعتمد عليه ..

ثم استطرد يقول :

— وأما السر الثالث فهو اعتمادنا على خبرائنا الصينيين فى مجال العمل . .

قلت :

— إن كلامك هذا يذكرنى بما قرأته مرة على لسان الزعيم ماوتسى تونج حيث قال فى عام ١٩٤٩ « إن الشعب الصينى قد اعتمد على ثلاثة عوامل عظيمة فى كفاحه . أولها القيادة الحكيمة للحزب ، وثانيها القوة العسكرية التى يقودها الحزب ، وثالثها الجبهة الواحدة الموحدة التى صهرنا فيها إمكانيات وطاقات ستمائة وخمسين مليون صينى » . .

ورأيت السعادة كلها ترتسم على وجه رئيس اللجنة الدائمة وهو يصيح :

— مضبوط . . مضبوط . . !

ولكن السر الرابع الذى تعمد محدثى رئيس اللجنة الدائمة أن يغفله هو ، فى تصورى ، أهم هذه الأسرار كلها . .

إنه السر المتعلق بأسلوب « غسل » العقل الصينى ، وتحويل الفرد هناك

ابتســـامات !



ناصر النشاشيبي مع السيد « كوموجو » رئيس اللجنة الدائمة للمجلس الوطني في الصين . .
.. وأقداح الشاي !

الذى عاش مئات السنين على تقاليد معينة ، وصورة معينة ، وأفكار معينة ، من الحالة التى هو فيها إلى الحالة التى يريدها له الحزب الشيوعى الصينى . ! إنه السر الذى جعل أصحاب الأراضى فى الصين يتنازلون عن أراضيهم إلى الدولة . ! إنه السر الذى أحال البرجوازية إلى بروليتاريا . ! إنه السر الذى نقل الملايين من صفوف أعداء الثورة إلى صفوف جنودها . ! إنه السر الكامن وراء نجاح المصانع ، وتقدم العلم ، وتفجير القنبلة الذرية فى صحراء الصين . . !

وسر هذا السر ، فى أسلوبه . .

وأسلوبه ينحصر فى كلمتين : مراقبة جو المواطن فى جميع الوجوه . . المادية . . والمعنوية . . . ثم « العمل » على ضوئها . .

ومعنى العمل لا يحتاج إلى تفسير . . إنه تعريض المواطن إلى مجموعة أعاصير نفسية يختلط فيها العوز مع القلق مع التعب مع التعليمات الحزبية المتكررة بلا حدود ولا نهاية ، وتكون النتيجة تحطيم شخصيته بحيث لا يجد لها من علاج ولا منقذ سوى الخضوع . . والاستسلام . . !

وبعد الاستسلام الإيمان . . !

وهكذا تبدأ الحلقة بربط المواطن إلى وحدة معينة يتلقى خلالها التعليم الماركسى اللينينى المطول . .

ثم تنتقل الوحدة إلى طور آخر يناقش فيها المواطن مع زملائه ، مبادئ هذا التعليم . . بصراحة ووضوح .

ثم يبدأ الطور الثالث حيث يبدأ كل عضو فى التحدث عن حياته ، وآرائه ، وظروفه . وعلاقتها بتلك المبادئ .

ثم تضيق الحلقة شيئاً فشيئاً عندما يبدأ كل عضو فى نقد نفسه ، ونقد تفكيره ، ونقد تفهمه للأمور . .

ثم تضيق الحلقة أكثر وأكثر عندما يحاول كل عضو أن يظهر مساوئ ذلك التفكير . . وأن يعلن عن استعداده للعلاج السريع . .

ثم تضيق الحلقة حتى النهاية عندمايتعرض العضو إلى نقد زملائه وهجومهم وسياطهم اللاذعة فيجد نفسه مرغما على الاعتراف بأنه كان كالمريض الذى لا شك أنه بحاجة إلى العلاج.. !

والعلاج معروف . . ومكانه معروف . . !

إنه الشيوعية . ! فى الحزب الشيوعى الصينى . !

وهكذا يبدو المواطن الصينى وكأنه قد ولد من جديد . .

هكذا تضيع العواطف ، وتتلاشى الأهواء ، وسط مولد شيوعى جديد . .

شيوعى بلا ذات . . لأن الدولة هى الذات . !

شيوعى بلا نزوات . . لأن الدولة لاتسمح بالنزوات . !

شيوعى لا يكره ولايحب ولا يتألم . .

أجل ، لايتألم . .

فقد رأيت أحد أصابع مرافقتى السيدة « لى » بنفسى ، يتطاير فى أحد شوارع شنغهاى تحت ضغط حافة باب السيارة عليه بيد زميل لها أخطأ وأغلق الباب على يدها.. فما كان من «لى» سوى أن أطبقت بأصابع يدها الأربع على أصبعها المحطمة . . وحبست الدم فى بطن يدها . . وتظاهرت بالهدوء التام لولا أن كان نزيف الدم أقوى من إرادتها فانطلق كالنافورة يملأ

المكان من حولنا . . وعندما حاولنا أن تأخذ « لى » إلى عيادة الطبيب لكى يعالج لها إصبعها ، أصرت « لى » على الرفض بحجة أننا كنا أمام أحد المعارض الصناعية ، وكان على « لى » أن تقوم بمهمة الترجمة بينى وبين مدير المصانع !!

ذلك ما رأيته بنفسى ..! إنسان لايعترف بالألم ولابالعواطف ولا بالمشاعر ولا بالأحاسيس !

وذلك هو وحده ، السر الذى يحكم الصين اليوم . .

أقول ذلك . . مع كل احترامى للمجلس الوطنى .. وللجنة الدائمه المنبثقة عن المجلس الوطنى . . وللدستور الصينى . . ولعشرات الخبراء الذين أضاعوا وقتهم معى فى محاولة إقناعى بأن الصين ، دولة . . ديمقراطية . !

. . . على مبدأ باركليس ، وأفلاطون ، وروسو ، وفولتير ، ولنكولن ، والكواكبى ، وأمثالهم . . !



الفصل الحادى عشر

المستقبل

« . . ومن بعدنا الطوفان . . »

مدام دى بومبادور

« إننا لن نحارب من أجل حرية الصين لكى نسلمها فيما بعد إلى . . . موسكو »

ماوتسى تونج ١٩٣٦

« قد نرضى بالتفاوض مع الدول الاستعمارية ، ولكننا لن نسمح لأنفسنا أن ينحصر الأمل فى السلام ، على هذه المفاوضات ، أو أن نغرق فى خيالها فنسبب للإرادة الثورية عند الشعوب ، الشلل التام . . »

افتتاحية « بكين ريفيو » نوفمبر ١٩٦٣



إن الصين تريد أن تعيد كتابة تاريخها . ! هكذا قالت لى الصين خلال الأسابيع التى قضيتها معها ..

وقد بدأت الصين — بالفعل — تكتب تاريخها الحديث كما تريده بنفسها ..

وهى تريد من العالم أن يقرأ صفحات هذا التاريخ ، وأن يفهمها .. لكى يستطيع هذا العالم أن يفهم .. الصين .

والصين تقول إن هناك من المبادىء والأمور ما تراها — هى — مهمة وحيوية بالنسبة إليها ، بينما لا يشاركها الغرب أو أمريكا ، مثل هذا الرأى ..

وقلت لهم أسألهم :

— هل عندكم مثلا على ذلك .. ؟

قالوا :

— نحن نعتقد أن أهم ما عندنا هو .. شعبنا . ! إن مصلحة الشعب عندنا قبل مصلحة الأفراد .. إن المجموع قبل الواحد .. بل إن الواحد لا قيمة له بالنسبة للمجموع .. ولكن مثل هذا الرأى غير مقبول ولا مفهوم فى الخارج ..

ثم قالوا لى :

— ويجب على العالم أن يفهم معنى القيادة ومعنى السياسة فى بلادنا . فالسياسة عندنا محصورة فى القيادة « الجماعية » وهذه حقيقة ليست مفهومة فى الخارج .. ! إن السياسة عندنا ليست مناورات حزبية ، أو أزمات

وزارية ، أو تطاحن أو مؤامرات ، كل هذا لا وجود له فى بلادنا . .

وهنا ، تذكرت على الفور حديثاً سمعته من السيد « العادلى » سفير الجمهورية العربية المتحدة فى بكين عندما قال لى ونحن نتحدث فى مكتبه بدار السفارة :

— منذ عام أو أكثر ، انتشرت فى العالم إشاعة قوية عن وجود خلاف سياسى حاد بين شوان لاى رئيس الوزراء ووزير خارجيته المارشال « شين ييه » . . وعرفت أن الإشاعة قد وصلت إلى القاهرة عندما تسلمت برقية بالشيفرة من حكومتى تطلب منى موافاتها بحقيقة هذا الخلاف . . وبدون أن أسأل أحداً ، أو أقابل أحداً ، أو أتحرى الحقيقة من أحد ، أبرقت إلى القاهرة أننى لها الإشاعة من أساسها ! ذلك أننى أعرف هذا البلد ، وأعرف طبيعته ! لقد عاش زعماء هذا البلد ثلاثين أو أربعين سنة مع بعضهم فى الخطر ، والجهاد ، والدم . . وليس معقولا ولا منتظراً أن يبادر أحدهم إلى الاختلاف مع زميله اليوم . . أضف إلى ذلك أن طبيعتهم الأسيوية الصينية تحتم عليهم التفاهم مع بعضهم البعض . . !

وقال لى سفير القاهرة فى بكين :

— القرارات هنا جماعية . . لا يظهر فيها الفرد . . فقد يغيب مثلا شوان لاى عن البلاد مدة شهور ، ويغيب معه وزير الخارجية ومساعدوه ومع ذلك تبقى السياسة تسير فى خطها المرسوم ، ضمن حدودها المرسومة ، وكأن شيئاً لم يحدث ، وكأن شوان لاى ورجال الخارجية مازالوا فى مكاتبهم . !

ولكنى تذكرت — أيضاً — حديثاً خطيراً يختلف فى جوهره ومعناه عن هذا الكلام ، وكنت قد سمعته من أحد الدبلوماسيين الكبار فى العاصمة الصينية عندما قال لى :

— كان الجنرال الصينى « بنج ثيه هواى » ينادى فى عام ١٩٥٨ بوجوب

تنظيم الجيش الصينى على الأسس السوفياتية . . فما إن وقع الخلاف الصينى — السوفياتى حتى طار الجنرال من منصبه . .

قلت :

— وماذا كان منصبه . . ؟

قيل لى :

— كان وزير الدفاع الصينى . !

وكذلك سمعت عن الجنرال « ليبمياد » رئيس أركان الحرب للجيش الصينى فى عام ١٩٦٢ . . والذى فقد كل سلطانه — وإن كان قد بقى اسماً فى منصبه — بسبب الخلاف على الاتجاه نحو . . موسكو . !

ولكن ذلك — برغم خطورته — ليس كل شىء . .

لقد حاولت أن أدرس اختلاف الطبيعة النفسية لدى زعماء الصين ومدى هذا الخلاف بين كل زعيم وزميله . . وتأثير ذلك على السياسية الصينية . . فخرجت بما يلى :

أولا : رئيس الجمهورية الحالى « ليو شاوشى » وهو أيضاً الخليفة المنتظر لماوتسى تونج ، يعد بإجماع الشعب والمراقبين السياسيين الأجانب ، الرجل الشيوعى الأصيل الذى لا يقبل تعديلا ، أو انحرافا عن الخط الماركسى اللينينى الصلب . . وهو بذلك أكثر تطرفا وتمسكا بموقف الصين الحالى من سواه . . خاصة وأنه أقرب الزعماء إلى قلب ماوتسى تونج . .

ثانياً : يعتبر شوان لاى — عند الجميع — المثل القوى للدبلوماسية الصينية البارعة والتى تتسلح بالحكمة والصبر وقوة الأعصاب وعظمة الشخصية من أجل الوصول إلى حل مع الطرف الآخر دون أن تتنازل الصين عن خطوة واحدة . . من موقفها . !

إنه — أى شوان لاى — عند الجميع ، أستاذاً للحنكة الدبلوماسية

القادرة على أن تتكلم — بنجاح — بلغة الأفريقيين ، ولغة الآسيويين ، ولغة الأمريكيين اللاتينيين ، وأن تكسبهم جميعاً إلى صف الصين ضد موسكو ، وصف الشيوعية ضد واشنطن . . !

ثالثاً : هناك اعتقاد بأن تنج شين — عمدة مدينة بكين ونائب سكرتير عام الحزب الشيوعى الصينى هو . . رجل المستقبل . ! إن الأضواء تسلط عليه بكثرة . ! إن نفوذه فى داخل الحزب يقوى ويشتد . إنه هو الشخص الذى ذهب إلى موسكو فى يوليو عام ١٩٦٣ وعاد من هناك ينادى :

— لا مساومة مع موسكو . .

إنه خطيب الشباب ، ورائد المؤتمرات العامة للأندية والمعسكرات . إنه صلب . . عنيد . . أشبه ما يكون بزعيمه « ماو » فى تمسكه بنص الحرف الشيوعى ، وروحه ، وحتى سكرتير عام الحزب — تينج سياوبننج — يعترف له بقوة الشخصية وصلابة الرأى !

رابعاً : سكرتير عام الحزب الشيوعى الصينى — تينج سياوبننج — يشكل فى آرائه وصلابته الصخرة الكبرى التى يتحطم عليها أى مسعى للتقارب مع موسكو . إن الشعار الكبير الذى يرفعه هذا الرجل — وهو دون شك من أقوى رجال الصين — يقول : « يجب أن نقوى محور قيادتنا على جميع المستويات » . . أى العمل على تطهير الحزب من جميع المعتدلين أو « المصلحين » أو المنحرفين عن الخط الشيوعى الصميمى الواحد !

ولكن هل معنى هذا أن باب التقاء الحركتين الشيوعيتين فى موسكو وبكين قد أغلق تماما . . ؟

لا أدرى . .

ولا أحد يدرى . .

ولا حتى زعماء الصين ، وعلى رأسهم شوان لاى ، يدرون !

أقول هذا بعد أن استمعت إلى الصديق ، الجنرال « رظا » سفير الباكستان فى بكين وهو يروى لى تفاصيل شيقة عن رأى شوان لاى فى طرد خروشوف ، وعلاقة ذلك بالمستقبل ، قال لى الجنرال رظا :

— كنت أقابل « شوان لاى » رئيس وزراء الصين فى مكتبه ، بعد ساعات قليلة من وصول نبأ إعفاء خروشوف من مسئولياته ، وقال لى شوان لاى بالحرف الواحد :

« كنت أتوقع خروج خروشوف ، ولكن ليس بهذه السرعة .. إنه من الصعب علينا أن نقول ماذا سيحصل بعد الآن ، ولكن من المؤكد أن نتوقع بعض التغييرات » .. !!

وعندما سأله السفير الباكستانى عن تنبؤاته بشأن السياسة السوفياتية الجديدة ، أجاب شوان لاى :

— أى منجم فى العالم لا يستطيع أن يقول شيئاً .. ولكنى أشعر — دون أية معلومات — أن العلاقات بيننا « قد » تتحسن .. ؟! إن الصورة أمامى ليست واضحة تماماً » ..

قلت للسفير الباكستانى :

— وهل كان شوان لاى يبدو — يومذاك — سعيداً بسبب طرد خروشوف ؟

قال :

— لم أشعر أنه كذلك لأنه لم يظهر أمامى أية بادرة تنم عن سروره .. رغم اعتقادى بأنه كان فى قرارة نفسه ، سعيداً .. »

تلك هى الحقيقة بالنسبة للزعماء الصينيين الحاليين ..

ولكن — من يدرى — قد تختلف تلك الحقيقة بالنسبة للمستقبل ،

عندما يظهر فى الميدان زعماء صينيون جدد لا يتمسكون بالسياسة الصلبة العنيدة التى يتمسك بها الزعماء الحاليون . . .

ترى هل هذا ممكن . . ؟؟

إن الزعيم الأكبر « ماوتسى تونج » قد أشرف على الثانية والسبعين من عمره . . ولا شك أنه — كما علمت فى العاصمة الصينية — يشكو من بعض الضعف فى صحته العامة وخاصة فى عينيه مما جعله يترك كرسى الرياسة إلى « ليوشاوتشى » . ورئيس الجمهورية الحالى الذى سيخلف الزعيم ماو فى زعامة الحزب ، وبالتالى زعامة الصين ، لا يقل عمره عن ثلاث وستين سنة . . لم تكن كلها سنوات مرحة أو مريحة بقدر ما عاشها صاحبها فى قيادة ثورات اتحادات العمال و ثورات التلاميذ ، ومحاكم الثورة ، والنفى والتشرد والسير الطويل . . والسجن الرهيب !

وشوان لاى فى الرابعة والستين . . وقد مزج كل سنة من سنى حياته بالجهاد والتعب ، منذ أن أصيب بكسر فى يده خلال « المسيرة الطويلة » والذى ما زال يشكو منه إلى الآن ، إلى أن عاد فى العام الماضى بعد زيارة ١٣ دولة أفريقية وآسيوية وقد بدا تعبا مريضا واضطر بسبب ذلك التعب ملازمة الفراش خارج العاصمة . .

ومثل ذلك يقال عن الباقين . رجال بلغوا ما بعد الستين قضوها فى أعنف وأعظم وأخطر ما تكون الحياة . .

أليس فى هذا كله ، ما يؤثر على الغد القريب . . فى الصين . . ؟

إن لم يكن من ناحية صلابة المبدأ ، ماذا عن وحدة الصف بين الزعماء . . القادمين . ؟ من يضمنها . . ؟

أسئلة نتركها للمستقبل . . بل إن شعب الصين نفسه لا يفكر بها وكأنه ينطق بلسان الفيلسوف البرت اينشتاين وهو يقول « إننى لا أفكر

فى المستقبل .. بل أدعه يأتى وحده .. وهو قادر على ذلك .. وبسرعة تامة » .

ولكن مستقبل الصين ، ككل مستقبل ، لن يكون أكثر من صورة للحاضر ولكنها دخلت من باب .. آخر !

هذا الحاضر كما رأيته بنفسى يقول بلسان الصين :

« .. نحن شعب بسيط ، أصبحت لدينا صناعة عصرية ، وزراعة عصرية ، وجيش عصرى ، ودولة اشتراكية .. » .

« نحن مجتمع بلا طبقات . كل فرد فيه له نفس الحقوق ، وعليه نفس الواجبات . وله مسكنه وملبسه .. »

« نحن شعب بلا مطامع خارج حدود بلادنا . ولكننا نطمع فى استعادة كل شبر ضائع من أرض أجدادنا » ...

« نحن دولة أصيلة قديمة .. لذلك نعرف تماما ونحس تماما بأفكار الفرد العادى » ..

« نحن حزب حاكم نؤمن بأن الشيوعية هى الشيوعية لاتتبدل ولاتتغير » !

« نحن نملك — اليوم — القنبلة الذرية .. ولكننا لا نعطى تلك القنبلة الأهمية التى أخذتها من دول الغرب .. إن الروح الثورية عندنا أهم من القوة الذرية ، إن القوة العددية أعظم من السلاح .. إن السلاح الذرى فى يد أعدائنا — كما قال زعيمنا — مجرد « نمر مصنوع من ورق » .. !

« نحن دولة لها قضايا مع جيرانها .. ومن هذه القضايا قضية الحدود ، ولكن الحدود شىء ، والمطامع الإقليمية شىء آخر .. إننا على استعداد لأن نفاوض من أجل أى حل سلمى . يقولون إننا لم ننفذ قرارات مؤتمر « كولومبو » بالنسبة لمشكلتنا مع الهند . إننا نقول متسائلين : « وما هى قرارت مؤتمر « كولومبو » ؟ لقد قلنا من أول لحظة إننا نقبل تنفيذ هذه المقررات ولكننا لا نقبل أن نتنازل عن أكثر منها . إن الهند تطالبنا أن نقبل

مقررات كولومبو بكل الزيادات In Toto حسب تعبيرها ، وبالإضافة إلى « التفسير » الذى أعلنه نهرو فى نيودلهى .. وهذا نرفضه ! إن الهند أرادت أن تستغل فرصة مصاعبنا الاقتصادية والسياسية فى السنوات الماضية لكى تضرب ضربتها . ! لقد أرادت دلهى استغلال خلافنا مع موسكو لكى تستولى على مساحات — لاحق لها فيها — من أراضينا . إنها — أى الهند — تتمسك بخط ماكماهون . . ولكن الصين التى لم تعترف بخط ماكماهون طيلة السبعين سنة الماضية ، لن تعترف به اليوم ! ويجب أن تفهم الهند — أن الطريق الجديد الذى بنيناه على الحدود الغربية هو المنفذ الوحيد لنا إلى « التبت » ، وبالتالى لن نتنازل عن هذا الطريق . . أبدا ! نحن نقول للهند « تعالوا إلى مائدة مستديرة نتفاوض عليها ، ونتفاهم » ولكن الهند ترفض أن تجاس معنا إلا إذا قمنا — أولا — بتنفيذ شروطها . . ولذا فنحن لا نشعر بالتفاؤل فى حل مشكلتنا مع الهند . لا لأن الصين ترفض السلام ، بل لأن الهند ترفض حل خلافاتها معنا ، مادام هذا الخلاف يجلب لها الدولار الأمريكى والسلاح السوفياتى . . » !

وعندما سألتهم عن موقفهم من عضوية بلادهم للأمم المتحدة قالوا :

— هذا أمر لم يعد يهمنا . ! إننا قادرون على إنجاز ما نريده ونحن خارج الأمم المتحدة أكثر مما لو كنا أعضاء فيها . . إن أمريكا نفسها ، سترجونا ذات يوم قريب ، أن نقبل الانضمام إلى الأمم المتحدة . إن أمريكا تحاول اليوم أن تقسم الصين إلى قسمين وهى مستعدة أن ترحب بنا وبانضمامنا إلى الأمم المتحدة بشرط أن نقبل فى الوقت نفسه وجود حكومة فورموزا كعضو فى المنظمة . وهذا مالا نقبله . وعندما تتأكد أمريكا من فشل مؤامرتها ، ستأتى إلينا مستنجدة متوسلة لأن نقبل الدخول إلى المنظمة الدولية » . .

وبعد هذا ، كنت أقف طويلا عند السؤال الكبير :

— هل تريد الصين أن تذهب إلى . . الحرب . . ؟

والجواب الذى خرجت به على ضوء زيارتى الدراسية هو :

— لا . !

لا ... لأن الصين — حاليا — ليست قوية كما تريد وتشتهى بالرغم من تفجيرها للقنبلة الذرية . . !

ولا ، حتى بقوة جيشها الذى لا يقل عن خمسة ملايين جندى حسب ما سمعته من عشرات المصادر الموثوق بها . .

ولا ، لأنها لو ذهبت إلى الحرب فإن هناك احتمال خسرانها . .

ولا ، لأنها تحصل الآن على انتصارات مادية وعسكرية ومعنوية فى سائر أنحاء « آسيا » دون حاجة إلى الدخول فى حرب . .

ولكن الصين — كما قيل لى من المسئولين — ستحارب لو وطأت أرضها قدم جندى أجنبى واحد . وهى فى هذه الحالة تستفيد من سعة أرضها وكثافة سكانها وانفرادها باستراتيجية جغرافية نادرة . . لكى تحقق لنفسها أسباب النصر . !

وهم بعد هذا يؤمنون — كما قال لى الرئيس العام لمجلس السلام الصينى — إن الاستعمار الأمريكى يملك فى ذاته ما يهدده بالزوال . ! قال لى رئيس مجلس السلام :

— الحقيقة أن الاستعمار الأمريكى ضعيف ومنعزل فى هذا العالم . إن صيحات الشعوب كلها تنادى : « أيها الأمريكيون عودوا إلى بلادكم ».. إن أمريكا تظن أنها ملكت الدنيا بالأربعة آلاف قاعدة عسكرية الموزعة فى العالم . . ولكن هذا ليس قوة ، بل دليل ضعف . . إنه من الخطأ أن توزع سلاحك بهذه الصورة . إن يدك أقدر على تسديد اللطمة وهى تضم أصابعها ، من أن تكون تلك الأصابع مفتوحة ومنفردة . . انظر إلى الحالة

فى فيتنام . . إقرأ أخبار الهجوم على القاعدة العسكرية الأمريكية هناك . . إن أمريكا تفكر الآن فى الانسحاب من فيتنام إلى الفلبين . . ولكن آسيا كلها ستطرد أمريكا من أرضها . إن القواعد الأمريكية — كما قال زعيمنا « ماو » — حبال ، أطرافها ملفوفة فى عنق أمريكا ، والشعوب تمسك بالأطراف الأخرى . ! إن وحدة شعوب آسيا وأفريقيا قادرة على أن تصفى الاستعمار الأمريكى حتى آخره ! ! »

ذلك هو موقف الصين من الحرب . . حالياً وفى المستقبل . إنهم يهاجمون أمريكا . . ويعتقدون بأن أول شرط من شروط السلام هو محاربة الاستعمار الأمريكى . . قالوا لى : كل شعب يحارب أمريكا ، واستعمارها ، هو صديقنا وحليفنا . . !! » .

وهم ، عندما يتحدثون عن السلام أو الحرب ، لا يغفلون أمر الحديث — ولو بالإشارة — إلى تطورهم العسكرى الهائل . .

قالوا لى : يقولون عنا إننا لن نتمكن من إطلاق الصواريخ الذرية قبل جيل آخر . . ويحاولون تعليل ذلك بافتقارنا إلى المهندسين الذريين ، وإلى المال ، وإلى الأسرار المطلوبة . ولكننا نقول إننا سنصنع الصواريخ ، وسنطلقها ، ولن يكلفنا ذلك أكثر من واحد فى المائة من نفقات الصواريخ الأمريكية ، ونحن نملك المهندسين ، ونستطيع أن نشترى من السوق الدولية كل ما نحتاج إليه من مواد لازمة لبناء الصواريخ ، وأما الأسرار ، فإن كل من يستطيع قراءة اللغة الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية والاطلاع على بعض النشرات العلمية الحديثة قادر على الفوز بتلك الأسرار . . »

ثم وضعوا أمامى تقريراً كتبه البرفسور الأمريكى « مارتن صمرفيلد » أستاذ الفيزياء فى جامعة « برنستون » الأمريكية ورئيس تحرير مجلة « جمعية الصواريخ الأمريكية » ويقول فيه إن الصين قادرة على أن تطلق صواريخها قبل نهاية عام واحد . ! وتاريخ المقال : نوفمبر ١٩٦٤ !

لقد سمعت كلمة بلسان « وويو شانج » الثائر الصينى الكبير » وعميد جامعة الشعب الصينية قال لى فيها :

« مادمت حيا ، ومعى كل زملائى ، سأضع آخر ذرة من قوتى لكى أساعد فى بناء بلدى وأجعل منها بلدا اشترا كيا قويا يستطيع أن يحقق أعظم وأنبل الآمال فى الحياة الشيوعية » . .

هكذا تتكلم الصين اليوم ، وهكذا ترسم طريق الغد .

يد تبنى فى الداخل ، ويد تمتد إلى الخارج . .

يد تخلق القوة والبناء والمصنع . . ويد تدفع القروض المالية إلى فيتنام وكمبوديا وكوريا ولاوس وباكستان وأندونيسيا . . وخمس عشرة دولة فى افريقيا . . بلا فوائد . . بلا شروط . !

وسألت نفسى :

— هل هناك بعث جدى للحلم الصينى القديم بإعادة الإمبراطورية الصينية المسيطرة على جميع أنحاء جنوب آسيا . . ؟

الصينيون يقولون : لا . .

وأنا أقول : أجل . . ! ومن أجل هذا لم أصدق كل ما سمعته عن قوانين تحديد النسل فى الصين ! إننى أحسست أن القوة العددية فى الصين هى اليوم أقوى أسلحة الصين ، فكيف للصين — إذن — أن تتخلى عن أقوى أسلحتها ؟ لقد أصبح المهاجر الصينى أو المغترب الصينى هو الطابور الخامس للصين فى جميع أطراف الدنيا .. وسيبقى هذا السلاح ما بقيت ملايين الصين الطريق الأكبر لتحقيق الحلم الصينى القديم . ! لقد أقامت الصين وزارة خاصة لشئون الصينيين المغتربين ، ولم تدع الوزارة المذكورة منشوراً واحداً تدعو فيه الصينى المغترب بالعودة إلى بلاده ، ولكنها دعت ذلك الصينى بأن « يقوى » أواصر علاقته ، بوطنه . . والمعنى لا يحتاج إلى شرح أو تفسير .!

وعدت أسأل نفسى :

— وماذا عن العلاقة العادية بين الشخص الواحد والشخص الآخر فى الصين . . ؟

وأسمعهم يقولون لى :

— إنها المساواة ..! إنها مجتمع لا طبقة فيه ولا استغلال ..! إنها الحياة التى لا اختلاف فيها بين مستوى أهلها . . إنها الشعب الذى يخلع فيه مدير المصنع ثيابه ويرتدى ثياب العامل العادى لمدة يومين فى الأسبوع يقوم خلالها بأعمال العامل العادى لكى لا يشعر أنه بحكم وظيفته كمدير قد أصبح ينتسب إلى طبقة تختلف عن طبقة العامل . . !

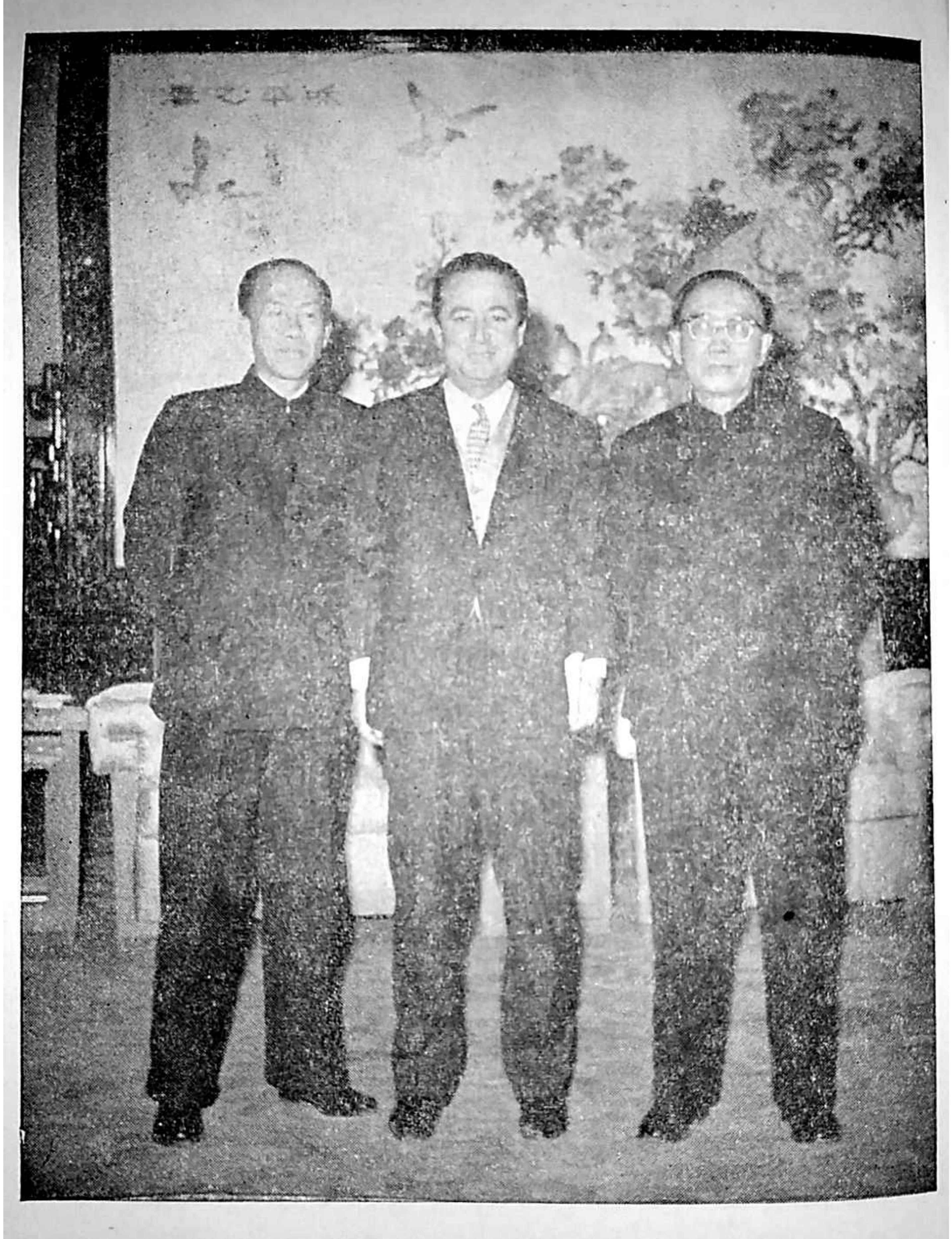
قلت لهم :

— ولكن « الطبقة » ستبقى مادام هناك بشر يعملون بأفكارهم ، كالطبيب والمهندس والعالم ، وبشر يعملون بأيديهم . . كالعامل العادى فى مصنع الحديد والصلب . ؟

قالوا :

— وهذه الطبقة أيضاً سنلغيها . . سنجعل من كل صينى أشبه بالفيلسوف « سبينوزا » الذى لم تشغله حياته كفيلسوف من أن يعمل كمساعد طبيب لتصليح النظارات ..! سنخلق قريباً جداً طبقة تعمل للفكر وللمصنع معا . . بحيث يعمل الطبيب فى عيادته بالمستشفى وفى مصنع الفولاذ بالضواحى . ! »

أجل لقد رأيت الصين فى عملية «صهر» لا تنتهى . . ! صهر الطبقات .. صهر القوميات . . صهر الأديان . . صهر الإمكانيات . . صهر المبادىء والآراء . . كلها من أجل بناء « صين » واحدة ، قوية ، غنية ، منيعة . .



مع نائب اللجنة الدائمة ، ومدير إذاعة بكين . . .
فى مكتب الأول داخل مبنى البرلمان الصينى

تضم الملايين فى داخلها ، وتجذب الملايين فى خارجها ، و « تهدد » الملايين فى أنحاء العالم . !

ولا يمنعنى إعجابى بما رأيت فى الصين ، من ألا أحاول أن أخفى دهشتى وخوفى من هذا المارد الكبير الذى استيقظ فجأة ، ومضى يفرض وجوده على العالم . إن السبعمائة مليون صينى ، بكل ذرة حياة فيهم ، بكل نبضة وريد فى أجسادهم ، يعيشون اليوم الثورة الشيوعية بكل حرف من سطورها . .

وللقارىء أن يفهم أثر كل ذلك على آسيا ، وعلى العالم . .

لقد قال لى نائب رئيس اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى فى معرض دفاعه عن سياسة بلاده :

— ليس لدينا عسكرى صينى فى خارج بلادنا فكيف نكون دعاة حرب بينما أمريكا تملك أربعة آلاف قاعدة . . منتشرة فى أنحاء العالم . . ؟

وابتسمت — ورأى نائب رئيس اللجنة الدائمة — وهو فى مرتبة الوزير — ابتسامتى ، فسألنى عن سر ذلك ، فقلت له :

— ولكن أمريكا تعتقد أن الأربعة آلاف قاعدة المنتشرة فى أنحاء العالم ، ليست شيئاً لو قيست « بالقاعدة » الصينية الكبرى التى تضم سبعمائة مليون وتستعد للانقضاض على العالم . . !!

قال :

— إننا نعارض السياسة الاستعمارية الأمريكية . . وإذا كانت معارضة السياسة الاستعمارية تسمى « دعوة للحرب » فنحن — إذن — دعاة حرب . .

قلت على الفور :

— هذه هى المشكلة . . إنكم تستعدون وتتسلحون وتفجرون القنابل ، وتبنون المصانع ، وتستغلون الطاقات وتمدون جيرانكم بالمساعدات بحجة

مقاومة السياسة الاستعمارية الأمريكية ، وهذا فى نظر أعدائكم استعداد للحرب . . وللدمار . . وللخطر الأكبر الذى يهدد البشرية . .

قال :

— وهل تريدنا أن نعايش أعداءنا . . ؟ لو فعلنا ذلك لكنا كالطبيب الذى يعايش الميكروب بدلا من أن يعايش المريض . ! إن دفاعنا عن السلام كدفاع الطبيب عن الصحة . . ويجب علينا أن نحافظ على قوتنا البدنية لكى نطرد الميكروب من حياتنا . . ويجب علينا أن نستعد ونقوى لكى لا يتسرب الميكروب إلى دمائنا . .

قلت له :

— ولماذا تخصون الاستعمار الأمريكى وحده بالهجوم . . ؟ أليس هناك استعمار إنجليزى ، واستعمار برتغالى ، واستعمار فرنسى . . ؟

قال :

— نحن نقاوم كل أنواع الاستعمار . . ولكن يجب أن نضرب رأس هذه الأنواع كلها ، ونعنى به الاستعمار الأمريكى ، إن خطر الاستعمار الأمريكى هو أكبر الأخطار بالنسبة للبشرية كلها . .

ثم سكت محدثى قليلا ليشرب فنجانا آخر من شاى الصين الخالى من السكر وقال لى :

— أريد أن أضيف إلى كلامى نقطة أخرى . فمنذ أن تأسس ما يسمى بمجلس السلام أو « حركة السلام » فى عام ١٩٤٩ كنت بنفسى أساهم بكل مايتصل بهذه الحركة من نشاط . لقد انتخبت عضواً فى المجلس المذكور ، واشتركت فى جميع المؤتمرات التى دعا إليها أو لبى دعوتها . وقد سار هذا المجلس فى الطريق السليم حتى عام ١٩٥٦ واستطاع أن يفضح أعداء السلام فى العالم . ولكن الأمور بعد عام ١٩٥٩ سارت على غير ما نشتهى .

عندنا وقع مؤتمر السلام فى قبضة « خروشوف » وتأثر بسياسته وانحرف عن الخط السليم . وتبعه فى ذلك عدد من منظمات العمال والتلامذة فى العالم . وكان واجب الوفد الصينى فى كل مؤتمر عقد بعد ذلك أن يشن حربا لا هوادة فيها على هذه السياسة «الخاطئة» التي يدعو إليها خروشوف ومؤيدوه ، وقد نتج عن ذلك انقسام خطير فى هذه المؤتمرات والمنظمات الدولية ، مما أثلج قلوب المستعمرين من أعداء السلام . . إذ أن أقصى ما تمناه أعداء السلام هو انقسام المعسكر الذى يدعو إلى السلام ، ولكن ، وقد سقطت « الخروشوفية » أصبح شعورنا قويا بأن « حركة السلام » ستعود إلى طريق الصواب ، وأن الجهاد الشيوعى الصادق فى كشف حقيقة أعداء السلام سيعود قويا كما كان قبل عام ١٩٥٦ . . »

وهكذا أيضاً يتضاعف الحقد بكل معانيه ضد المعسكر الغربى . .

هكذا لا أرى فى « مستقبل » العلاقات بين واشنطن وبكين ، إلا كل مالا يدعو إلى . . التفاؤل . . أو الاطمئنان .

وأسأل نفسى :

— أليست الرأسمالية العفنة نفسها هى التى أوصلت الصين إلى أحضان الشيوعية . . ؟

كان كارل ماركس يقول إن « الرأسمالية تحفر قبرها بيدها » ! وقد قرأت هذا المعنى بكلمات أخرى على لسان الدبلوماسى الأمريكى الشهير « جورج كينان » فى كتابه الأخير : « روسيا والغرب فى عهد لينين وستالين » يقول : « ليست الشيوعية هى التى حطمت النظام الأوروبى القديم كما كان فى الثلاثين والأربعين وبالتالى سلمت النصف الشرقى من أوروبا إلى اليد الحمراء . . وإنما « هتلر » هو الذى فعل ذلك . ! كذلك ليست موسكو ، ولا حتى واشنطن هى التى دفعت بالصين إلى أحضان الشيوعية . . إن الذى فعل ذلك هى . . دولة . . اليابان . !! »

وقد حاول وزير الخارجية الأمريكية يومذاك ، المستر «دين أتشسون» فى بيانه أمام الكونجرس الأمريكى عام ١٩٤٩ أن يبرر موقف بلاده من النتيجة، ويبرئها من المسئولية التى أطاحت بالصين فقال بالحرف الواحد :

«إن الحقيقة المؤسفة أن نتيجة ما آلت إليه الحرب الأهلية فى الصين كان فوق طاقة حكومة الولايات المتحدة . . ولم يكن فى استطاعة كل ما قدمناه ، وكل ما كنا سنقدمه ، أن يبدل من تلك النتيجة شيئا . . إن العوامل الصينية الداخلية التى حاولت بلادنا أن تتحكم فيها ، وفشلت ، هى التى أدت إلى كل ذلك . .»

وهكذا كانت تلك العوامل فى تصويرى أقوى من كل شئ . كانت أقوى حتى من المبادئ التاريخية التى نادى بها الزعيم « صن يات صن » وجعلها المراحل المطلوبة للثورة وهى الوحدة العسكرية ، والوصاية السياسية ثم الديمقراطية الدستورية ، فقد فشل « الكومينتاج » على يد شانج كاى شك فى أن يكون « الوصى » على الشعب الصينى فجاءت قوة أكبر منه ، وأعمق أثراً ، وأوسع نشاطا ، وأكثر تدريبا . . جاءت الشيوعية . . وقامت بمهمتها على الوجه المطلوب . . ! !

ولقد حاولت عشرات المرات أن أتحسس المزيد من خطوط المستقبل فى العلاقات بين الصين والمعسكر الغربى الذى تتزعمه أمريكا ، فكان الجواب الوحيد:

— كيف نتفاهم وليس بيننا علاقات دبلوماسية ، وكيف يكون بيننا علاقات دبلوماسية وبيننا خلاف « تيوان » وكيف نتفاهم على قضية « تيوان » وأمريكا تصر على التمسك بشانج كاى شك . . ؟ وكيف نتساهل تجاه اعتراف أمريكا بشانج كاى شك إذا كان الأمر — كما نراه — سيؤدى إلى قيام صين فى الشمال . . وصين أخرى فى تلك الجزيرة الصغيرة . ؟ »

وهكذا يدور الحديث فى حلقة مفرغة ، لا أظن أنها ستجد مخرجا معقولا فى المستقبل القريب . .

أقول ذلك وأمامى مجموعة من أحدث الشعارات والعبارات التى اعتنقها شعب الصين ومضى يرددها فى كل ساعة من ساعات ليله ونهاره، شعارات جديدة تقول وكأنها تهدر كالرعد:

« إننا نسير تحت العلم الكبير الذى يحمله ماوتسى تونج » . . !

وتقول:

« عاشت الماركسية واللينينية الصحيحة » !

وتقول:

« عاشت وحدة وتضامن شعوب العالم » !

وتقول:

« إننا نساعد « بتصميم » الشعوب المظلومة » !

وتقول:

« إننا نجاهد « بتصميم » ضد الحرب والعدوان والولايات المتحدة الأمريكية» .

وتقول:

« أيتها الشعوب المظلومة ، اتحدى . ! »

وتقول:

« إننا نحارب ضد الانحراف العصرى السياسى الشيوعى ! »

وتقول:

« اعتمدوا أيها الصينيون على أنفسكم » !

وتقول:

« يا شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . . اعتمدوا على أنفسكم واتحدوا وحطموا الاستعمار . . » !

لقد قرأت كل هـذه الشعارات مرسومة بالحروف الحمراء الضخمة فى الشوارع ، وعلى الجدران ، وعلى أبواب المصانع وفى الميادين . . .

وسمعتها من المئات . . بل من الآلاف . . !

ورأيتها أمامى تمثل فى المسارح والنوادى والمدارس . .

فما من رواية شاهدتها فى الصين ، أو تمثيلية ، أو أوبريت ، إلا وكانت أحداثها — كلها — تدور عن ظلم الاستعمار أو حروب الصين أو انتصار الشيوعية ! رواية عن حرب كوريا . . رواية عن حرب فيتنام . . رواية عن لاوس . . رواية عن الغزو اليابانى . . رواية عن خيانة شيانج كاى شك . وعندما عدت إلى صالون الفندق وفتحت جهاز التليفزيون بحثاً عن رواية حب ، وجدت أمامى رواية عن حياة . . ماوتسى تونج . !

يضاف إلى ذلك سلسلة من « الشعارات » الخاصة بفترات أو مراحل خاصة مرت أو تمر بها البلاد . .

مثل ذلك ما رأيته على صدر ذلك الجندى الصينى الذى مشى بجانبى يتسلق سور الصين العظيم وقد تأبط « شهادة » مطبوعة ، وضعها ضمن إطار خشبي وحملها برفق وعناية ، وعندما سألته عن تلك الشهادة ، قال إنها شهادة « الحسنات » قلت له : وما هى « حسناتك » يا رفيقى ، قال : لقد آمنت وفزت بالمبادىء الأربعة التالية :

١ — كانت مبادئى السياسية ، حسنة . . »

٢ — كانت إصاباتى للهدف . . حسنة . . »

٣ — كانت عملية قيامى بواجباتى الحربية . . حسنة . . »

٤ — كنت أؤمن بالعبارات الثلاث . . ؟

قلت له : وما هى تلك العبارات الثلاث ؟

قال : أولها الإصرار على قيادة سياسية حازمة ، وثانيها التميز بأسلوب حربى استراتيجى متطور . وثالثها القيام بطريقة جدية وحيوية فى تنفيذ الواجبات .. !!

ثم سمعتهم يتكلمون عن حكمة يسمونها « الأنتيز Antis أى : الضد .
ضد من ؟

ضد ماذا ؟

سألتهم ؟ فقالوا :

— كان ذلك خلال الخطة الخمسية الأولى ، وكنا قد أطلقنا شعارات معينة تهدف إلى محاربة الرأسمالية وأعوانها من أمثال :

١ — الذين يسرقون أموال الدولة ..

٢ — الذين يرشون موظفى الدولة ..

٣ — الذين يتهربون من دفع الضرائب ..

٤ — الذين يغشون فى تنفيذ عقودهم مع الدولة أو يسرقون المعلومات الاقتصادية للانتفاع الشخصى ..

وبعد ذلك أطلقوا شعارات أخرى أسموها : البنود الحمراء الثلاثة ، وهى بالتفصيل :

أولا — تنفيذ الكادر العام للسياسة الاقتصادية فى بذل أكبر الجهود من أجل الحصول على أحسن وأسرع وأعظم النتائج ..

ثانياً — بناء الكوميون كقاعدة اشتراكية ..

ثالثاً — أن نضاعف سرعتنا فى بناء مجتمعنا الاشتراكى ، لكى نتفوق على سرعة أعدائنا الرأسماليين فى بناء مجتمعاتهم .. »

ثم أطلقوا شعاراً جديداً يقول :

« انشروا الثورة العالمية من أجل العالم » ..

لماذا .. ؟ قالوا لى :

— هذا الشعار لكى ننقذ أولادنا والجيل القادم من الانحراف المبدئى الذى أصاب يوغوسلافيا وخروشوف وبعض قادة الشيوعية فى العالم . !

إننا نريد أن نوقظ ضمير الجيل الجديد لكى يعرف الظلم ، والمظلومين ،

والاستعمار ، والحقائق ، والصديق ، والعدو ، فيكون ذلك وحده ، الحارس له من الانحراف . . .

قلت لهم :

— هل تعنون أن « الحقيقة » وحدها هى السلاح القادر الوحيد لكى يمنع الجيل القادم من الانحراف . . ؟

قالوا :

— هذا هو ما نرجوه بالضبط . .

قلت :

— ومن أعلن هذه الحقيقة .. ؟ من هو الحكم العادل على .. حقيقتها ؟

قالوا :

— زعماؤنا . . قادتنا . . حزبنا . ! أن ماوتسى تونج لم ينجح ، ولم يصبح شيئاً إلا لأنه استطاع أن يقنع الجماهير بالحقيقة التى اعتنقها . إن نجاح ماوتسى تونج لا يعنى سوى نجاح الحقيقة . .

وبعد . .

لا لزوم للنظارات المكبرة كى ينفذ المرء إلى الغيب المجهول بالنسبة لعلاقات العالم ، مع الصين ، أو علاقة الصين مع العالم . .

يكفى المرء . . أن يزور الصين .

. . حتى يفهم كل شىء . !



الفصل الثانى عشر

ثلوج سيبيريا

« الحب ، هو تنفيذ القانون » . .
مثل رومانى

« ولكن . . أين ثلوج الأمس ، أينها الثلوج ؟ »
الشاعر الفرنسى « فيلون »

« ليس هناك امرأة قبيحة . هناك امراة لاتعرف كيف تبدو جميلة ! »
الكاتب الفرنسى « لابروير »
١٦٩٦



كانت رفيقتى « لى » المثل البشرى الحى للتجربة الشيوعية فى الصين . .

ولم تكن جميلة ، وإنما كانت نضرة مليئة بالحياة . كانت جاذبيتها تتجلى فى صراعها لكى لا تبدو . . جذابة . . فقد ارتدت « لى » الجاكت الأزرق المقفول ، والبنطلون الأزرق المهلهل ، ولم يعد يبدو من معالم أنوثتها إلا حرصها على ألا تبدو . . أنثى . !

وكان أول لقائى مع « لى » فى مطار بكين عندما استقبلتنى مع منتصف الليل وفى يدها باقة زهور قدمتها وهى تتمتم وسط صفير الريح الباردة المحملة بالثلوج ، بكلمات الترحيب التقليدية . .

ثم عرفت أنها ستكون مرافقتى الدائمة فى الرحلة لأنها تجيد التحدث باللغة الإنجليزية . .

وكانت لى متزوجة . . ولكن زوجها يقيم فى شنغهاى ، حيث يعمل هناك فى التدريس ، بينما تقيم هى فى بكين . . وعندما سألتها كيف تقدر على مفارقته ، أجابت :

— ولكنى أراه لمدة عشرة أيام فى كل سنة . . !!

وهززت رأسى ساخراً من كلامها فإذ بها تكمل قائلة :

— عشرة أيام تكفى لكى نتمتع بزواجنا . . إن النظام الشيوعى يعرف ذلك تماماً وتلك ميزة كبرى من مزاياه . . . !

ولم أجب ، وإنما سألتها :

— وهل تحبين زوجك يا . . « لى » ؟

أجابتنى :

— بالطبع . ! لقد مضى على زواجنا مدة عام واحد فقط ، قضيت معه منها أكثر من عشرة أيام . . !!

قلت :

— والأطفال . . ؟ هل تحبين الأطفال . . ؟

قالت :

— لم ننجب أطفالا إلى الآن .. ولا أظن أننا سننجب فى القريب العاجل.. إن الوقت لم يحن بعد لكى أصبح أماً ويصبح زوجى أباً . .

قلت وكأنى أستخلص الكلمات من فمها الصغير بالقوة :

— ومتى يحين ذلك الوقت لكى تصبحى أماً . . ؟

قالت :

— عندما أؤدى قسطى من الواجب كاملا فى خدمة الدولة ، أستطيع بعدها أن ألتفت إلى تربية الأطفال . .

وتطلعت إلى وجه « لى » فإذ بها تحدق فى بعينيها الصافيتين وقد انكمش فمها الصغير حتى كاد يختفى ، واستراحت عضلات وجهها وكأنها تنام ، وقالت وهى تنظر إلى أظافر أصابعها التى أهملتها « لى » فأضفت عليها نوعاً شاذاً من الجمال الغريب :

— وأنت . . هل أنت متزوج . . ؟

قلت :

— أجل . .

قالت :

— وهل عندك أطفال . . ؟

قلت ضاحكا :

— أنا أديت واجبي — قبلك — فى خدمة الدولة . . كاملا . !

ولم تضحك « لى » وهى تسألنى فى جد غريب :

— كم طفلا . . ؟

قلت :

— ولدا . . وبنتا . .

قالت :

— وهل تحب الأطفال . . ؟

قلت :

— بل أرى فيهم ظل الله على الأرض . !

قالت :

— ماذا تعنى بكلمة الله . . ؟

قلت :

— الخالق . . الذى فى السماء . .

وضحكت « لى » وقالت :

— وهل هناك شيء كهذا . . عندكم . . ؟!

قلت وكان عقرباً خفياً قد لدغنى :

— إن الله موجود فى كل مكان . . عندنا .. وعندكم . . على السواء . .!

قالت :

— لا أظن أن له مكان عندنا . . إن مكانه عند العجزة وحدهم . . !

قلت :

— بل أنتم الذين لا ترونه . .

قالت :

— ربنا هو لينين وماركس . .

قلت وأنا أضغط على حروف كلماتى وأحاول أن أضع أعصابى فى ثلاجة :

— إن معنى هذا أنكم تتبرأون من خمسة آلاف سنة من تاريخكم . .

قالت :

— وما علاقة ذلك بالموضوع . . ؟

قلت :

— قد يكون صحيحاً أن المسيحية كانت محرمة عليكم إلى أن جاء الإمبراطور « كانج سى » عام ١٦٦٥ وسمح لرجال الدين المسيحى بممارسة مسئولياتهم .. ولكن الصحيح أيضاً أن الصين لم تكن يوماً دولة بلا دين .. أى دين .. حتى دين كونفوشيوس . . !

قالت :

— ولكن الدين المسيحى لم يدخل علينا إلا مع الأفيون على أثر انتصار عرش « مانشو » بمساعدة القوى الاستعمارية وإرغامنا على فتح أبواب بلادنا للمسيحية . . وللأفيون معا . !

قلت فى حنق :

— وهل ننسى أن البعثات البروتوستانتينية والكاثوليكية إلى الصين هى التى أدخلت إليكم العلوم الغربية ، والطب ، ومختلف الآداب . ؟ هل ننسى جامعاتها وكلياتها ، ومعاهدها التى أنشئت فى هذا القرن . . ونهاية القرن الماضى . . ؟ هل ننسى تيارات الفكر الحر التى حملتها إليكم . . ؟ هل ننسى الآلاف من مفكرى المسيحية الذين هجروا بلادهم من أجل خدمتكم ؟ هل ننسى المستشفيات التى بنتها المسيحية وزودتها بالأطباء والممرضات والأدوية وجعلتها فى خدمة شعب الصين ، بالمجان . . ؟

قالت لى :

— لا .. لن ننسى كل ذلك ، ولكننا لن ننسى أيضاً أن تلك البعثات الدينية « التبشيرية » هى التى تحالفت مع الاستعمار ضدنا .. وهى التى تحالفت مع شانج كاى شك وطالبت بالتدخل الأمريكى المسلح ضد ثورتنا فى عام ١٩٤٩ .. وهى التى انتقمت قبل ذلك من ثوار « بوكسر » عام ١٩٠٠ لقيامهم بالثورة ضد الاستعمار . . وعلقت على المشانق عشرات بل مئات من شباب الصين فى المنطقة الشمالية . ! ثم لا ننسى ما كانت تمتلكه تلك البعثات الدينية من مبان وأراض ومنشآت تقدر قيمتها بملايين الدولارات بينما أعطى أصحابها نوعا من العيش يختلف عن حياتنا . . يختلف عن مفهومنا . . عن تفكيرنا . . ! بل إن بعض تلك البعثات كانت ترفض أن تدفع أية ضريبة على أملاكها للدولة ، بحجة أنها مسئولة فقط إلى الدولة الأجنبية التى تنتمى إليها . !

وسكتت « لى » قليلا قبل أن تقول :

— إذا كان شعورنا الحالى هو الشعور العدائى نحو الكنيسة ، فإن شعور الكنيسة نحونا لم يكن أقل عداء . . ولا أقل كراهية !

قلت لها :

— ولكنك تتحدثين بلغة السياسة ، وأنا أحدثك بلغة . . الله . .

قالت :

— الإيمان بالله لا يتمشى مع الماركسية العلميه . . وأنا ماركسية . !

قلت :

— هل العلم يتعارض مع الإيمان بالله . ؟

قالت :

— الماركسية الحديثة هى الحقيقة العلميـة المتطورة . . بينما الدين — أى دين — هو الماضى المتحجر . . !!

قلت لها :

— هل أفهم من حديثك أن الكنائس قد أقفلت أبوابها فى الصين ؟

قالت :

لم يبق — على ما أعتقد — أكثر من مائة قسيس من مجموع الخمسة آلاف وخمسمائة قسيس أجنبي !

قلت لها فى ذعر :

وأين ذهبوا . . ؟

قالت :

— بعضهم سافر . وبعضهم ترك خدمة الدين . . وبعضهم مات . . وبعضهم فى السجون بتهمة التجسس . !

وهنا قررت أن أنهى حديثى عن الدين مع « لى » ولم أعد أطرق هذا الموضوع من بعيد أو من قريب إلا عندما التقيت بشاب باكستانى خارج من مكتب شركة الخطوط الباكستانية فى شنغهاى وبادرته بالتحية الإسلامية المعروفة : « السلام عليكم » وإذ بالباكستانى يرد على الفور : « سلام عليكم » وسألتنى « لى » ماذا قلت له ؟ أجبتها بأنى قد بادلته التحية الإسلامية قالت : وهل تعرفه ؟ قلت : لا . . قالت : وكيف تحيي شخصا لا تعرفه ؟ قلت : هذا هو الإسلام . . قالت : هل الإسلام يسمح لكم بالتحدث مع أى شخص تلقونه فى الطريق ؟ قلت : بل الإسلام يقرب بين كل مسلم ومسلم .. إنه دين المساواة . قالت : وهل أصبح الإسلام كالشيوعية ؟ قلت : بل لعل الشيوعية عندكم قد تستطيع أن ترتقى وتصفو لكى تصبح كالإسلام . ! قالت : هل تعنى أن الإسلام جاء قبل الشيوعية . . ؟

قلت ضاحكا :

— المؤكد يا « لى » أن الشيوعية لم تأت قبل الإسلام . . !

ومضت « لى » تسألنى عن الإسلام .. ماهو ؟ ما تعاليمه . . ؟ ما رسوله ؟ ما كتابه ؟ ما نصوصه ؟ ما قصته . . ؟

وحاولت أن أجيب على أسئلتها بالتفصيل . وأستطيع أن أعترف أن «لى» كانت تستمع إلى حديثى بشغف واهتمام . إن إلحادها الظاهرى لم يمنعها من أن تحاول البحث عن الحقيقة فى دين سماوى . كانت أشبه بالمستسلم إلى حالة لا يرى ما يمنعه من الثورة عليها إذا وجد ما هو خير له منها . بل لعل « لى » قد حفظت عبارة « سلام عليكم » وأصبحت تُرددها كتحيتها لى كلما التقينا . . فى الصباح أو فى المساء . !

إلى أن كان ذات يوم ، وسألتنى لى :

— هل أعجبتك « بكين » . . ؟

ولا أعرف لماذا أجبتها بالنفى ، فإذ بها تقول فى إصرار :

— سنبنيها . . سنجعلها أحلى مدينة فى العالم . . إن الشيوعية قادرة على أن تخلق المعجزات . . إن بكين ستصبح أعظم من لندن وباريس ونيويورك !

قلت :

— وهل الشيوعية وحدها القادرة على أن تخلق المعجزات . . ؟

قالت :

— أجل . . الشيوعية وحدها هى التى أعطتنا الحياة . . وكل ما فيها كان ظلاما . ! إن إخوة الزعيم « شوته » العشرة . . قد سقطوا قتلى من الفقر قبل أن نعرف الشيوعية ! وهل تعرف من هو « شوثيه » ، هو اليوم نائب الزعيم « ماو » ورئيس اللجنة الدائمة لمجلس الشعب ، والقائد العظيم . ! إن الطفل « بنج ثيه هواى » كان يموت بأيدى الإقطاع لأنه أخطأ وكسر حلة الأفيون التى كانت مخصصة لذلك السيد . . وهل تعرف من هو اليوم « بنج ين هواى » ، إنه عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى

وأحد أعمدة النظام الحاضر . ! إن الشيوعية وحدها أعطتنا الحماية ، والمساواة والنور . . ولقمة العيش . !

قلت لها :

— هل معنى هذا أن ظلام الأمس وحده هو المسئول عن « نور » الحاضر . . ؟

قالت :

— لولا « باتستا » لما جاء كاسترو . . ولولا شانج كاى شك لما جاء . . الفجر . !

ومشينا فى الليل على كورنيش « شنغهاى » بجوار نهر « اليانكتسى » وأمامنا البواخر التجارية المرصوصة بالمئات وخلفنا المبانى الضخمة التى شيدتها بنوك انجلترا وفرنسا وأمريكا قبل الثورة ، ومن حولنا على المقاعد الخشبية الموزعة ، رأينا بعض شابات الصين ، مع بعض شبانها فى مواقف غرامية لا تخلو من معنى . .

ولم يرق المنظر لرفيقتى « لى » عندما سمعتها تقول :

— كانت شنغهاى قبل الثورة مليئة بعشرات الآلاف من النساء الفاسدات المحترفات ولكن الثورة جمعتهن جميعا إلى معسكرات العلاج والتدريب . . ولم يعد اليوم فى الصين كلها امرأة فاسدة واحدة ..!

قلت لها وكأنى أتحداها :

— ولا حتى فى مقاطعات الأقليات . .

قالت فى نرفزة :

— هناك الأوضاع تختلف . . إن رواسب الماضى قد تركت الكثير من الأمراض التناسلية ، ولكن أطباؤنا يؤكدون أنهم — خلال السنوات الخمس الأخيرة — لم يطلعوا على حالة واحدة لمرض تناسلى جديد . .

إن الشعار الطبى الذى ننشره فى مختلف أنحاء تلك المقاطعات هو : « انخص نفسك . . لانريد أن ندخل السفلس إلى الشيوعية . . تخلص منه الآن » ! !

قلت لها :

— ولماذا نفترض أن ما نرى الآن حولنا هو من تمثيل نساء فاسدات أو شباب مريض . . ؟

قالت لى :

— بالطبع لا . . إن بعض هؤلاء من العمال الذين جاءوا إلى شاطىء النهر بحثا عن الراحة والرفاهية برفقة زوجاتهن . . إن الحب المكشوف لا مكان له عندنا . . ولا حتى الحب الحرام . . لقد حاول أحد التلامذة الإفريقيين فى جامعة بكين أن يطارح فتاة صينية غرامه ، فصدر الأمر بإبعاده عن البلاد خلال ٤٨ ساعة . . وفى العام الماضى أبعدت السلطات صحفيا فرنسيا شابا لأنه حاول أن يخلق علاقة غرامية مع فتاة صينية تعمل فى الفندق الذى كان يقيم فيه . . ليس عندنا حب للبيع . ! »

قلت مقاطعا وساعة شنغهاى تدق منتصف الليل :

— وهل أنت راضية عن هذا العداء للحب . . ؟

قالت :

— أنا أحب بلدى . . والثورة . . وزعيمى .. !

قلت :

— وزوجك . . ؟

قالت :

— وزوجى . .

قلت :

— وأمك . !

قالت : أمى يحبها أبى . . !

قلت : وإخوتك . !

قالت : إخوتى يحبهم . . زوجاتهن . . !

قلت : وبقية أفراد عائلتك ؟

قالت : عائلتى هى « الخلية » التى انتسب إليها !

قلت :

— وما رأيك فى الحب نفسه . . ؟

قالت :

— شىء نعيش منه ، ولا نعيش له . . !

قلت :

— وهل نستطيع أن نعيش له . ؟

قالت :

— إذا كانت معه أشياء أخرى . . نعيش لها . .

قلت :

— مثل ماذا . . ؟

قالت :

— العمل . . الإنتاج . . الصحة . . الروح العالية . . !

قلت لها :

— وهل تحبين شرب الخمر . . ؟

قالت :

— شراب أهل الصين هو نبيذ « الماوتاى » . . وهو شرابى أيضاً . .

قلت :

— وبماذا تفكرين عندما تدخلين الفراش وتضعين رأسك على الوسادة..؟

قالت :

— أفكر كيف أستطيع أن أفوز برضى الرئيس . . ماو . . !

قلت :

— وهل كل فتاة صينية تفكر مثلك . . ؟

قالت :

— أعتقد ذلك . . وإلا لما كانت صينية !

ومضت أيام . .

ومشيت مع « لى » فى ردهات القصر الإمبراطورى الصينى الذى بنته فى ضواحى بكين الإمبراطورة « دوجا تسى زى » من سلالة الإمبراطور « شينج » عام ١٧٥٠ فجاء آية فى فن البناء ، والزخرفة ، والرسم ، والألوان الزاهية الساحرة . .

وبينما كنا نسير على شاطىء البحيرة الصناعية التى حفرتها الإمبراطورة بجانب القصر . . وأصبحت اليوم أجمل منتزه لأهل بكين ، سمعت صوت « لى » تسألنى :

— هل تحب الأباطرة . . ؟

قلت :

— ولا الملوك . . أحياناً !

قالت :

— كان هذا القصر محرما على أبناء الشعب حتى عام ١٩٤٩ ، بالرغم من سقوط الملكية فى الصين منذ نصف قرن . .

قلت :

— الرجعية هى ظل الأباطرة على الأرض . . !

قالت :

— وما رأيك فى زعيمنا . . ماو . . ؟

قلت ضاحكا :

— لقد سمعت أنه يحب السفر دوما إلى « شنغهاى » لقضاء أجازاته فهل هذا صحيح . . ؟

قالت :

— إنه يتنقل فى جميع أنحاء البلاد ، ولكنه يذهب أحياناً كثيرة إلى شنغهاى لأنه يحب الماء ويهوى السباحة . . . صيفاً شتاء !

قلت :

— ولماذا استقال من رياسة الجمهورية . . ؟

قالت :

— لكى لا يضيع وقته فى مقابلة السفراء . . والاستماع إلى خطبهم . . والترحيب بالزوار . إن شعب الصين بحاجة إلى كل لحظة من تفكير زعيمنا . !

قلت لها :

— وما هى أعظم مشكلات الصين فى الوقت الحاضر . . ؟

قالت :

— مواجهة أعدائها . . !

قلت :

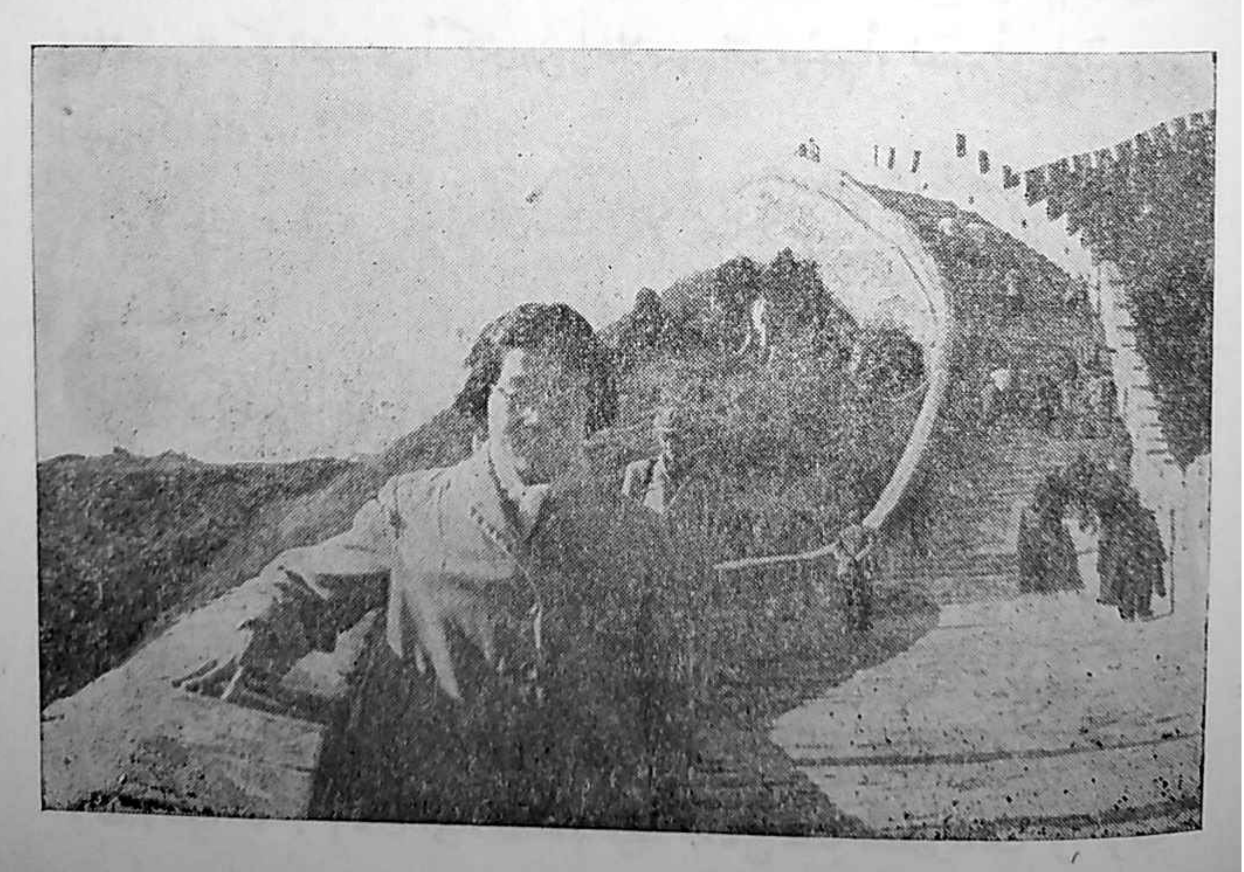
— وفى الداخل . . ؟

قالت :

— التصنيع .. والسكان .. والغذاء . . والأقليات . . !



المؤلف وسط عمال الحديد والصلب فى شنغهاى
.. يرتدى ملابسهم !



« لى » .. تهبط سور الصين !
ولها فى هذا الكتاب قصة !

قلت :

— وكيف تعالجون مشكلة الأقليات . . ؟

قالت :

— لقد نادى الزعيم « ماو » بأنه « إذا كنا نريد أن نعزل الرجعية فى مناطق الأقليات فيجب علينا أن نخلق حكاما « لتلك البلاد » ، ولذلك بنت الدولة معهداً يسمى « معهد الدراسات لطلاب الأقليات وجمعت فيه تلامذة من واحد وخمسين قومية صينية يدرسون اللغات والأدب والتاريخ والفن . . والإخلاص للوطن . . ثم يعود هؤلاء التلامذة إلى مناطقهم ويحكمون . . وقد تخرج من هذا المعهد حتى الآن حوالى سبعة آلاف تلميذ . . بعضهم من « التبت » ومن « كوريا » ومن « سنكيانج » ومن « منغوليا » ومن « هوى » . !

قلت لها :

— وباختصار فإن مهمة هذا المعهد محصورة فى تخريج حكام يكون إخلاصهم للحكم الشيوعى أكثر من إخلاصهم لقوميتهم أو لغتهم أو عاداتهم . . أليس كذلك . . ؟

ولم تجب « لى » . . رغم أن سؤالى لا يحتاج منها إلى جواب !

فسألتها :

— وكيف تعالجون مشكلة . . الغذاء . . ؟

قالت :

— نحن لا نجعل من الغذاء . . مشكلة . إننا نعتقد أن ألفى وحدة حرارية للفرد الواحد فى اليوم ، تكفى حاجته . . إن الإنجليز مثلا يعتقدون أن أدنى متطلبات الفرد فى اليوم يجب ألا تقل عن ثلاثة آلاف وخمسمائة وحدة حرارية . وهذا فى اعتقادنا خطأ . من هنا نحصر همنا فى توفير

هذه الكمية من الوحدات الحرارية للمواطن الصيني . ولكى نستطيع أن نوفر الألف وخمسمائة وحدة حرارية من الحبوب أو الغلال للفرد ، علينا أن نعمل جادين بحيث لا يقل المحصول السنوى عن مائة وثمانين مليون طن مكعب من القمح . . أو ما يوازى مثلها من البطاطا أو حبوب السويا . . مثلا . .

قلت :

— وهل استطعتم إنتاج هذا الرقم من المحصول . . ؟

قالت :

— استطعنا ذلك فى عام ١٩٥٧ . . ولكن العوامل الاقتصادية والطبيعية المضادة التى جاءت بعد ذلك قد أثرت على المحصول . إننا نسمى السنوات من ١٩٥٦ إلى ١٩٥٩ « بالسنوات الرديئة . . » أما فى عام ١٩٦٠ وما بعدها ، فقد ارتفع المحصول إلى ما فوق مائة وثمانين مليون طن فى العام الواحد . .

قلت :

— لقد قرأت هذا الرقم فى إحدى مقالات المارشال مونتجومرى بعد زيارته للصين والتى نشرها فى إحدى الصحف الإنجليزية الأسبوعية . .

قالت :

— إنه رقم معروف . . وليس سراً . .

قلت :

— والحنطة . . ؟

قالت :

— نستورد ما ينقصنا منها من كندا واستراليا . .

قلت :

— وأية نسبة تشكلها « الزراعة » فى مدخولكم القومى . . ؟

قالت :

— النصف . .

قلت :

— وفى التصدير . . ما هى نسبة الزراعة فى حجم التصدير . . ؟

قالت :

— أكثر من سبعين فى المائة من صادراتنا هى منتجات زراعية . .

قلت :

— وما هو الرقم الذى يدور حوله ميزانكم التجارى . . ؟

قالت :

— ستة آلاف مليون دولار . . كما كانت فى عام ١٩٥٩ . .

قلت :

— واليوم . . ؟

قالت :

— لا أدرى . . !

قلت :

— وما هى أهم أسواقكم فى الخارج . . ؟

قالت :

— حوالى سبعين فى المائة من صادراتنا تذهب إلى الدول الشيوعية . .

قلت :

— والواردات . .

قالت :

— كنا نستورد الآلات والمصانع ، ولكن نسبة استيرادنا لها قد انخفضت كما انخفضت — مثلا — نسبة تصديرنا للمواد الزراعية . .

قلت :

— وتجارتكم مع الاتحاد السوفيتي . . ؟

قالت :

— انخفضت فى عام ١٩٦١ بنسبة ٢٥ فى المائة عما كانت عليه من قبل .. والذين استفادوا من هذا الانخفاض هم تجار . . الإنجليز . !

قلت :

— وهل جاء مثل هذا الانخفاض بالنسبة للدول الأخرى أيضاً . ؟

قالت :

— نعم . . لقد انخفضت تجارتنا مع الدول الأخرى بنسبة النصف . !

قلت :

— لقد وجدت أن معظم المواد الغذائية عندكم ما زالت تخضع لنظام التقنين . . لماذا ؟

قالت :

— يجب أن تفهم أولا معنى التقنين كما نفهمه نحن . ! إنه ليس تقنينا متساوياً إلا فيما يختص بالأطفال . . وفيما عدا ذلك فإن عملية التقنين تخضع لنوع العمل الذى يقوم به الشخص ، ولحاجته إلى الغذاء المطلوب على ضوء ما يقرره هو حسب « ضميره الوطنى الخاص » . فبعض الأفراد يتناولون حوالى ثلاثين رطلا من القمح فى الشهر . . بينما غيرهم يستحق أربعين رطلا من القمح فى الشهر . . إن ما يستحقه عامل الأشغال الثقيلة — ومنهم المفكرون والأدباء — يزيد عما يستحقه العامل العادى . .

قلت لها :

— ولكن الأرز والحلو والألبسة..جميعها خاضعة للتقنين فى بلادكم .. ؟!

قالت :

— وماذا فى ذلك .. ؟

قلت :

— لا شىء سوى أنكم تعيشون فى ظل حالة حرب لا يعرف أحد متى تنتهى ..

قالت «لى» :

— ونحن لا نريد لهذه الحرب أن تنتهى . ! إن « الاشتراكية البناءة » بحاجة إلى تضحيات .. ونحن على استعداد لأن نقوم بتلك التضحيات . إننا لا نزعم أن مواسم الزراعة هنا أحسن منها فى أمريكا ولكننا على ثقة من أننا سنصل إلى المستوى الأمريكى إذا عملنا على مضاعفة إنتاجنا للسماد الكيمائى ، وللصناعة الميكانيكية ، ولمساحة الأرض الصالحة للزراعة .. !

و . . . .

وخرجنا من حدائق القصر الصينى متجهين إلى القصر الإمبراطورى فى قلب العاصمة . .

ورأينا الجواهر والذهب والأثاث كأغلى ما تكون مخلفات الأباطرة . . والحكام . . والطغاة . . !

وقلت لها وأنا أحدق فى المجموعات الغالية من الذهب المرصوصة أمامى :

— هذه المجموعات من الكنوز هى التى فتحت باب بلادكم . . أمام الشيوعية . .

وصمتت « لى » قليلا قبل أن ترد :

— قد تكون هذه المجموعات « من » الأسباب ولكنها ليست الأسباب ، كلها . .

قلت :

— إن فى أجوبتك ما يثبت أنك أخلص تلامذة « الحقيقة » الشيوعية . .

قالت :

— كلنا مخلصون . .

قلت :

— ولماذا لا تحاولين خوض معركة الانتخابات ودخول مجلس الشعب ؟

قالت :

— هناك مائة وستون سيدة صينية عضوات فى المجلس الحالى ، وكلهن أقدر منى . .

قلت :

— وهل يحق لكل فتاة أن ترشح نفسها للمجلس . . ؟

قالت :

— نعم . . إذا بلغت سن الثمانية عشرة من العمر . .

قلت :

— وما هو سن الزواج بالنسبة للمرأة فى نص القانون . . عندكم ؟

قالت :

— أيضا . . ثمان عشرة سنة . .

قلت :

— لقد قيل لى أن هناك مشروع قانون برفع سن الزواج بالنسبة للرجل والمرأة إلى ما فوق الخامسة والعشرين . . فهل هذا صحيح . . ؟

قالت :

— نعم . . هناك تفكير جدى حول هذا الموضوع . . حالياً !

قلت :

— ويقولون إن السبب فى ذلك يعود إلى رغبة الدولة فى استثمار الجهود البشرية من أجل الوطن ، لا من أجل . . الأطفال . . ؟

ولم تجب « لى » . .

فعدت أسألها :

— أين تعلمت اللغة الانجليزية ؟

قالت :

— لوحدى . . بواسطة الكتب الخاصة التى تعدها وزارة الثقافة والتعليم . . !

— وما عدد التلامذة فى الصين . . ؟

قلت :

— عدد جميع التلامذة لا يقل عن مائة وعشرين مليون تلميذ . . يتراوحون بين الجامعات والمدارس الإبتدائية . . !

قلت :

— وكم كان العدد عند قيام الحكم الحاضر فى عام ١٩٤٩ . . ؟

قالت :

— ربع هذا العدد . .

قلت :

— وكم عدد تلامذة الجامعات وحدها . . ؟

قالت :

— حوالى ٨١٤ ألف تلميذ فى العام الماضى . .

قلت :

— وكم عدد خريجى المعاهد العليا فى كل عام . . ؟

قالت :

— حوالى مائة ألف تلميذ . . ربعهم من المهندسين . ! لقد تخرج أكثر من ما ئتين وثلاثين ألف مهندس جديد فى الفترة ما بين ٤٩ و ١٩٦٠ . .

قلت :

— وكم عدد شهور العطلة الصيفية فى المدارس . . ؟

قالت :

— ليست عندنا عطلة صيفية . . التلامذة « يعملون » ثلاثة شهور ، ويتعلمون ثمانية شهور . .

قلت :

— والشهر الثانى عشر . . ؟

قالت :

— يضعون أنفسهم تحت تصرف المسئولين . .

قلت :

— وكم معهد للعلوم فى بلادكم . . ؟

قالت :

— فى عام ١٩٥٩ كانت أكاديمية العلوم تضم مائة وخمسة مؤسسات للأبحاث العلمية . . وفيها أكثر من سبعة آلاف باحث وأستاذ . واليوم . . لا أدرى . .

قلت :

— وما هى نسبة ما يستنفده التعليم من الميزانية العامة . . ؟

قالت :

— إننا نخصص بندا واحداً « يجمع التعليم والخدمات الاجتماعية والثقافة والعلوم » وهذه جميعها تأخذ حوالى ١٥ فى المائة من مجموع الميزانية . .

قلت :

— وبالرقم . .

قالت :

— حوالى ثمانية آلاف وستمائة وعشرين مليون يوان . . !

قلت :

— كم من هذا الرقم يذهب للتعليم . . والعلوم . . الأخرى . . ؟

قالت :

— حوالى ستة آلاف مليون يوان . . أى حوالى ألفى مليون دولار .. فى العام الواحد . . !

قلت :

— وما نسبة عدد الفتيات إلى الشبان بين تلامذة الجامعات . . ؟

قالت :

— حوالى ٢٥ فى المائة من تلامذة الهندسة . . فتيات . . وحوالى خمسين فى المائة من تلامذة الطب ، فتيات . .

قلت :

— وهل عندكم أساتذة أجانب . . ؟

قالت :

لقد استعنا بمجموعة من الأساتذة السوفيات من أجل بناء نظامنا الجامعى، وكان عدد هؤلاء الأساتذة حوالى ستمائة أستاذ . . وكذلك استعنا بعدد من الأساتذة الألمان والهنود والتشيكوسلوفاكيين . .

قلت :

— وأين يوجد هؤلاء الأساتذة ، اليوم . .

قالت :

— عادوا إلى بلادهم باستثناء مائة منهم ما زالوا يعملون فى الصين . .

قلت :

— وكم عدد الكليات والجامعات فى كل الصين . . ؟

قالت .

— إننى أحمل معى إحصاءات عام ١٩٦١ وهى كما يلى : هناك واحدوستون جامعة عامة . . ومائتان وسبعون جامعة للهندسة . . ومائة وخمسون جامعة للطب . . وتسع وتسعون جامعة للزراعة . . وخمس جامعات للغات الأجنبية . . وخمس جامعات للاقتصاد والمال . وثلاث وثلاثون جامعة للفنون والدراما والموسيقى . . وتسع وعشرون جامعة للقانون والسياسة . . وعدد الأساتذة فى هذه الجامعات يزيد على مائة ألف أستاذ . . !

قلت :

— وماهى نسبة الأمية فى الصين اليوم . . ؟

قالت :

— وزير المعارف يقول إن الأمية فى المناطق الريفية — حاليا — تتراوح حول ٦٦ فى المائة ، بينما لا تزيد فى المدن عن ٢٥ فى المائة . .

قلت .

— وكم كانت هذه النسبة فى عام ١٩٥٧ مثلا . . ؟

قالت :

— فى تلك السنة أعلن الرئيس شوان لاى « أن الأمية فى الصين تصل إلى حوالى سبعين فى المائة . . »!

قلت :

— وما هو الهدف الأول للتعليم فى بلادكم . . ؟

قالت :

— أن يكون العلم فى خدمة . . الإنتاج .

وخرجنا — لى وأنا والمرافقون — من أسوار القصر الإمبراطورى متجهين إلى زيارة أحد الكوميونات بجوار بكين . .

وعادت التكشيرة المصطنعة تملأ وجه « لى » وتجردها من كل معالم الأنوثة والرقة . .

لم أدر سر تلك التكشيرة المزيفة . . الضائعة !

ولم أحبها . .

وكم تمنيت لو أن عارضاً مفاجئاً يقفز فوق رؤوسنا من المجهول وينتزع عن وجه « لى » هذه الغلالة المزيفة من الرجولة الشيوعية الصارمة . .

فالابتسامة عند قاموس « لى » . . دلع . . منكر !

والضحكة عند « لى » . . رجعية . . محرمة !

والنكتة عند « لى » . . انحراف . . عن تعاليم الثورة !

والرقة ، والظرف ، والأنوثة عند « لى » خيانة للمبدأ الشيوعى ... !

وكان مفروضاً على أن أتقبل كل ذلك وأن أراعيه وأن لا أرى فى « لى » إلا رفيقاً فى جبهة قتال ، لا يشدنى إليها شىء ، ولا يشعرنى بوجودها جنس ، بل أطرى فيها شدتها ، وأتغزل برجولتها ، وامتدح إهمالها لنفسها ، ولمعنى المرأة الخفى قهراً فى باطنها . .

هكذا أرادت « لى » لنفسها ، وارادات للناس من حولها . .

ودخلنا مزارع «الكوميون » وأمامى لى تتقدم الصف وتمشى فى خطوات عسكرية ، وقد ارتدت القبعة الزرقاء فوق رأسها ، وشدت الجاكيت الأزرق على كتفيها ، وتركت البنطلون الأزرق مهلهلا على ساقيها وقد لمست الأرض بأطرافه الممزقة . . وعندما قال لنا مدير الكوميون :

— هل تودون زيارة القسم الخاص بتوليد البقر . . ؟

صاحت « لى » :

— لا . .

وصحت وراءها :

— أجل . . !

واستجاب مدير الكوميون إلى رغبتى ومشى أمامنا إلى حقل كبير تتوسطه عشرات من الأبقار التى حانت ساعة ولادتها . . فما أن دخلنا باب الحقل ، حتى بدأ العمال فى عملية توليد الأبقار . .

كان كل ثلاثة عمال « يضغطون » على بطن البقرة بأرجلهم ويسحبون رأس العجل بأيديهم . .

والبقرة تصيح . .

ونحن بجانبها ، نتفرج . .

وانتهت عملية توليد البقرة الأولى . . ثم البقرة الثانية . . وجاء دور البقرة الثالثة . .

وراح العمال الثلاثة يضغطون على بطن البقرة بأرجلهم ويشدون رأس العجل بأيديهم . . !

ولكن العجل رفض أن يخرج . . !

وبدأت أمامنا ولادة عسيرة رأينا العمال خلالها يطرحون البقرة أرضاً ويرفسون بطنها بأقدامهم لكى تلفظ بقية العجل من جوفها . . !!

ومضت دقائق . .

والعمال يضغطون . .

والبقرة تولول . .

ونظرت إلى وجه « لى » فرأيته ممتقعاً كسواد الليل . .

كانت نظراتها قد تحجرت ، وأعصاب وجهها قد اشتدت ، وقد حنت ظهرها وكأنها توشك أن تقع على الأرض . .

ومضت دقائق أخرى وسط خوار البقرة ، وضغط العمال ، ومشهد كله ألم . . وقسوة !

واشتد ضغط العمال ، واشتد خوار البقرة . .

وتحجرت عيوننا على المشهد لولا أن سمعنا من بيننا صوت صيحة حادة أعقبها صوت جسم يسقط على الأرض ويلتطم بالحشيش المبتل من حولنا . .

ونظرنا إلى صاحبة الجسم ، فإذ بها . . « لى » . !

« لى » . . هى التى صاحت . . وهى التى سقطت مغشياً عليها . .

« لى » . . الأنثى ، لم تقو على رؤية المشهد العنيف ، فانهارت رغم أنفها . . واستسلمت !

وحملوها إلى استراحة الكوميون . .

وعندما أفاقت من غيبوبتها . . مضت تبكى بشدة وحرارة . .

لقد أحست أنها قد فضحت مشاعرها . . وهتكت أستار أنوثتها . !

وكيف لمثلها أن تتأثر بولادة بقرة . ؟

وكيف لفتاة شيوعية . . أن تفضح شعورها . . كيف . . ؟ ؟

ولم تنقطع «لى» عن البكاء إلا بعد أن أمرها أحد المرافقين ، أن تسكت . . !

أما أنا ، فقد تأثرت بما حدث لها أكثر من أى شىء آخر سمعته منها . .

لقد تأكدت بأن المعنى الإنسانى فى قلب فتاة — مثلها — ما زال أقوى وأشد من أى ضغط . . شيوعى . . رسمى . . !

لقد عرفت أن « لى » ما زالت ، بكل خفقة حياة فيها ، مجرد أنثى . . لا تقوى على مشاهدة بقرة . . تلد . . وتتعذب . !

وعندما حاولت أن أقول لها كل ذلك ، رفضت أن تستمع لى وهى تهز رأسها بعنف وتصيح :

— غير صحيح . . ! غير صحيح !

ثم رفعت رأسها واعتدلت وأطبقت شفتيها على غصة لم تقو على إطلاقها .

ولم أناقشها . . لم أقل لها أن محاولتها ، ارتداء ثياب الرجل ، والتنكر لكل معنى من معانى الأنثى فيها ، هو الذى ينطبق عليه عبارة : « غير صحيح . . » فقد حان موعد عودتى إلى الفندق لكى أجهز حقائبى فى آخر ليلة لى أقضيها ، فى بلاد الصين . .

* * *

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، كانت « لى » وسط مجموعة من الرفقاء والزملاء تودعنى فى محطة سكة حديد . . بكين !

لقد قررت أن أقطع نصف طريق عودتى إلى موسكو بالقطار ، ونصفها الباقى ، بالطائرة . .

فقد أردت أن أرى . . سيبيريا . . !

وقبل أن يتحرك القطار ، فتح الرفقاء أحضانهم يودعوننى بالقبلات والعبارات الودية الكريمة التى اشتهر بها شعب الصين . .

وجاء دور « لى » فاحتضنتها وقبلتها . .

وقالت لى :

— عد إلينا . . ولا تتأخر . !

ولم أدر لماذا أجبتها :

— وأنت . . عودى إلى زوجك ولا تتأخرى . . !

وضحكت « لى » وبريق حاد ينطلق من عينيها الصغيرتين ، لم أعرف

هل هى دمعة فراق ، أم صيحة مكتومة لأنثى تحارب الـكبت القاتل فى نفسها .

وشكرتها . . ولثمت يدها . .

ورأيتها . . وقد تحركت عجلات القطار . . تلوح لى بيدها ، وقد هبت على رأسها موجة هواء مفاجئة فأسقطت قبعتها الزرقاء وبدأ شعرها الأسود الفاحم أشبه بإطار مرمرى أسود يلف قطعة بيضاء من ثلوج سيبيريا . . وبسحر وحنان . !

وغاب عنى وجه . . « لى » . . وإلى الأبد . .

أما قصتها ، فستبقى معى . . طويلا . . طويلا . !

* * *

من بكين إلى تسين تونج . .

ومنها — عبر منغوليا — إلى ايرهين . .

ومنها إلى دزامين . .

ومنها إلى أولان باتو . .

ثم إلى شواطىء بحيرة « اوزيرو بايكال » أكبر بحيرات الصين . .

ثم إلى ايركوتسك . . أول مدينة روسية على الحدود . .

ونزلت من القطار إلى ايركوتسك ، بانتظار الطائرة السوفاتية القادمة من بكين لـكى تحملنى إلى . . موسكو .

وتلفت حولى فإذا أنا وسط الثلوج . . البيضاء المتراكمة !

والحرارة لا تزيد على عشرين درجة تحت الصفر . .

وقلت للضابط السوفياتى الذى وقف يطلب منى جواز السفر :

— أين نحن . . ؟

قال :

— نحن على بعد ألف وسبعمائة كيلو متر من بكين ، وأربعة آلاف ، وخمسمائة كيلومتر عن موسكو . . !

ثم طلب منى أن أضع جميع ماأحمل من نقود وأوراق على المائدة أمامه . .

وسألنى :

— هل تحمل كتبا صينية . . ؟

قلت :

— نعم . . لقد أهدتنى حكومة الصين جميع مؤلفات ماوتسى تونج . . !

وهز الضابط السوفياتى رأسه وقال :

— وهل هناك شىء آخر . . ؟

قلت :

— أحمل منشورات صغيرة مطبوعة صادرة عن الحزب الشيوعى الصينى ، والخلاف الصينى — السوفياتى . .

قال على الفور :

أعطنى هذه المنشورات . .

وعندما تسلمها منى رمى بها جانبا وهو يقول :

— هذه ممنوعة من دخول الاتحاد السوفياتى . .

قلت :

— ولكننى ظننت أن خروشوف قد أعفى من منصبه . .

وتجاهل أنه فهم كلامى فسألنى فى عنف :

— ماذا . . ؟

قلت فى برود :

— لا شىء . . !

وجلست فى مبنى المطار أنتظر وصول الطائرة . .

وكل ما حولى . . ثلوج . .

وأغصان الشجر رفيعة . . موحشة . . بلا ورق ولا خضرة .. ولا أنسة أو جمال !

ونظرات الجنود حولى صارمة قاسية ، وكأنها تحرس أحد قياصرة روسيا المحكوم عليهم بالنفى إلى سيبيريا . . قبل إعدامهم . . !

ومضت ساعات خلتها أياما . .

والريح تصفر فى جنون حزين ، بينما الثلج يتساقط وراء الزجاج وكأنه يسابق الريح فى جنونها وحزنها . .

وأنا . . ؟

وقلت لنفسى :

— ما الذى جاء بى إلى هنا . . ولماذا لم أعد إلى بلادى عبر الطريق التى جئت منها إلى الصين . . ؟ لماذا اخترت سيبيريا ، وبالتالى الاتحاد السوفياتى كطريق أعود منها إلى الشرق . . ؟

وكان جوابى واضحا مفهوما :

— لأنى أردت أن أرى الجانب الآخر من الصورة التى سبق لى أن رأيت أحد جانبيها فى . . الصين . .

لأنى أردت أن أتحرى مدى ما حققه « شوان لاى » من نجاح فى كسر الثلج المتجمد بين موسكو وبكين خلال زيارته الأخيرة للعاصمة السوفياتية .

لأنى أردت أن أسمع قصة خروشوف . . وقصة من جاء بعده . . وقصة العلاقة المتضاربة بين أفراد المعسكر الشيوعى ، بعد زوال خروشوف . !

فقد كانت صور « بكين » التى عشتها بكل أعصابى وعقلى ، كلها معى :

معى الشعارات ، والنداءات ، والهتافات ، والأرقام ، والحقائق . .

معى قصة شعب بالملايين ، كان إلى الأمس مهلهلا ممزقاً مريضا مستعمرا ، فإذا به اليوم موحدا ، قويا ، حرا ، سليما ، رهيبا . . !

معى صورة « ماو » فى مطار بكين ، وهو يستقبل رفيقه وزميله شوان لاى بعد عودته الأخيرة من موسكو . . ويحتضنه ، ويقبله ويربت على كتفه مهنئاً ، وكأنه قائد الحرب يعلق وساما على رأس أركان جيشه .. المنتصر !

معى أصوات رجال الخارجية الصينية ، ابتداء من وزيرهم إلى مديرى أقسام العمل عندهم ، وهم يقولون لى :

— السلام الذى نطالب به شىء ، والتسليم أمام المؤامرات الأمريكية فى العالم شىء آخر . . !

معى صوت الخبير السياسى وهو يروى لى قصة كفاح ماوتسى تونج قائلا « . . وعندما وجد الزعيم أن قوات شانج كاى شك ، تقف حائلا بينه وبين مقاومته للاستعمار اليابانى ، قرر أن يتجاهل وجود قوات شيانج كاى شك وزحف إلى الشمال باتجاه القوات اليابانية وراح يقاتلها ويؤلب الرأى العام ضدها حتى أرغم خصمه شانج كاى شك على أن يتحرك . . وأن يتحالف معه فى الحرب ضد اليابانيين » . .

أذكر أننى قلت للمتحدث عندما انتهى من سرد قصته :

— ما أحوجنا نحن العرب إلى أن نفهم هذا الدرس وأن نطبقه فى معركة تحريرنا . . لفلسطين ! ما أحوجنا نحن أن نفهم سركم ، وأن نقتبس روحكم وأن نتعلم منكم كيف يكون الاعتماد على النفس . !

أجل ، أذكر كل ذلك . .

وأذكر حفلات رجال الصحافة لى فى مختلف المدن ، وأحاديثهم ،

وإصرارهم على أن المبادىء الخمسة للتعايش السلمى هى وحدها الصالحة لأى تعايش سلمى . .

وعندما سألتهم عن تلك المبادىء الخمسة ، قالوا :

أولا — الاحترام المتبادل للسلطة والسيادة . .

ثانياً — عدم الاعتداء . .

ثالثاً — عدم التدخل فى الشئون الداخلية . .

رابعاً — المساواة والمنفعة المتبادلة . .

خامساً — التعايش السلمى . .

وعندما سألت أحدهم عما إذا كانت موسكو ، تتقيد — حاليا — بتلك المبادىء الخمسة ، أجابنى :

— إن شوان لاى ، لم يرجع بعد من موسكو . .

وطالما مشيت فى شوارع الصين أبحث عن شارع واحد يحمل اسم ماوتسى تونج فلم أجد . .

إن هذا الزعيم نفسه هو الذى كتب فى الصفحة ١١٤ من الجزء الرابع من مؤلفاته بأنه يمنع الاحتفال بأى عيد من أعياد الزعماء ويمنع أيضاً إطلاق اسم أى زعيم على أى شارع فى البلاد . !

وطالما وقفت طويلا فى داخل معرض الأقليات بمدينة بكين ، أمام صورة زيتية كبيرة لشيخ صينى فى السبعين من العمر ينتسب إلى « توس » وقد جاء مشيا على قدميه من مقاطعة « شيغاى » لكى يرى بعينه زعيمه ماو قبل أن ينقضى به العمر . . .

وذلك الفارس من « سينكيانج » وقد امتطى جواده ، وحمل النسر على يمينه ووقف أمام « البوابة » عله يشاهد مرور زعيمه من بعيد . !

وتلك الفتاة الحلوة من قوميه « هوى » فى مقاطعة « سنج سيا » وقد عجز الزى العمالى الأزرق عن أن يخفى حلاوة شعرها ، وحلاوة جسدها وهى تقف أمام الآلة الكهربائية تراقب سير العمل فى داخل مصنع للفولاذ . .

وتلك الخادمة العجوز .. فى منزل صديقى « الدبلوماسى .. » فى العاصمة الصينية . . وقد جاءت إليه ذات يوم وقد أخفت فى حقيبتها خاتما ماسيا ثمينا وعندما اطمأنت إليه ، فتحت الحقيبة وأخرجت الخاتم وقالت له :

— هل تشتريه . . ؟

وسألها الدبلوماسى :

— من أين لك هذا الخاتم . . ؟

قالت :

— إنه هدية زوجى لى . . منذ خمسين سنة . .

قال لها :

وماذا كان يشتغل . . زوجك . . ؟

قالت :

— كان حاكما للشمال . . ثم قتل فى الحرب الأهلية . . !

قال لها :

— وأى ثمن تريدين للخاتم . . ؟

قالت :

— أى ثمن يكفل لى شراء ما أنا بحاجة إليه . .

ولم يسألها الدبلوماسى عن حاجتها ، وكذلك لم يشتر منها الخاتم ، وإنما دفع إليها ببعض المال تبرعا وإحسانا . .

كل ذلك كان معى يتدافع ويتزاحم وأنا وحيد فى مبنى مطار

« أوركوتسك » وسط ثلوج سيبيريا . أنتظر الطائرة التى ستحملنى إلى موسكو . ! بل كل ذلك كان معى ، فى مقعدى بالقطار ، منذ أن تركت بكين ، إلى أن غادرت الحدود الصينية .

فلم يكن سهلاً على نفسى ، أن أنسى ذكريات الصين .

« الذكريات الحلوة » وما أكثرها !

و « الذكريات المرة » وما أكثرها ، أيضا !

ما أعجبنى فيها وما لم يعجبنى ! الشعب الذى يبنى خطوط غده ، والشعب المحكوم بنظام اليد التى ترتدى قفازاً من الحديد والنار .

ولم أصح إلا على صوت ضابط المطار يقول وكأنه يصدر لى أمراً عسكريا :

— بعد عشر دقائق ستصل الطائرة التى ستحملك إلى . . موسكو !

وحاولت أن أقضى الوقت فى التفرج على بعض السلع التجارية المعروضة للبيع داخل أكشاك زجاجية صغيرة . . فإذ بهذه السلع لا تزيد على نقود تذكارية تحمل صورة « جاجارين » . . أو خواتم صخرية محفورة على صخور سيبيريا . . أو بعض الحجارة المعدنية المستخرجة من باطن الأرض . . أو حاملة مفاتيح صغيرة تحمل صورة ماركس . . ولينين . . !

ومشيت إلى كشك آخر ، فإذ به يعرض زجاجات من المياه المعدنية . .

وهكذا قررت أن أقضى الدقائق الباقية فى التفرج على أرض المطار وقد امتلأت بمئات ، إن لم يكن آلاف من الطائرات السوفياتية الحربية الصغيرة وهى تستقبل بأجنحتها الرقيقة تساقط الثلج الذى لا ينقطع . .

وأخيراً وصلت الطائرة . .

وبعد استراحة قصيرة ، أخذت فيها مكانى وسط عدد كبير من الموظفين السوفيات القادمين من بكين فى طريق عودتهم إلى بلادهم . .

وكان مقعدى بجانب عائلة إنجليزية كل أفرادها يحملون درجة الدكتوراه فى العلوم والفيزياء والذرة . . وقد كانوا يعملون فى الصين وهم الآن يعودون إلى بلادهم لقضاء فترة الأعياد . .

وقالت لى السيدة « ووستر » وهى دكتوراه فى العلوم والفيزياء بعد أن عرفت أننى كنت فى الصين ، وتذكرت أننى ذلك الشخص الذى سبق لها وتقابلت معه فى أحد فنادق بكين ، ذات صباح قريب :

— هل أعجبتك الصين . . ؟

قلت :

— إنها مدرسة . . أو جامعة . . أو مؤسسة !

قالت :

— وهل أعجبتك المدرسة . . ؟

قلت :

— لا يسئل التلميذ عن مدرسته . . بل تسئل المدرسة عن تلميذها . .

قالت :

— وماذا كنت تتعلم فى مدرسة الصين . . ؟

قلت :

— كل شىء . ! حياتهم . . أسلوبهم . . شيوعيتهم . . ثورتهم . . بعثهم . . تحررهم . ! إننى عربى ، وقد ذهبت إلى الصين لكى أتعلم من أهلها كيف حاربوا حكامهم المنحرفين ، وحاربوا معهم المستعمرين ، وانتصروا على حكامهم وعلى المستعمرين . . معاً . . !

قالت :

— ومن هم المستعمرون فى بلادكم . . ؟

قلت على الفور :

— أنتم . !

ثم حاولت أن أعتذر لولا أنها سألتنى على الفور :

— ومن هم أمثال شيانج كاى شك ، عندكم . . ؟

قلت :

— مش ضرورى . . فلا داعى للإحراج !

قالت :

— هل تعرف ماذا قال أفلاطون عن الحكم ؟ ؟ قال أفلاطون :

« الديمقراطية طغيان . . والحكم فن . . ويجب على الفلاسفة أن يصبحوا ملوكا ، أو يصبح الملوك فلاسفة » . .

قلت :

— لقد أصبح الفلاسفة فى الصين . . ملوكا . !

قالت :

— وأصبحوا أيضاً أنصاف آلهة . . !

قلت :

— بل إن ماوتسى تونج — فى نظر الصينيين — إله كامل . !

قالت :

— وما الذى لم يعجبك فى الصين . . ؟

قلت :

— أنا ذهبت بدعوة من رجال «الصحافة والقلم» فى الصين ، وقد أعجبنى عندهم الكثير ، ولكن على رأس « مالم يعجبنى » فيهم هو أسلوب العمل بالنسبة للصحافة ولأهل القلم عندهم . .

قالت :

— لعلك لم تفهمهم . ! أن لهم عالمهم ، ولنا عالمنا . . عالمنا يقول إن على الصحافة أن تعالج العالم كما هو ، وأن تعكس صورة عن الحقائق القائمة . بينما عالمهم يفرض على الصحافة عندهم أن تساعد فى القضاء على رواسب الماضى .

قلت :

— وأين الحرية فى كل ذلك . . ؟

قالت :

— هنا أيضاً نختلف معهم . . هم لا يفهمون الحرية فى أن تكتب كما تشاء . . بل فى التعبير عن الرغبة الوطنية لبناء مجتمع يتساوى فيه الناس ، ويعمل فيه كل فرد لمنفعة المجموع لا لمنفعة نفسه فقط !

قلت :

— ما أكثر ما قالوا لى : « لو أنك عرفت الصين ما قبل الثورة لما طالبتنا الآن بما تسميه حرية الفكر » . إنهم ينادون بأن « حرية » ما قبل الثورة ، كانت تعنى الجوع ، والاستعمار ، والمرض ، والحاجة ، والذل ! وهم يقولون أنهم يملكون الآن حرية أصيلة ثابتة وضرورية ، اسمها : حرية الحياة !

قالت :

— هكذا قالوا لى أيضاً ! . إنهم يعتقدون أن أقلامهم حرة فى أن تكتب كما تشاء بشرط أن تقبل المبادىء الأساسية للمجتمع الشيوعى الجديد . .

قلت :

— وماذا بقى لها بعد أن تقبل المبادىء الشيوعية الأساسية . . ؟ !

قالت :

— هنا ينطبق المثل : « خذها كلها أو اتركها كلها » . . إما أن تؤمن — أصلا — بالوضع القائم وتتعاون معه ، أو . .

وهزت السيدة الدكتورة يديها وقالت :

— أو تموت !

قلت :

— ولكن الدولة كما رأيت لم تبخل على رجال القلم عندها بالعطاء . لقد رأيتهم يركبون السيارات الفاخرة ، ويدخنون السيجار الهافانا الأصلى ، ويشتركون فى أغلى الحفلات وأكثرها كلفة .

قالت ضاحكة :

— هذا أقل ثمن يمكنهم الحصول عليه بعد التخلى عما هو . . أثمن !

وتشعب الحديث وتنوع . . والطائرة تصفر فى رهبة وكأن محركاتها قد انتقلت إلى أحضاننا . ! والأرض تحتنا بحر أبيض مخيف تكاد تخلو منه الحياة . . وانطلق صوت القائد ينادى بالروسية . « سنهبط بعد قليل فى مطار « نوفنر سبرك » أكبر مطارات سيبيريا ! . .

وقالت لى السيدة :

— لقد مررنا فوق « أومسك » . . أكبر مدينة فى « منتصف » سيبيريا . . إنها مصدر الوحى لعشرات من القصص والروايات العالمية . عن حياة ومصير القياصرة ! ألم تسمع عنها ؟

ولم تمض دقائق حتى وجدنا أنفسنا وسط سهول أخرى من الثلوج ، ودرجة الحرارة — كما قيل لنا — ثلاثون تحت الصفر . .

وكان المفروض أن نقضى فى المطار مدة نصف ساعة ثم نستأنف السفر إلى موسكو . . ولكن التعليمات المفاجئة قد جاءت تقول إن الأحوال الجوية السيئة لن تسمح لنا بالسفر قبل مرور ست ساعات . .

— لماذا . . ؟

— لأن عواصف ثلجية تنتظرنا على طول الطريق إلى موسكو . !

وهكذا انتقلنا من مطار نوفنرسبرك إلى أحد فنادق المدينة ، وسط سيل لا ينقطع من تساقط الثلوج . .

وهناك ، قيل لنا إن عدد الغرف الخالية فى الفندق ، محدود ، وأن علينا أن نشرك كل ثلاثة . . فى غرفة واحدة . .

وهكذا وجدت نفسى مرة أخرى ، وسط تلك العائلة الإنجليزية التى رافقتنى بالطائرة ، نعاود الحديث عن . . الصين !

وقال لى عميد العائلة — وهو كزوجته يحمل رتبة الدكتوراه فى الفيزياء والعلوم من جامعة كامبردج . .

— لقد لاحظت أن « الواقعية » — وحدها — هى سر هذا البلد العظيم ! فالواقعية هى التى تدفعهم للعمل . بل الواقعية هى التى تدفعهم للتفكير الذى يسبق العمل . هم يقولون مثلا : إذا لم نبن سدا للمياه فى المكان الفلانى فمعنى هذا أن مياه الأمطار فى الموسم القادم ستتجمع وتهاجم الحقول وتقتل آلاف الماشية وتشرد آلاف السكان ، وهكذا — مثلا — ذهبوا إلى ما يسمونه بموقع « مينج شومب » على بعد خمسين ميلا شمالى بكين وأقاموا هناك سداً كبيراً هائلا فى مدة . . عام واحد !

وسألنى الدكتور الإنجليزى :

— هل زرت موقع ذلك السد . . ؟

قلت له :

— بالتأكيد . ! وقبل أن نصل إلى الموقع المذكور كان حرص مرافقى شديداً لكى يؤكد لى أن زعماء الصين وعلى رأسهم ماوتسى تونج ، وشوان لاى قد اشتركوا فى عملية البناء . .

فقهقه الدكتور قائلا :

— تلك هى طبيعتهم .. لقد استطاعوا بواسطة ذلك السد أن يحبسوا أكثر

من أربعمائة مليون متر مكعب من المياه سنويا . . بواسطة سد واحد أقاموه في عام . . واحد !

قلت له :

— وقد لاحظت أنهم يسلكون في بناء سدودهم نفس الأسلوب الذي سلكناه نحن في بناء السد العالي . . أعني أنهم يستعينون بالمواد المحلية ، صخرية كانت أم ترابية ، ويعتمدون عليها ويستعملونها في عملهم . .

قال :

— ليس ذلك بالنسبة للسدود فحسب ، بل هم يعتمدون على أنفسهم في كل عمل آخر يقومون به في الصناعة وفي الأبحاث العلمية وفي سائر أوجه نشاطهم . . ألم تسمع بشعارهم الذي انطلق كالصاروخ ينادي « بالاعتماد على النفس » ؟ إن هذا الشعار هو الذي مكنهم من نشر عشرات بل مئات من المراكز الصناعية في أنحاء البلاد . . والذي جعل الصين ثاني أكبر دولة لتصدير الحديد في العالم ، وأول دولة لإنتاج « الطنقستين » في العالم . ! بل إن هذا الشعار هو الذي مكنهم من البحث عن البترول حتى عثروا عليه في منطقة « ووسو » إلى الشمال الغربي ، وفي منطقة « تسايدم باسين » في الوسط ، بعد أن حبست موسكو عنهم البترول عام ١٩٥٩ وتركتهم بلا نقطة واحدة منه يديرون بها مصانعهم . . »

ثم سكت الدكتور العالم لكي يعود ويهمس في خوف :

— وياويل العالم يوم يقرر الصينيون نفض أيديهم تماما من العالم ، والاعتماد — مائة في المائة — على أنفسهم . عندئذ سنجد الصين أعظم دولة لإنتاج الزنك ، والحديد ، والرصاص والفحم واليورانيوم والفولاذ . . ! وعندئذ ستعمد الصين إلى إصلاح كل شبر من أراضيها ويتضاعف عشرات المرات ما تنتجه من أرز ، وقمح ، وحنطة ، وشاى ، وخضراوات .! عندئذ

— أخيراً وليس آخراً — سينفذ الجيش الصينى أمر ماوتسى تونج بأن « يقوم الضابط بتعليم الجندى ، ويقوم الجندى بتعليم الضابط ، ويقوم الجندى بتعليم الجندى ، حتى لا تقدر قوة فى العالم أن تصمد أمام جيش الصين . . »

قلت له :

— وفى تصورى أن ما يضاعف من رهبة الموقف هو أن الصينى — أى صينى — لا يعترف بوجود . . مشكلة . ! لقد حددوا له مأكله ، وقننوا طعامه من القمح والأرز والبطاطس بما لا يزيد عن ٣٥ رطلا فى الشهر . . ومع ذلك لم يتأفف . وجعلوا موعده مع أكل اللحم لا يزيد على أربعة أو خمسة أيام فى السنة هى أيام الأعياد . . ومع ذلك لم يشك . ! وحرموه من ركوب السيارات ، فركب الدراجة العادية « البسكيلت » ومشى بها فوق الثلج والمطر والزمهرير . . ولم ينبس بكلمة . ! لقد رأيت مئات من مختلف أنواع المجتمع الصينى فى عشرات من القرى والمدن ولم أسمع صينياً واحداً — يتحدث عن أزمة لحم ، أو أزمة مواصلات ، أو أزمة عمل — وإنما سمعت المئات يتحدثون معى عن « أزمة الحرية » فى فيتنام الجنوبية . . وعن « أزمة . . العدالة والحق » فى أمريكا !

وهز الدكتور البريطانى رأسه موافقاً وهو يقول :

— لقد سمعت عمدة جامعة بكين يقول لى عندما التقينا به لأول مرة فى معرض حديثه عن تاريخ بلاده : « . . وأخيراً دخلت مبادىء ماركس إلى الصين واخترقت السور العظيم . . لا لكى تلغى مبادىء كونفوشيوس وتنسف تعاليمه . . بل لكى تكملها وتمشى بها إلى الكمال وتمنحها الواقعية والنبض » ! وهذا صحيح . .

وفجأة سمعنا صوت يد تدق على باب غرفتنا وصوتا صارما يقول بالإنجليزية والروسية معاً :

— استعدوا للتوجه إلى المطار ، إن الطائرة ستقلع بعد نصف ساعة !

وارتدينا معاطفنا وهرعنا إلى الطائرة . .

وبعد ثوان معدودة ، كانت الطائرة السوفياتية النفاثة تتجه بنا وسط الضباب والغيوم . . والعواصف . . صوب موسكو . .

ومالت العالمة الإنجليزية على أذنى وقالت :

— نسيت أن أسألك سؤالا مهما : هل تفوز بلاد كالصين ، بإعجاب أناس مثلكم . . أنتم العرب . . ؟

قلت فى دهشة :

— وماذا يميزنا نحن العرب من غيرنا من شعوب العالم . ؟

قالت :

— أعنى هل تشعرون بالتقدير نحو بلد لا يراعى معنى القومية ولا يقر بوجود الدين . . ؟

قلت لها :

— أما القومية فإننا لا نعتز بها إلا لأنها مظهر قوى من مظاهر إعزازنا بالحرية وبالحق وبالنور ، وأما الدين — فإنه بالإضافة إلى كونه وسيلة لعلاقتنا بربنا — فإنه كذلك — رمز نهضتنا ، وباعث مجدنا ، وحافزنا الأول نحو الجهاد . . !

وأكملت قائلا : وكل هذه المعانى المنبثقة عن قوميتنا ، أو عن ديننا ، لمستها وعشتها حية قوية خلال وجودى فى الصين . لقد قلت لك إننى أنتسب إلى الأسرة العربية ، ولكنى أنتسب أيضا إلى بلد جريح ، تآمرت عليه قوى الاستعمار والصهيونية فشردت أهله وطمست معالمه وبدلت اسمه وجعلت منه مثلا صارخا للعدوان الغاشم . وعندما أحاول أن أتحسس طريقى فى محاولة الثأر

لبلدى من الذين قتلوه . . أو استعادة عروبته من الذين سرقوها . . أقول عندما أحاول أن أعود لوطنى أو أعيد وطنى لى ، لا أملك إلا أن أشيد بالفهم والتقدير والإدراك للخطة الواقعية الرشيدة ، التى وضعها أمامى ، وأمام الملايين من أمثالى ، زعيم الصين الحديثة ماوتسى تونج فى مختلف مؤلفاته وكتبه ومحاضراته عن الاستعمار ، والمستعمرين ، والدول النامية والطريق إلى الحرية . إننى أذكر دوما أن « ماوتسى تونج » هو الذى طالب أمثالى من أصحاب القضايا السياسية العادلة بوجوب اختيارهم بين الرأسمالية أو — الاشتراكية لمساندتهم فى نضالهم ! وكان هذا منذ عام ١٩٢٦ . . وهذا — بالضبط — ما جعل « ماو » يحكم على زعيم كنهرو من أنه « المتعاون مع الاستعمار » . . فى عام ١٩٤٩ ، وأن يتمسك دوما بهذا الرأى بالرغم من موجات الصداقة الطارئة التى غمرت العلاقات الهندية الصينية فى مؤتمر باندونج ، وبعده ! لقد قال لى الزعيم « ماو » فى تعريفه لحرب العصابات « ما حرب العصابات ؟ إنها الأسلوب الذى لابد منه ، ولاشىء سواه ، أمام الشعوب المغلوبة من أجل إنشاء قاعدة قوية لنضالهم . لقد تشابكت عملية بناء الحزب الشيوعى ، مع العملية السياسية ، مع هذا النوع من الجهاد المسلح طيلة ثمانى عشرة سنة طويلة . . وبدون الجهاد « المسلح » ، وبدون حرب العصابات ، لن نستطيع أن نفهم أى خط سياسى أو أية عملية بناء الحزب ! ولولا الجهاد المسلح ، لما كان فى الصين اليوم أى أثر للحزب الشيوعى ، أو لقوة الشعب ، أو للشعب الصينى بأسره . ! وطيلة ثمانى عشرة سنة كاملة كانت عملية تطوير حزبنا ، وتقويته ، ومضاعفة مكاسبه تأتى من خلال انتصارات الجهاد المسلح وحرب العصابات فقط . ولولا الجهاد المسلح ، ولولا حرب العصابات لما كان هناك اليوم بما يسمى بالحزب الشيوعى الصينى . وعلى الرفقاء فى الصين وفى خارجها ، أن يذكروا ذلك دوما ، وأن يذكروا أيضا أن « الدم » وحده هو الطريق إلى . . النصر ! »

وعادت الدكتورة تسألنى :

— هل أنت شيوعى . . ؟

قلت لها للمرة الثانية :

— لا . .

قالت :

— ولكن مثل هذه الأقوال لا يحفظها إلا شيوعى . .

قلت بسرعة :

— أو . . لاجىء ! . . .

وضحكت الدكتورة وقالت لى :

— أكمل . . إننى أسمعك جيدا . .

قلت لها :

— إننى أفخر اليوم بأن بلدا عربيا « كالجزائر » مثلا ، كان إلى الأمس القريب جزءا لا يتجزأ من فرنسا ، قد استطاع أن يحصل على استقلاله ؛ وأن يعيد إلى أرضه وسمائه وأهله ، الطابع العربى الإسلامى ! وإنى إذ أذكر ذلك، أذكر أيضا نص تلك البرقية التى بعث بها الزعيم « ماو » إلى الرفيق «بوحالى» وأعضاء الحزب الشيوعى الجزائرى فى ٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٧ يقول لهم فيها :

« لقد استطاع الشعب الصينى أن يحصل على استقلاله وحريته بعد فترة طويلة من العدوان والاضطهاد وعلى يد المستعمرين . . وبالتالى أن ذلك يفتح أبواب الأمل والإيمان بالنصر أمام بقية الشعوب المضطهدة . . وإنى على يقين أن الشعب الجزائرى «بقيادة» الحزب الشيوعى الجزائرى وبمساعدة المعسكر الاشتراكى المحب للسلام والديمقراطية سينتصر على سيطرة الاستعمار ! عاشت حركة الشعب الجزائرى ، عاش انتصار جهاد الشعب الجزائرى على أعدائه !

عاشت حرية شعب الجزائر . . التوقيع : ماوتسى تونج زعيم الحزب الشيوعى الصينى . . »

وحبست أنفاسى قليلا قبل أن أسألها :

— هه . . ؟ ما رأيك . . ؟

قالت وهى تهز رأسها مرة بعد مرة :

— لا أستطيع إلا أن أوافق معك . . !

قلت :

— هذا بالضبط ما شعرت به — أنا المسلم العربى — بعد زيارتى للصين. إننى أعتز بإسلاميتى وبعروبتى . . ولكنى — إلى جانب ذلك — لاأستطيع أن أنسى أننى ذلك اللاجىء الطريد . . من بلد تآمرت عليه قوى أقوى منى، واستولت عليه . . ولا سبيل أمامى لاستعادته إلا بأن أفهم وأتبنى — بالعمل والتنفيذ— كلام زعيم الصين ماوتسى تونج .. إلى أن أستعيد حقوقى ، وبعدها من حقى أن أختار لنفسى نوع الحكم الذى يلائمنى والذى يتفق مع دينى . . ومع عروبتى ! .

ثم قلت لها :

— لعلك تذكرين أن الأمم المتحدة ، ومن قبلها عصبة الأمم ، هى المؤسسة الدولية التى « كرست » معنى النكبة فى فلسطين! ومنذ زمن طويل منذ عام ١٩٣٢ أدرك رجل كماوتسى تونج حقيقة « عصبة الأمم » وحقيقة دورها الاستعمارى الرخيص ، وذلك فى برقية بعث بها إلى رجال حزبه وقال لهم فيها : « إن عصبة الأمم هى عصبة اللصوص . . وإن مهمتها من خلال لجانها التى ترسلها إلى بلادنا محصورة فى خدمة الاستعمار وأغراضه » . .

ما أصدق ما ينطبق هذا الكلام على تلك اللجنة الدولية التى أرسلتها

الأمم المتحدة إلى بلادنا ، فسرقت منا . . فلسطين ، وأقامت دولة مزعومة اسمها : اسرائيل ! »

وانقضت الساعتان ، وأعلن قائد الطائرة أننا سنهبط بعد دقائق فى مطار « سفير دلرسك » . . منتصف جبال « أورال » ومنتصف الحد بين روسيا الأوروبية وروسيا الأسيوية . .

وانقضت الدقائق ، ووجدنا أنفسنا وسط مطار سوفياتى آخر لا يختلف عن المطار السابق فى شىء . .

الطائرات الحربية النفاثة ، بالآلاف . . موزعة هنا وهناك . .

وحرس المطار يقف على باب الطائرة . . احتياطا للطوارىء . .

والثلج يغمر المكان . .

ومضيفة سوفياتية « حسناء » تقودنا إلى استراحة المطار وعلى فمها ابتسامة حلوة شجعتنى على أن أسألها :

— كيف الطقس فى موسكو . . ؟

قالت :

— مطر وثلوج . . وستبقى الطائرة فى مكانها حتى تصلنا إشارة من مطار موسكو تسمح لكم بالسفر . !

ووجدت نفسى للمرة الثالثة ، وسط العائلة الانجليزية ، نتابع ، وللمرة الثالثة ، حديثنا عن . . الصين !

وفى هذه المرة ، قالت لى الدكتورة وهى تشير إلى شاب فى الخامسة والعشرين ، يقف بجانبنا وقد اتصلت لحيته بشعر رأسه ، وراح يدخن الغليون على طريقة أهله :

— هل تعرف ابنى « جون » . . ؟

وتقدم جون ومد يده قائلا وهو يغمز بعينه صوب والدته :

— كنت فى الصين أناديها « يا أختى » لكى أضمن رضاها . . !

وضحكت الدكتورة وهى تقول :

— إن ولدى جون — أيضا — يحمل شهادة الدكتوراه فى العلوم والفيزياء . ! وأكمل جون فى زهو كبير :

— ومن جامعة . . . كامبردج . .

وسألت جون قبل أن يسألنى :

— كيف وجدت شعب الصين . . ؟

قال وهو يشعل غليونه :

— شعب مؤدب جداً وأعصابه قوية جدا . . وفى نفسه عقدة «التفوق» على شعوب العالم . . الخادم فيه يحترم « ماوتسى تونج » كثيرا ، ولكن ماوتسى تونج يبادل الخادم احتراما أكثر وتقديراً أكثر . .

وسألنى :

— وأنت . . ؟ ما رأيك فى الشعب الصينى . . ؟

قلت :

— شعب لم يعد بحاجة إلى قانون ، لأن أسباب وجود القانون عنده ، قد تلاشت . .

قال :

— ماذا تعنى . . ؟

قلت :

لم يعد فى الصين من يسرق أو يرتشى ، أو يغتصب ، أو يزور . .

أو ينهب . . أو يكذب ، وهذا فى نظرى أرفع مستوى يستطيع أن يصل إليه شعب من الشعوب . .

قال ضاحكا :

— وإذا اصطدمت سيارة بسيارة أخرى . . فى الشارع العام . . ماذا يحصل ؟

قلت :

— يتدخل عسكرى البوليس على الفور ويحكم فى الحادثة على الفور ، ويقبل الطرفان حكم عسكرى البوليس . . على الفور أيضا . !

قال :

— وإذا دخل أحد إلى غرفتك فى الفندق ، وسرق بعض ملابسك . . ؟

وقلت :

— هذا — كما رأيت وسمعت وأحسست — لم يحدث ، ولن يحدث . . فى بلاد كالصين !

قال :

هل صادفت خلال إقامتك شخصا صينيا يشاركك استعمال غرفة الحمام ، فى نفس الوقت الذى تستعمله أنت ؟ ؟

قلت :

— أجل . . مرات عديدة ، ولكنى كنت أعالجها بالانسحاب فى الوقت المناسب . .

قال ضاحكا :

— وهل حاولت أن تسأل شخصا فى الشارع عن عنوان فندقك أو عنوان سفارة بلدك ، فكان يجيبك برفع يديه ، دون أن ينبس بكلمة واحدة ؟

قلت له :

— أجل . . حصل . !

قال وهو يقهقه :

— وهل شربت عشرات بل مئات من أقداح الشاى الخالى من السكر ، وأكلت طبق «البط البيكينى» ولعنت الاستعمار الأمريكى عشرة آلاف مرة فى اليوم الواحد . . ؟

قلت :

— أجل حصل . .

قال وكاد يقع من الضحك :

— إذن فقد فهمت سر شعب الصين . !

ومضى الوقت سريعاً . .

وجاءت المضيفة بعد ساعات تعلن عن قيام الطائرة إلى موسكو . .

وعدنا نحمل حقائب اليد ، مع آلات التصوير والسينما ، مع عشرات من الكتب والمجلات ، ونخرج إلى الهواء الثلجى العنيف متجهين إلى طائراتنا التى ستحملنا فى آخر مرحلة لنا إلى العاصمة السوفياتية . .

ونظرت إلى الخريطة المعلقة فى صالون الفندق فإذ بى أرى نفسى وقد أوشكت أن أقطع القارة الآسيوية — كلها — من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . . ومن البحر إلى البحر ، عبر ثلوج سيبيريا وأدغالها ومجهولها . . !

ولم تكد الطائرة تصعد بنا إلى الجو حتى بدأت المضيفات يقدمن لنا الكافيار والفودكا . . وعلى فم كل منهن ابتسامة تقول :

— لابد لكم من الطعام لأن الثلوج قد زحفت لأول مرة — هذا العام — إلى موسكو . .

ولم نـكد نفرغ من تناول طعامنا ، حتى كانت الطائرة تستعد للهبوط بنا .. وفى مطار موسكو . . ومع منتصف الليل . .

* * *

وأخيراً . . هذه موسكو !

. . . وفى موسكو دعانى السيد « إقبال أطهر » سفير الباكستان فى العاصمة السوفياتية إلى حفلة شاى أقامها تـكريما لى فى اليوم الثانى من وصولى.. وقد كان السيد « إقبال » سفيراً لبلاده فى البرازيل ، ثم فى بلجيكا ، ثم أصبح وكيلا لوزارة الخارجية الباكستانية وهو اليوم سفيراً لبلاده فى موسكو . .

وجلسنا ، هو وأنا ، وحدنا ، مع المدفأة ، فى صالون السفارة الـكبير نتحدث عن الصين التى كان — هو — دائماً كما قال لى ، يتمنى أن يصبح سفيراً لبلاده فيها . .

وسألنى السفير :

— هل تعتقد أنهم سيفجرون قنابل ذرية أخرى فى المستقبل القريب .. ؟

قلت له وكأن الموضوع يشدنى إلى أول فصل من فصول إنتاج الصين للقنبلة الذرية :

— إن أصدق ما سمعته وما قرأته حول هذا الموضوع ينحصر فى عبارة واحدة جاءت ضمن التقرير الشامل الذى نشرته شركة « الجنرال اليكتريك » الأمريكية فى أواخر عام ١٩٦١ حول نشاط الصين الذرى ، وقالت فيها بالحرف « ليس هناك مشكلة لا يقدر الصينيون على حلها » . ! وقد أورد ذلك التقرير — بالرقم والدراسة — أن لدى الصين من العلماء والإخصائيين مايزيد عن حاجتها لإنتاج القنبلة الذرية ، وقنابل أخرى . . بعدها !

وسألنى السفير :

— وكم يبلغ عدد هؤلاء العلماء . . ؟

قلت له :

— حسب التقرير المذكور ، والذى ظهر — كما قلت — فى أواخر عام ١٩٦١ تملك الصين نحو مائتين وعشرة آلاف مهندس ، وأربعة وأربعين ألف عالم ، منهم عشرة آلاف عالم فيزيائى وخمسة عشر ألف عالم كيمائى ، وكما يقول التقرير إن كل ما تحتاج إليه عملية إنتاج قنبلة « البلوتانيوم » لا يزيد على واحد فى المائة من عدد الفيزيائيين واثنين فى المائة من عدد الكيمائيين الذين تملكهم الصين الشعبية . . !

وقال لى السفير الباكستانى وقد بدأ يكشف لى أسراره :

— إن هذا — على خطورته — ليس كل شىء . فالمعلومات التى وصلت إلى الدوائر السوفياتية المسئولة هنا ، والتى أكدت أن الصين استطاعت أن تستخرج الاورانيوم والثوريوم من مواد « محلية » خام فى بلادها . . هو الخطورة ! وكذلك أكدت المعلومات أن الصين قد صنعت مختبرات ذرية عديدة ومعامل « هايدرو كهربائية » بقوة خمسمائة ألف كيلوات ، وزعتها فى مناطق « سينكيانج » ومنشوريا . . وغيرها ! »

قلت له :

— إن معنى هذا أن على العالم أن يتوقع المزيد من التفجيرات الذرية فى الصين ، قريباً . .

قال السفير :

— يجب أن تمر سنتان أو ثلاثة — كما يقول العلماء والخبراء — على أول تفجير ذرى قامت به دولة معينة ، حتى نستطيع أن نعدها من الدول الذرية . . وفى هذه المدة تعمل الدولة التى قامت بأول تفجير ذرى على تجميع الكمية

الكافية من مواد الاورانيوم والبلوثانيوم والثوريوم للقيام بتفجيرات أخرى تؤهلها للانتماء إلى النادى الذرى . . ومعنى هذا أن الصين لن تحقق ذلك قبل عام ١٩٦٧ مثلا . .

قلت على الفور :

— ولكن ما ينطبق على أية دولة فى العالم ، لا ينطبق على الصين . إن الميزان عند الصينيين يخضع لأية اعتبارات . . أليس كذلك ؟

قال السفير :

— هذا صحيح . . ولعله السر فى هذه الموجة العارمة من الزهو الذى ملأ دنيا الصين عقب التفجير الذرى الأخير . .

قلت له :

— لقد تسنى لى أن أشهد جانباً من احتفالات الصين بعيد انتصارها الذرى . . ولقد سمعت إذاعة بكين تتلو التعليقات حول هذا الحدث مرة بعد مرة ، بعشرات من اللغات الأجنبية . . وكلما قابلت زعيما صينياً سمعته يقول لى :

— هذه القنبلة ليست لنا . . إنها لكم . . ولكل الشعوب المناضلة فى العالم . . لقد أنفقنا الملايين على صنعها ، وسننفق الملايين على تطورها وتحسينها !

وضحك السفير الباكستانى وقال لى :

— هذا صحيح . . لقد أنفقوا مائتى مليون دولار على صنعها ، وسينفقون مالا يقل عن خمسمائة مليون دولار فى كل عام ، على تحسينها وتطورها !

وقلت للسفير الباكستانى :

— لقد شعرت وأنا فى الصين أن أقرب السفراء إلى قلوب الحاكمين

فى بكين هو سفير الباكستان ، فكيف علاقتكم هنا بالحاكمين ، فى موسكو . . ؟

قال السفير :

— ليست مطلقاً كعلاقتنا مع حكام بكين . . والأسباب معروفة . . ولكنهم — أى حكام موسكو — عرضوا علينا سلاحا وطائرات فاعتذرنا لأن ذلك قد يحرمنا من الأسلحة التى تزودنا بها أمريكا والمعسكر الغربى . .

قلت :

— وماذا عن علاقتهم مع الهند . ؟

قال :

— ما أكثر ما تباحثت معهم حول هذا الموضوع فكان جوابهم لى دوما « إننا إذا تركنا الهند وحدها فإنها ستقع بين أحضان أمريكا . . وإلى الأبد » . !

قلت للسفير :

— ولهذا تراهم يمدون الهند بالسلاح . ؟

قال :

— أجل . . ومع الأسف الشديد !

قلت :

— وهذا أيضاً — مما يضاعف شدة خلافهم مع . . الصين . ؟

قال :

— بالضبط . .

قلت :

— ألم يستطع شوان لاى خلال زيارته الأخيرة فى هذا الأسبوع أن يبدل من الوضع السائد ، شيئاً . . ؟

قال السفير :

— لقد تأكدت من مصدر ثقة أن شوان لاى لم يكن مسروراً — تماماً — من نتائج زيارته ، وكذلك رجال الكرملين . .

قلت :

— لماذا . . ؟

قال :

— كان هو — ينتظر منهم ترحيباً أكثر ، كما كان ينتظر تبديلا فى الآراء والأوضاع . وكانوا هم ينتظرون منه عروضاً واقتراحات جديدة لإزالة الخلاف . ولكنه — كما قيل لى — كان يكتفى بالاستماع إليهم ويقول لهم إنه سينقل آراءهم إلى زملائه فى بكين . . وهذا أغاظهم جداً . . كما أغاظهم أن يحرص شوان لاى بعد زيارته لقبر « لينين » أن يمر على قبر ستالين . . ويقف أمامه تحية وولاء !

قلت :

— وهل صحيح أن « برزينيف » قد تمسك بمعظم النقاط التى كانت فى حد ذاتها سبب الخلاف القائم بين موسكو وبكين . . ؟

قال :

— إن ما سمعته من المصادر الموثوقة هنا يؤكد لى أن برزينيف قد أكد لضيفه شوان لاى عدم تزحزح السوفيات عن موقفهم من التعايش السلمى ، ومن معاهدة التجارب الذرية ، والحملة ضد ستالين .! كما رفض « برزينيف» اقتراح شوان لاى بأن تنضم موسكو إلى بكين فى حملة عداء مكشوفة ضد أمريكا . . ولعل الشىء الوحيد الذى اتفقوا عليه هو أن يجعلوا أمر اختلافهم فى المستقبل ، أقل علانية . هذا ، إذا لم يسبق ذلك مؤتمراً « ثنائياً » بين موسكو وبكين فى مطلع عام ١٩٦٥ ثم يتبعه فيما بعد المؤتمر الشيوعى

العام الذى كان مقترحا على عهد نيكيتا خروشوف بعد أن تبدلت أغراض هذا المؤتمر ، وتغيرت مقاصده . . »

ومضت ساعة أو أكثر . .

وخف لهيب المدفأة من أمامنا . . بعد أن خفت حركة السير فى الشارع الكبير المجاور لمبنى سفارة الباكستان فى قلب موسكو . .

وقلت للسفير الباكستانى مودعاً :

— إننى على موعد مع زميلك . . « فلان » أحد السفراء العرب ، فى موسكو . .

قال :

— إنه من أقدر رجال السلك الدبلوماسى هنا ومن أعلمهم ببواطن الأمور . .

وخرجت إلى الشارع العام أصافح برد موسكو وثلجها ، و . . ومتاعب البحث عن مجهولها . .

وقال لى السفير العربى :

— ليست هناك قوة على الأرض قادرة على أن تعيد عقارب الساعة فى التحول الشيوعى السوفياتى ، إلى الوراء ! لقد انتهى كل شىء وأصبحت موسكو بالنسبة إلى بكين ، أشبه « بباريس » أخرى ! كما أصبحت بكين بالنسبة لموسكو مثلا للتطرف الخطر ، والعناد المتعصب والرأى الذى لا يستند إلى المنطق والعقل والواقع !

وسألنى السفير العربى :

— هل قرأت جرائد هذا الصباح . . ؟

وناولنى جريدة « برافدا » وعلى صفحتها الأولى افتتاحية بالخط

العريض تنادى بأن موسكو لن تنوى أن تعيد النظر فى سياستها التقاربية مع الغرب بعد « التعديلات » الأخيرة فى القيادة الرسمية . . وأنها — أى موسكو — ستمضى قدماً فى عقد الاتفاقيات الثقافية والاقتصادية مع الدول الغربية كجزء من سياستها فى التعايش السلمى . . وأن صيحات « الحرب » المنطلقة من بكين لن تجد لها فى العاصمة السوفياتية أى صدى . !

قلت للسفير :

— والحملات الصينية على موسكو ، أليس لها أثر هنا . ؟

قال : وماذا تريد أكثر من الرسائل والخطب السوفياتية التى أطلقها زعماء موسكو حتى أمس القريب ، ضد بكين ؟ هل قرأت الرسالة التى وجهتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفياتى إلى « زميلتها » اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى فى الثلاثين من مارس عام ١٩٦٣ ؟؟ هل قرأت الكتاب المفتوح الذى نشرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفياتى حول « الخط الصحيح » للحركة الشيوعية العالمية فى ١٤ يونيو عام ١٩٦٣ ؟ هل اطلعت على رأى الحكومة السوفياتية حول اتفاقية تحريم الأسلحة الذرية فى الثالث من أغسطس عام ١٩٦٣ . . وهجوم هذه الحكومة على موقف الصين من الاتفاقية المذكورة فى ٢١ أغسطس عام ١٩٦٣ ؟

وسكت السفير العربى ، قليلا قبل أن يقول لى :

— قد يكون صحيحاً أن اعتزال خروشوف قد أسدل الستار — ولو مؤقتاً — على فكرة عقد المؤتمر الشيوعى الدولى للفصل فى قضية الخلاف مع الصين . . ولكن الصحيح أيضاً أن اعتزال خروشوف لا يعنى — من قريب أو من بعيد — عودة ذرة واحدة من مياه موسكو وبكين إلى مجاريها التى عرفها العالم قبيل عام ١٩٥٨ . . ! إن صين « اليوم » فى نظر موسكو ، أشبه — مثلاً — بعهد ستالين الذى فض وانقضى..ولن يعود ! »

ترى ، هل انتهت قصة الصين . . . فى موسكو ؟

لا !

إننى أختصر وأقول :

كلما رأيت خلية « نحل » ، بملكاتها ، بجنودها ، بأزيزها ، بنشاطها ، بتعاونها ، سأذكر الصين ! !

وكلما شاهدت « بيت » نمل . . . بملايينه ، بجده ، بتهافته ، بجلده ، بظهره ، بعناده ، سأذكر الصين !

وكلما سمعت عن طلقة نار فى فيتنام ، أو انفجار ثورة فى لاوس ، أو قيام مظاهرة فى اليابان ، أو اشتباك مسلح على حدود الهند ، أو هجوم دعائى على أمريكا فى كمبوديا ، أو إجراء عنيف ضد الاستعمار فى أندونيسيا . . سأذكر الصين !

إن قصة الصين لم تنته ! !

إنها لم تبدأ بعـــد ! !

فقد قال « ماو » فى إعلان قيام الجمهورية عام ١٩٤٩ :

— لقد نهضت الصين ! !

ويا للعالم ، كل العالم ، يوم تبدأ قصة الصين مع العالم ، أو تبدأ قصة العالم مع . . الصين !



من أقوال ماوتسى تونج

فى الزعامة :

◉ « الشعوب هى أهم شيء فى هذا العالم . إننا نؤمن بأن الثورة قادرة على أن تصنع المعجزات ، وأنه لن يمضى وقت طويل قبل أن تنهض الصين الحديثة، بسكانها الملايين ، وبثروتها الهائلة ، وإنتاجها الضخم ، حيث تكون الحياة وافرة للكل ، وحيث تزدهر الثقافة بين الجميع » ! !

* * *

◉ «ضعوا مشكلاتكم على المائدة . إذا ليس هناك ما هو أهم من التسامح المتبادل والتفاهم المشترك ، والمساندة ، والصداقة بين سكرتير الحزب وأعضاء اللجان، وبين اللجنة المركزية ومكاتبها ، وبين المكاتب ولجان الحزب فى المناطق » ! !

* * *

◉ « تبادلوا المعلومات . . إن هذا ضرورى من أجل تحقيق لغة مشتركة تساعد على التفاهم ، إن البعض لا يفعل ذلك بالرغم من أنه يعايش جاره فى حاره واحدة . . » ! !

* * *

◉ « يجب استشارة الطقبات الدنيا أولا . ويجب ألا نخجل من أن نسأل ، ونتعلم ممن هم أدنى منا ! لقد قال لنا كونفوشيوس : كن تلميذا قبل أن تكون أستاذا ، واستمع إلى الآراء الخاطئة القادمة من تحت . . إذ أنه من الخطأ ألا تستمع إليها . . » ! !

* * *

◎ « تعلم العزف على البيانو ! إنك حينما تعزف على البيانو فإنك تستعمل أصابعك العشر فى حركة دائمة ، وليس مفيدا لك أن تستعمل بعض أصابعك وتترك الباقى . . ولكن احذر أن تضغط بأصابعك العشر مرة واحدة على مفاتيح البيانو فلا يتصاعد أمامك إلا لحنا مشوشا » ! !

* * *

◎ «لاحاجة بنا إلى أن ندعو إلى عقد الاجتماع إذا كانت التحضيرات التمهيدية له ، لم تنته بعد ! كن موجزا وبأفكار مركزة ، ولا تدع الاجتماع يطول إلى ما لا نهاية » ! !

* * *

◎ « . . أبذل جهدك لكى تتعاون وتعمل مع رفقاء يختلفون معك . . وبعضهم من خارج الحزب . إن بيننا من اقترف أخطاء جسيمة ولكن علينا ألا نحقد عليهم بل علينا أن نتسامح ونستعد للتعاون معهم . . رغم أخطائهم » ! !

* * *

◎ « لا تتكبر ، إن المبدأ لا الشخص ، هو الذى يتقلد المنصب الكبير » !

* * *

◎ « ممنوع الاحتفال بأعياد أعضاء الحزب وقادته ، وكذلك يمنع تسمية أى شارع أو ميدان ، بأسماء قادة الحزب . . » ! !

* * *

◎ « . . إذا كانت خدمات المرء تصل إلى سبعين فى المائة ، بينما تقصيره لا يتجاوز الثلاثين فى المائة ، فإن الحكم عليه يجب ألا يكون إلا بالتقدير . . » ! !

* * *

◎ « إن الرجعى لا يمثل إلا الرجعية . . بينما نحن نمثل التطور . . ! إن قوة الرجعى لا تخيفنا . . إنه مجرد نمر من الورق . . » !

من أقوال ليوتشاوتشي

« إن جميع الشعوب المحبة للسلام قد شعرت بأن امتلاك الصين للقنبلة الذرية ، يعنى امتلاك تلك الشعوب لها ما دامت تلك الأسلحة الذرية تساعدها فى جهادها ضد الاستعمار ومن أجل سلام العالم ، وهذا فى حد ذاته تشجيع قوى لشعب الصين ، إذ لن نتصرف بما يخيب أمل شعوب العالم فينا . إن شعب الصين يعلم دائماً ، أن الشعوب وحدها ، لا الأسلحة الذرية هى التى تقرر مصير العالم . . »

* * *

« نحن نشعر أنه ما دامت شعوب العالم متحدة فى نضالها ضد الاستعمار ، فإن حرباً ذرية لن تقع ، وسيبقى السلام مخيما على الأرض . . »

* * *

لم يكن الأساس المادى للاشتراكية فى بلادنا ، قوياً ، كما هو اليوم . . بعد مرور ١٥ سنة على انتصار الثورة » !

* * *

« مهما قام الأعداء بمحاولات التحدى ضدنا ، ومهما اقترفوا من فضائح ، ومهما وجهوا من تهديدات ، فإن موقف الصين الحالى من المشكلات الدولية ، لن يتبدل شعرة واحدة » !

* * *

« إن الشعب الصينى يقف وراء الدول العربية فى جهادها للحفاظ على استقلالها الوطنى وفى نضالها ضد العدوان الاستعمارى على فلسطين ومطالبتها بعودة الحق العربى فى أرض الأجداد إلى أصحابه . . »

* * *

* « إن شعب الصين يؤيد موقف حكومة ألمانيا الديمقراطية من عقد معاهدة الصلح والدفاع عن كيانها . . »

* * *

* « أيها الأصدقاء والرفقاء . إن الموقف الدولى الحالى عظيم جداً ، والشعوب الحرة فى العالم ، تحاصر الاستعمار الأمريكى فى جميع الجهات ! » .

* * *

* « إننا واثقون أن « أفريقيا » جديدة ، ستولد قريباً . . . على مسرح العالم الثائر . . » !

* * *

* « تاج الاستقلال الذى يزين رأس الدولة ، لايتأثر بعضوية تلك الدولة فى الأمم المتحدة . إن تاج الاستقلال لا يعتمد إلا على اعتماد تلك الدولة — على نفسها ! »

* * *

* « إنه لمما يشرفنا أن نساهم مع أية دولة فى العالم تود أن تبنى سياسة الاعتماد على النفس ، فى حياتها . . »



شوارد الآراء

* « لن نساهم بأية صورة من الصور فى أى نشاط تابع للأمم المتحدة ما دامت « عصابة » شيانج كاى شك ، تنتسب إلى تلك الهيئة الدولية وتساهم بها . . » .

* * *

* « إن سياسة الحصار الاقتصادى سائرة إلى . . الإفلاس ! وهكذا لن ينجح الحصار الاقتصادى الأمريكى ضد كوبا ، ولن ينجح مثل هذا الحصار ضد الصين ! » .

* * *

* « إن ٢٢٠ مليون نسمة من سكان أمريكا اللاتينية ، يقفون مع كوبا ، ويؤيدون سياستها » .

* * *

* « إن الصين قد استطاعت أن تسوى حدودها مع بورما . ولكنها فشلت فى أن تسوى حدودها مع الهند . بالرغم من أن الهند ، كبورما ، كالصين ، دولة ناشئة ولدت حديثاً بروح حديثة . . » .

* * *

* « إن نسبة الزيادة فى المواليد عندنا لا تزيد عن اثنين فى المائة ، وفى عام ١٩٥٧ كان تعداد الصين ستمائة وخمسين مليون نسمة » . .

* * *

* « إننا نعتمد على القوة البدنية فى معظم أعمالنا الزراعية ، وقد نحتاج إلى وقت ليس بقصير لكى نستبدل القوة البدنية ، بقوة الآلة » . .

* * *

* « فى خلال أقل من ثمانى سنوات سيتساوى إنتاجنا الصناعى مع إنتاج بريطانيا بالنسبة للكمية . . وبالنسبة للمجموع » . .

* « إن فى سياسة زعماء الهند التحرش بالدول التقدمية لضمان استمرار العون الأجنبى لها اقتصاديا وعسكريا » . .

* « إن مؤامرة خلق دولتين صينيتين اثنتين ، لن يكتب لها أى نجاح . . مهما كانت الظروف » . .

* « إذا سحبت أمريكا قواتها من ثيوان ، وجمدت قواعدها فى آسيا ، يمكن — عندئذ فقط — فتح باب للصداقة مع الشعوب المتحررة » . .

* « قابلت جون فوستر دالاس مرة واحدة عندما دخلت إلى مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤ قبل موعد الجلسة بقليل . . وكانت القاعة خالية من الأعضاء باستثناء شخص واحد هو . . جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا . ! ولم يكن بدا من أن أمد له يدى مصافحا ، ولكنه طوى يده وراء ظهره وهز رأسه قليلا ، ثم غادر القاعة . . ! ! » .

* « إن انتصار الاشتراكية ، أمر حتمى ، لابد منه ! » .

* « منذ أن أرسلت الولايات المتحدة أسطولها السابع إلى مضايق ثيوان ، بدأت بذلك ، سياستها العدوانية ضد الصين ! »

* « لا نريد ، ولا نفكر فى أن نسوى خلافنا مع أمريكا ، بالقوة ! لقد أعلنت فى مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ أن الشعب الصينى هو صديق الشعب الأمريكى وأن الحكومة الصينية مستعدة أن تجلس على مائدة مستديرة مع الولايات المتحدة من أجل تسوية خلافاتها . . » .

* * *

* « بدأت مباحثاتنا مع الحكومة الأمريكية فى أغسطس عام ١٩٥٥ ، ولم تنته إلى شىء . . حتى الآن !

* « من الطبيعى أن يقع الخلاف العقائدى بيننا وبين حكام السوفيات ، إن عدم وقوع مثل هذا الخلاف ، هو العجيب . ! » .

* « إن بكين على اتفاق تام مع موسكو بالنسبة لأمور مهمة رئيسية ! فموسكو مثلنا لا تقر مبدأ خلق دولتين صينيتين .. وموسكو مثلنا لا تعترف بعصابة شيانج كاى شك . . » .

* « إن أى هجوم استعمارى على أيد بلد اشتراكى ، هو — فى نظرنا — كالهجوم على الصين ذاتها وعلى المعسكر الاشتراكى بأسره . . وفى هذه الحالة فإن الصين لن تلتزم الحياد . . » .

* « إن إسرائيل قاعدة للاستعمار يجب العمل على تصفيتها . ولو بالقوة وأن الصين تؤيد العرب فى نزاعهم ضد إسرائيل . . »



تنظيمات الحزب الشيوعى الصينى

رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعى

ماوتسى تونج

*

نواب الرئيس

ليوتشاوتشى — شــوتة

شوان لاى — شين يون

*

سكرتير عام الحزب

تنج سياو بنج

*

المكتب السياسى للحزب

١ — ماوتسى تونج

٢ — ليوتشاو تشى

٣ — شوان لاى

٤ — تنج سياوبنج

٥ — تونج بى وو

٦ — بنج شين

٧ — لوجونج هوان

٨ — شن ييى

٩ — لى فو — شون

١٠ — بنج تيه — هواى

١١ — شوتيه

١٢ — شين يون

١٣ — لين بياوى
١٤ — ليوبو — شينج
١٥ — هو لونج
١٦ — لى سين — نين
١٧ — كيه شنج — شيه
١٨ — لى شنج شوان
١٩ — تان شين لين

أعضاء مناوبون

أولان فو
شانج وين تين
لوتينج يى
شين بولا
كانج شينج
بوى — بو

*

حكومة الصين الشعبية

رئيس الجمهورية

ليو شاو تشى

*

نواب رئيس الجمهورية

١ — مدام سونج شنج — لينج ٢ — تونج بى وو

المجلس الوطنى للشعب

رئيس اللجنة الدائمة لمجلس الشعب

شوته

نواب رئيس اللجنة الدائمة وعددهم ١٨ عضواً[١]

١ — لو بو — شنج	٢ — كو مو —
٣ — كانج شنج	٤ — هوانج يين بى .
٥ — بنج شين	٦ — لى شنج — شوان
٧ — شين شو تونج	٨ — سيف الدين
٩ — شنج شن	١٠ — بانشن لاما « عزل »[٢]
١١ — الان فو	١٢ — هو سيانج — تنج
١٣ — كومو — جو	١٤ — سو — سيانج — يثن
١٥ — ينج فيج سوان	١٦ — لين فنج
١٧ — ليو ننج يى	١٨ — شنج ثيه شونج

السكرتير العام للجنة الدائمة لمجلس الشعب

ليو ننج — يى

النائب العمومى

شانج تينج — شينج

مجلس الدفاع الوطنى

مؤلف من رئيس — و١٤ نائب رئيس — ومائة عضو

رئيسه : ليو شاو تشى

(١) تم انتخابهم فى آخر جلسة عقدها مجلس الشعب فى الثانى من يناير عام ١٩٦٥

(٢) عزل فى مطلع عام ١٩٦٥

مجلس الدولة

الرئيس

شوان لاى

نواب الرئيس :

١ — شين يون
٢ — المارشال لين بياو
٣ — لى فو شون
٤ — لى سيان نين
٥ — المارشال تنج ثيه — هواى
٦ — تنج سياو بينج
٧ — تينج تسيو هوى
٨ — المارشال هو لونج
٩ — المارشال ثنج يى
١٠ — الان فو
١١ — المارشال نيه شين
١٢ — بو — ى — بو
١٣ — ثان شين لين
١٤ — لو تينج يى
١٥ — لو جو شينج
١٦ — سى شونج

رئيس الوزراء : شوان لاى

الوزراء وعددهم « ٤٦ » وزيراً تم اختيارهم فى جلسة مجلس الشعب يوم ٢ / ١ / ١٩٦٥ وهم :

وزير الداخلية	: تسنج شان[1]
وزير الخارجية	: المارشال ثين يى
وزير الدفاع	: المارشال لين بياو
وزير الأمن	: سيه فو — شيه
وزير التخطيط	: لى فوشون
وزير الاقتصاد	: بوى يو

(١) يتقلد وزارة الداخلية لأول مرة .

وزير البحث العلمى	: المارشال نيه جونج — شين
وزير المال	: لى سين نين
وزير الغذاء	: شاشين — لى
وزير التجارة	: ياو — ى — لين
وزير التجارة الخارجية	: يه شى شوانج
وزير المنتجات المائية	: سوتيه — هينج
وزير صناعة المعادن	: وانج هو — شو
وزير الصناعة الكيمائية	: كاوينج[1]
الوزير الأول لبناء المصانع	: توان شون ى
الوزير الثانى لبناء المصانع	: ليو شين
الوزير الثالث لبناء المصانع	: صن شيه يوان[2]
الوزير الرابع لبناء المصانع	: وانج شينج[3]
الوزير الخامس لبناء المصانع	: شيو شوانج شينج
الوزير السادس لبناء المصانع	: فانج شيانج
الوزير السابع لبناء المصانع	: وانج بنج شانج
الوزير الثامن لبناء المصانع	: شنج شين جين[4]
وزير صناعة الفحم	: شانج لين — ثيه
وزير الجيولوجيا	: لى سو كوانج
وزير الإعمار	: ليو سيو — مينج

---

(١) يتقلد الوزارة المذكورة لأول مرة .

(٢) يتقلد الوزارة المذكورة لأول مرة .

(٣) الوزارة أوجدت لأول مرة فى يناير عام ١٩٦٥ وكذلك تولاها الوزير المذكور لأول مرة .

(٤) هذه الوزارات الثلاث أوجدت مع وزرائها لأول مرة .

وزير صناعة النسيج	: شيانج كوانج — نى
وزير الصناعات الخفيفة	: لى شو شين
وزير السكك الحديدية	: تينج تاى يوان
وزير التنقيب عن المواد	: يوان باو — هوا[1]
وزير صناعة البترول	: يو شيو — يى[2]
وزير المواصلات	: وانج شو — تاو
وزير البرق والبريد	: شو سيوه — فان
وزير الزراعة	: لياو لو — يين
وزير الإصلاح الزراعى	: وانج شين
وزير الأحراش	: ليو وين — هيو
وزير القوى الكهربائية	: فو تو — ى
وزير العمل	: ما وين — جوى
وزير الثقافة	: شين يين بينج
وزير التعليم	: يانج سيو — فينج
وزير الصحة	: لى ثيه — شوان
وزير الرياضة والتدريب	: مارشال هو لونج
وزير القوميات	: اولان فو
وزير شئون الصينيين المغتربين	: لياو شينج شيه
وزير العلاقات الثقافية الخارجية	: شانج سى — جو
سكرتير عام الدولة	: سى شوانج — سون

(١) أوجدت الوزارة لأول مرة فى يناير ١٩٦٥

(٢) أوجدت الوزارة لأول مرة فى يناير ١٩٦٥

ميزان الأكل

كشف رسمى بعدد « الوحدات الحرارية » التى يحتاج إليها كل مواطن فى الصين ، حسب تصنيف الدولة :

* يحتاج العامل فى مصنع «الحديد والصلب» إلى ثلاثة آلاف وحدة حرارية فى اليوم الواحد . .

* ويحتاج العامل العادى إلى ألفين وخمسمائة وحدة حرارية فى اليوم .

* ويحتاج عامل الصناعة الخفيفة إلى ألف وثمانمائة وحدة حرارية فى اليوم .

* ويحتاج المفكر ، أو الأديب ، إلى ألفين أو ألفين وخمسمائة وحدة حرارية فى اليوم . .

* ويحتاج الكاتب العادى إلى ألفى وحدة فى اليوم . .

* ومثله التلميذ فى الجامعة . .

* أما الزوجات — غير العاملات — فلا يحتجن إلى أكثر من ألف وخمسمائة وحدة حرارية فى اليوم ...

* وعلى ضوء هذا التصنيف ينال كل مواطن صينى ما يخصه من السكر ، والقمح ، والخبز ، والحنطة ، واللحوم والفاكهة . .

للتـــاريخ ..!

تحالف الحزب الشيوعى السوفياتى

مع الهند ضد الصين

كما صورته هيئة تحرير صحيفة « جينمينجيباو »
فى يوم ٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٣

نشرت هيئة تحرير صحيفة « البرافدا » فى ١٩ سبتمبر (أيلول) مقالا حول مسألة الحدود الصينية الهندية بعنوان « مصدر خطير للتوتر فى آسيا » . وقد نشرنا النص الكامل لهذا المقال فى ٢٥ سبتمبر (أيلول) . ويقذف المقال ، متغاضياً عن الحقائق وخالطاً بين الصواب والخطأ ، بالتهمة الافترائية بأن الصين تريد تسوية مسألة الحدود الصينية الهندية بالقوة المسلحة ولا ترغب بإخلاص فى تسوية سلمية . إن هذا المقال يسعى إلى بذر بذور الشقاق بين الصين والبلدان الآسيوية والأفريقية ويتهم الصين بأنها على النقيض من الهند لم « تقابل بصورة إيجابية مقترحات مؤتمر كولمبو وتقبلها بصورة تامة دون أدنى تحفظ » . وحرصاً على إثارة القلاقل جاء فى المقال تعبير مثير هو أن صدام الحدود الصينية الهندية « قد يتفاقم مرة أخرى » .

لقد لقى مقال « البرافدا » الترحيب الحار مباشرة من قبل الرجعيين الهنود والمستعمرين الأمريكيين .

فقال نهرو فى ٢١ سبتمبر (أيلول) أن هذا المقال قد دل على « تطور هام فى تقدير السوفيت لموقف الهند » .

وفرحة بهذه الريح المباركة طالبت وكالة الإعلام الهندية جميع أجهزة الالتقاط التابعة لها بـ « إعطاء أكبر قدر » من الدعاية للنص الكامل لمقال « البرافدا » .

لقد تباهت الصحافة الهندية الرجعية بـ « السند السوفياتى الشامل للهند ضد الصين » وأعلنت أن « الاتحاد السوفياتى قد ألقى بعيداً بتحفظه « الأخوى » ووقف علنا اليوم بجانب الهند فيما يتعلق بنزاع الحدود الصينية الهندية » .

وجاء فى صحيفة « الكرستان سيانس مونيتور » الأمريكية أن الاتحاد السوفياتى « يلعب الآن دوراً نشطاً » فى كبح جماح الصين و « أن للغرب من الأسباب ما يجعله فى حاجة عظيمة لكى يتنفس الصعداء » . كما جاء فيها أن عدداً كبيراً من الهنود يعدون مقال « البرافدا » نوعا من الردع مساويا للمناورات الجوية القادمة الموالية للغرب » .

إن مقال « البرافدا » هو وثيقة هامة بلا شك . لقد تحالف القادة السوفيت منذ بعيد مع الرجعيين الهنود لمعارضة الصين الاشتراكية . ويدل هذا المقال على تحولهم من موقفهم السابق — موقف التظاهر بالحياد بل الوقوف مع الرجعيين الهنود فى الواقع — إلى موقف التعاون مع الاستعمار الأمريكى ومساندة الرجعيين الهنود بصورة مكشوفة .

إن أحدا الخلافات المبدئية الهامة بين القادة السوفيت وبيننا يكمن فى مسألة الحدود الصينية الهندية . وكنا نفضل الصمت حول أصل وتطور الخلاف بين الصين والاتحاد السوفياتى حول هذه المسألة . إلا أن القادة السوفيت قد كشفوا هذا الأمر فى العلن وبالإضافة لهذا زعموا فى بيان الحكومة السوفياتية بتاريخ ٢١ سبتمبر (أيلول) أن موقفهم من مسألة الحدود الصينية الهندية كان موقفاً صحيحاً دائماً منذ عام ١٩٥٩ بينما كان موقف الصين خاطئاً . ولهذا السبب وبغية التمييز بين الحقيقة والزيف أصبح من الضرورى أن نوضح كيف تطورت خلافاتنا مع القادة السوفيت حول هذه المسألة خلال السنوات القلائل الماضية .

أولا : أثار الرجعيون الهنود الصدام المسلح الأول عند الحدود الصينية الهندية فى ٢٥ أغسطس (آب) ١٩٥٩ بعد فشل التمرد المسلح الذى قامت به العصبة الرجعية من الفئات العليا فى التيبت والذى حرض عليه الرجعيون الهنود وأيدوه . وفى ٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٩ أخبر أحد القادة الصينيين القائم السوفياتى بالأعمال بالحقائق المتعلقة بالاصطدام وبسياسة الصين التى مفادها السعى لتجنب الصدام . كما أخبره بأن غرض الحكومة الهندية من إثارة صدام الحدود هو معارضة الشيوعية والصين ، وأن البرجوازية الهندية قد أصبحت رجعية بصورة متزايدة بزيادة حدة الصراع الطبقى الداخلى . وهذا ينطبق تماما على قوانين التطور ؛ وأنه من الضرورى عدم الانخداع بنهرو الذى يسعى إلى مباشرة الضغط على الصين باستخدام الاتحاد السوفياتى .

ثانياً : فى صباح ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٩ ، بلغ القائم السوفياتى بالأعمال الحكومة الصينية بأن الحكومة السوفياتية سوف تصدر بياناً لوكالة « تاس » فيما يتعلق بمسألة الحدود الصينية الهندية فى ١٠ سبتمبر

(أيلول) وقدم لها نسخة من هذا البيان . وأعلنت الحكومة الصينية مباشرة وبصورة مبدئية أنه يكون من الأفضل ألا تصدر الحكومة السوفياتية بياناً علنياً حول هذه المسألة .

وبعد ظهر نفس اليوم ، سلمت الحكومة الصينية القائم السوفياتى بالأعمال نسخة من خطاب رئيس مجلس الدولة تشوان لاى إلى رئيس الوزراء نهرو بتاريخ ٨ سبتمبر (أيلول) . وقدمت فيه الحكومة الصينية للحكومة الهندية اقتراحات حول التوصل إلى تسوية ودية لمسألة الحدود عن طريق المفاوضات وحول إبقاء وضع الحدود على ما هو عليه حتى يتم الوصول إلى تسوية كهذه .

وفى مساء ذلك اليوم ، أخبرت الحكومة الصينية القائم السوفياتى بالأعمال أن الصين قد نشرت خطاب رئيس مجلس الدولة تشوان لاى إلى نهرو وطلبت من الحكومة السوفياتية أن تأخذ فى اعتبارها وجهة نظر الصين وموقفها اللذين وردا فى ذلك الخطاب ، وألا تصدر بيان « تاس » .

ثالثاً : إلا أن الحكومة السوفياتية قد تجاهلت نصيحة الصين ونشرت بيان « تاس » فى مساء ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٩ قبل ميعاده المقرر وكشفت بذلك الخلافات بين الصين والاتحاد السوفياتى . وقد عبرت الحكومة السوفياتية فى ذلك البيان بصورة عامة ودون تمييز بين الخطأ والصواب عن « أسفها » فيما يتعلق بصدام الحدود الصينية الهندية ، وبالرغم من ارتدائها ثوب الحياد ، وقفت بالفعل إلى جانب الهند وأدانت الصين .

رابعاً : فى يوم ٣٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٩ ، أنب الرفيق خروشوف الصين علناً بأنها أرادت اختبار استقرار النظام الرأسمالى عن طريق القوة » ، وقد أدرك العالم قاطبة أن هذا معناه أن الصين « محبة للحرب » فيما يتعلق بتايوان والحدود الصينية الهندية .

خامساً : فى ٢ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٩ ، قدم القادة الصينيون بأنفسهم إلى الرفيق خروشوف توضيحاً حول الوضع الحقيقى لصدام الحدود الصينية الهندية والظروف التى سبقته ، وأشاروا إلى أن الهند هى التى قامت بالاستفزاز عبر الحدود وأنه لا يجب الرضوخ إلى الرجعيين الهنود طوال الوقت . إلا أن خروشوف لم يكن راغباً فى معرفة الوضع الحقيقى وطبيعة الجانب الذى يقوم بالاستفزاز ، وأصر على أنه من الخطأ بأى حال من الأحوال ضرب الناس بالرصاص وقتلهم .

سادساً : أثار الرجعيون الهنود الصدام المسلح الثانى على الحدود الصينية الهندية فى ٢١ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٩ . وأبلغت الحكومة الصينية القائم السوفياتى بالأعمال بحقائق الحادث فى ٢٦ أكتوبر (تشرين الأول) .

سابعاً : فى جلسة عامة لمجلس السوفيات الأعلى فى ٣١ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٩ ، عبر خروشوف مرة أخرى عن « أسفه » و « ألمه » تجاه صدام الحدود الصينية الهندية وأزاح جانباً مسئولية الهند تجاه هذا الاستفزاز .

ثامناً : قال خروشوف لدى استقباله مراسل المجلة الأسبوعية الهندية « العهد الجديد » فى ٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٩ ، إن حادثة الحدود الصينية الهندية هى حادثة « محزنة » وأمر « بليد » . وقدم مثال تسوية الحدود السوفياتية الإيرانية وقال « ماذا تهم كيلومترات ضئيلة لقطر كالاتحاد السوفياتى ؟ » موحيا بأنه على الصين أن تقدم أراضيها استجابة لدعوى الهند .

تاسعاً : ذكر القادة الصينيون للسفير السوفياتى فى ست محادثات بين ١٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٩ و ٣٠ يناير (كانون الثانى) ١٩٦٠ أن القادة السوفيت مخطئون فى « اتخاذ موقف الحياد الدقيق » فيما يتعلق بمسألة الحدود الصينية الهندية ، وأنهم ليسوا فى الحقيقة محايدين أبداً إذ أن بياناتهم وجهت اللوم والتوبيخ إلى الصين بينما كانت فى صالح الهند .

عاشرا : بلغت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفياتى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى فى حديث شفوى فى ٦ فبراير (شباط) ١٩٦٠ أنه « مما يجافى الموقف الجاد أن يظن المرء أن دولة مثل الهند التى هى أضعف بكثير من الصين عسكريا واقتصاديا ، تحاول فعلا شن هجوم عسكرى على الصين وتعتدى عليها » ، وأن معالجة الصين لهذه المسألة كانت « تعبيرا عن موقف القومية الضيقة » ، وأنه « عندما سمع صوت إطلاق النار على الحدود الصينية الهندية عشية سفر ن. س. خروشوف إلى الولايات المتحدة ، اعتبر كل العالم أن هذا حدث يعرقل النشاطات المحبة للسلم التى يقوم بها الاتحاد السوفياتى».

حادى عشر : فى ٢٢ يونيو (حزيران) ١٩٦٠ ، قال خروشوف لرئيس وفد الحزب الشيوعى الصينى لدى اجتماع بخارست : « أنا أعرف ما معنى الحرب . وطالما قتل عدد من الهنود فإن هذا معناه أن الصين هى التى هاجمت الهند . » كما قال أيضا : « نحن شيوعيون وليس من المهم أن نعرف أين يجرى خط الحدود ؟ » .

ثانى عشر : فى ٨ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٢ بلغ أحد القادة الصينيين السفير السوفياتى بأن الصين قد بلغها أن الهند كانت تستعد لشن هجوم شامل على الحدود الصينية الهندية ، وأنه إذا بدأت الهند هذا الهجوم سوف ندافع عن أنفسنا بحزم . كما أبلغه أيضا بأن حقيقة أن طائرات الهيلوكبتر السوفياتية وطائرات النقل السوفياتية كانت تستخدم من قبل الهند بغرض إلقاء الإمدادات الحربية من الجو ونقلها فى مناطق الحدود الصينية الهندية ، قد تركت انطباعا سيئا لدى جنودنا فى الحدود ، ونرى أنه من واجبنا الأممى أن نخبر الجانب السوفياتى بهذا الوضع .

ثالث عشر : فى ١٣ و ١٤ من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٢ ، قال خروشوف للسفير الصينى ما يلى : أما فيما يتعلق بتحضير الهند لشن الهجوم

على الصين فإن ما بلغ الاتحاد السوفياتى شبيه بما وصل إلى علم الصين . وإذا كان الاتحاد السوفياتى فى موقف الصين لما كان فى وسعه إلا أن يتخذ الإجراءات التى اتخذتها الصين . إن موقف الحياد من مسألة الحدود الصينية الهندية أمر مستحيل ، وإذا أقدم أى أحد على الهجوم على الصين وقال الاتحاد السوفياتى إنه محايد فإن هذا يعد خيانة .

رابع عشر : فى ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٢ ، شن الرجعيون الهنود هجوما شاملا على الصين . وفى ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) نشرت صحيفة « البرافدا » افتتاحية ورد فيها أن خط مكماهون السيء الصيت فرض على الشعبين الصينى والهندى ولم يحدث أن اعترفت به الصين أبدا . كما جاء فيها أن الاقتراحات الثلاثة التى قدمتها الحكومة الصينية فى بيانها المؤرخ فى ٢٤ أكتوبر (تشرين الأول) هى اقتراحات بناءة وتشكل أساسا مقبولا لفتح باب المفاوضات بين الصين والهند وتسوية النزاع بينهما تسوية سلمية .

خامس عشر : فى ١٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٢ ، عاد خروشوف إلى نغمته الأصلية وقد تناسى كل ما قاله قبل شهرين من ذلك فأدلى بالتلميحات الآتية فى جلسة عامة لمجلس السوفيات الأعلى : إن المناطق المتنازع عليها بين الصين والهند قلما يوجد فيها سكان وهى ذات قيمة بسيطة للحياة الإنسانية . ورأى الاتحاد السوفياتى أنه من غير المعقول الظن بأن الهند أرادت إثارة حرب مع الصين . إن الاتحاد السوفياتى يسير على آراء لينين فيما يتعلق بنزاعات الحدود . وقد برهنت خبرته خلال خمسة وأربعين عام أنه لم يوجد نزاع للحدود استحال حله دون اللجوء إلى القوة . وبالطبع كان جميلا أن أمرت الصين بوقف إطلاق النار من جانبها وحدها وسحبت جنودها . غير أنه ، أما كان أجمل لو أن القوات الصينية لم تتقدم على الإطلاق من مواقعها الأصلية ؟

سادس عشر : إن القادة السوفيت بنشرهم المقال الافتتاحى الذى كتبته هيئة تحرير « البرافدا » ١٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٣ قد ألقوا جانبا بكل الأقنعة ووقفوا علنا بجانب المستعمرين الأمريكيين ، مؤيدين الرجعيين الهنود ضد الصين الاشتراكية . .

يتضح من الحقائق السالفة أن الصين قد فعلت كل ما فى وسعها لإزالة الخلافات الصينية السوفياتية حول مسألة الحدود الصينية الهندية . إلا أن القادة السوفيت ثابروا على موقفهم — موقف تعصب الدولة الكبيرة ، وتصرفوا بصورة متعجرفة وأداروا أذنا صماء لآراء الصين . لقد كشفوا الخلافات الصينية السوفياتية إلى العلن لكى يخلقوا ما يسمى بروح « كامب دافيد » ويقدموا هدية المودة إلى المستعمرين الأمريكيين . وخلال أزمة الكاريبى نطقوا بكلمات قليلة تبدو عادلة بعض الشىء وتخدم مصالحهم فى ذلك الوقت . ولكن بعد أن انتهت الأزمة تراجعوا عن أقوالهم . لقد وقفوا مع الرجعيين الهنود ضد الصين منذ البداية حتى النهاية . ويتضح من الحقائق أن موقف قادة الحزب الشيوعى السوفياتى فيما يتعلق بمسألة الحدود الصينية الهندية هو خيانة تامة للأممية البروليتارية .

— ٢ —

إن خلافاتنا مع القادة السوفيت حول مسألة الحدود الصينية الهندية خلال الأربع سنوات الماضية يمكن تلخيصها فى المسائل الأربع الأساسية التالية :

أولا : هل مسألة الحدود الصينية الهندية مسألة رئيسية تتعلق بالمبدأ ، أم هى مسألة غير هامة ؟

ثانياً : من أصر بحزم على إبقاء وضع الحدود كما هى عليه ، ومن أثار الصدامات المسلحة على الحدود ؟

ثالثاً : ما الموقف الذى يجب أن يتخذه قطر اشتراكى إذا شن الرجعيون البرجوازيون عليه الهجمات المسلحة ؟

رابعاً : من تنقصه الرغبة المخلصة فى التوصل إلى تسوية سلمية لمسألة الحدود الصينية الهندية — الهند أم الصين ؟

فلننظر الآن كيف تجاهل القادة السوفيت لحاجة فى نفس يعقوب الحقائق وخلطوا الصواب بالخطأ بتأييدهم الهند وخيانتهم للصين فيما يتعلق بهذه المسائل الأربع:

١ — هل مسألة الحدود الصينية الهندية مسألة رئيسية تتعلق بالمبدأ ، أم هى مسألة غير هامة ؟

من المعروف جيداً أن مسألة الحدود الصينية الهندية ، هى مسألة تتعلق بـ ١٢٥ ألفاً من الكيلو مترات المربعة من الأراضى الصينية . ولهذا فهى مسألة رئيسية وليست مسألة غير هامة . ورأينا دائماً أنه حتى إذا كانت مسألة ما ذات أهمية كبرى كهذه يمكن تسويتها طالما كان الجانبان يعاملان بعضهما البعض على قدم المساواة وبروح التفاهم المتبادل وروح التنازل المتبادل . إلا أن الحكومة الهندية لم تحتل ٩٠ ألفا من الكيلومترات المربعة من الأراضى الصينية جنوب خط مكماهون غير الشرعى فى القطاع الشرقى من الحدود الصينية الهندية ، وألفى كيلومتر مربع من الأراضى الصينية فى القطاع الأوسط وحسب ، بل مازالت تعتزم احتلال ٣٣ ألف كيلومتر مربع أخرى من الأراضى الصينية فى القطاع الغربى ، التى ظلت دائماً تحت الإدارة الصينية . وهذا هو السبب الذى من أجله لم يوجد حل لمسألة الحدود الصينية الهندية طوال هذه المدة .

إن رأى القادة السوفيت هو أن هذه المسألة هى مسألة غير هامة .

وخروشوف يقول : « ماذا تعنى كيلومترات ضئيلة » ؟

ونحن لا يسعنا أن نوافق على هذا . فالمسألة ليست مسألة بعض كيلومترات لا غير ، ولكنها مسألة ١٢٥ ألفا من الكيلومترات المربعة . وكم تساوى ١٢٥ ألفا من الكيلومترات المربعة ؟ إنها أكبر من مجموع مساحة جمهوريتى أذربيجان وأرمينيا معا . ولنفرض أن قطراً رأسماليا أصر على احتلال هاتين الجمهوريتين من جمهوريات الاتحاد السوفياتى ، فهل يعتبر القادة السوفيت هذا أيضا من الأمور التى لا تستحق الاهتمام ؟

يدعى خروشوف أيضا أن المناطق المتنازع عليها على الحدود الصينية الهندية قليلة السكان وليست ذات قيمة كبيرة للحياة الإنسانية ولهذا لا تستحق أن ينظر إليها بعين الجد .

ونحن لا يسعنا الموافقة على هذا أيضا . ومن يقول بأنه على القطر الاشتراكى أن يدافع فقط عن أجزائه المكتظة بالسكان ولا يدافع عن أجزائه التى يقل فيها السكان ؟ وفى الحقيقة فإن كثافة السكان فى المنطقة الواقعة فى القطاع الشرقى من الحدود الصينية الهندية هى بصورة عامة تشبه ما فى جمهورية تركمان السوفياتية . أما المنطقة الواقعة فى القطاع الغربى من الحدود الصينية الهندية فهى ليست مهجورة أكثر من المناطق المتجمدة الشاسعة فى الجزء الشمالى الشرقى من الاتحاد السوفياتى ، التى تواجه ولاية ألاسكا الأمريكية عبر البحر . ولنفرض أن قطراً رأسمالياً أراد احتلال هذه المناطق السوفياتية فهل يعتقد القادة السوفيت بأنه ما من حاجة للقلق بشأنها وأنه يمكن التنازل عنها ؟

ويدعى القادة السوفيت أيضاً أنه لا حاجة بالشيوعيين إلى الاهتمام بموقع الحدود وكيف تجرى ؟

ولا شك أن هذا كلام ذكى . إلا أنهم نسوا لسوء الحظ أننا نعيش فى عالم فيه طبقات ودول ، فى عالم مازال به مستعمرون ورجعيون برجوازيون

وإذا طبقت كلمات القادة السوفيت ألا يؤدى هذا إلى فقدان كل الأقطار الاشتراكية حقها فى الدفاع عن حدودها ؟ وما الذى يبقى بعد ذلك فى العزم الجماعى الذى عبرت عنه الأقطار الاشتراكية لصيانة حرمة حدود الأودر — نايسى بين ألمانيا وبولندا ؟ وبالطبع لا يمكن للشعب السوفياتى وشعوب الأقطار الاشتراكية الأخرى أن تقبل مثل هذا القول السخيف .

٢ — من أصر بحزم على إبقاء وضع الحدود كما هى عليه ، ومن أثار الصدمات المسلحة على الحدود ؟

إن الجواب واضح .

بالرغم من أن الهند قد احتلت أكثر من ٩٠ ألف كيلو متر مربع من الأراضى الصينية ، إلا أن الصين تدعو دائماً إلى تسوية سلمية لقضية الحدود عن طريق المفاوضات ، وإلى إبقاء وضع الحدود كما هى عليه وتجنب الصدام حتى الوصول إلى تسوية كهذه .

إلا أن الرجعيين الهنود لا يرغبون سواء فى تسوية سلمية لقضية الحدود عن طريق المفاوضات ، ولا فى إبقاء الوضع القائم فعلا على الحدود كما هى عليه . وتمشياً مع طمعهم فى احتلال ثلاثين ألف كيلومتر مربع أخرى من الأراضى الصينية ، لم يتورعوا عن اللجوء إلى القوة ، ونقضوا مرات عديدة الوضع القائم على الحدود وحتى أنهم أثاروا صدامات مسلحة .

إن موقفى الصين والهند المتعارضين تعارضاً تاماً فيما يتعلق بمسألة الحدود هما واضحان تمام الوضوح أمام جميع الناس غير المتحيزين الذين يحترمون الحقائق .

لقد بذلت الصين جهوداً لا تعرف الكلل لإبقاء وضع الحدود كما هى عليه وللتأكد من الاستقرار على الحدود ، وللسعى إلى الوصول إلى تسوية لمسألة الحدود عن طريق المفاوضات.

إن الصين لا تعترف بخط مكماهون غير الشرعى . إلا أنه لم يحدث أبداً أن اجتازت هذا الخط خلال السنوات العشر الماضية ونيف .

وبعد أن أثارت الهند صدامين متتابعين عند الحدود ، كانت الصين هى التى اقترحت فى ٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٩ انسحاب القوات المسلحة للجانبين عشرين كيلو متراً عن خط السيطرة الفعلية وإيقاف الدوريات . لقد رفضت الهند هذه المقترحات . ومع ذلك أوقفت الصين من جانبها وحدها دورياتها .

ورغماً عن الموجة المعادية للصين التى أثارها الرجعيون الهنود قام رئيس مجلس الدولة الصينى بزيارة دلهى فى أبريل (نيسان) ١٩٦٠ وأجرى محادثات مع رئيس الوزراء الهندى . إلا أن الهند لا ترغب سواء فى تسوية سلمية لمسألة الحدود أو فى إبقاء وضع الحدود كما هى عليه .

وفى عام ١٩٦١ ولا سيا فى عام ١٩٦٢ ، استغلت الهند إيقاف الصين من جانبها وحدها دورياتها على الحدود ، وتقدمت إلى الأمام فاحتلت أراضى صينية أكثر وأكثر وأثارت استفزازات مسلحة متزايدة الخطورة . وباشرت الصين أقصى حدود التحمل وضبط النفس ، واقترحت فضلا عن ذلك ثلاث مرات إجراء المفاوضات حول مسألة الحدود وكان ذلك بين أغسطس (آب) وأكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٢ ، بيد أن الهند رفضت هذه المقترحات .

وفى ١٢ أكتوبر (تشرين الأول ١٩٦٢ ، أصدر نهرو أمره بـ « تطهير » الأراضى الصينية من القوات الصينية . وفى ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٢ ، شنت القوات الهندية هجوماً عاما شاملا . ولم ترد الصين الهجوم بالدفاع عن نفسها إلا عندما أصبح من المستحيل الصبر على الوضع ولم يعد هناك مجال لتقهقر أكثر . وبالرغم من ذلك وبغرض تغيير هذا الوضع ،

قدمت الصين فى الوقت اللازم فى يوم ٢٤ أكتوبر (تشرين الأول) ثلاثة اقتراحات لإيقاف الصدام ، وإعادة فتح باب المفاوضات ، وتسوية قضية الحدود تسوية سلمية . وبعد أن رفضت الهند هذه الاقتراحات بادرت الصين من تلقاء نفسها إلى القيام بخطوات وفاقية أساسية كبرى هى وقف إطلاق النار ، والانسحاب وغير ذلك .

إن أحداث السنوات القلائل الماضية تبرهن على أن الصين هى التى تمسكت بحزم بإبقاء وضع الحدود كما هى عليه ، وأن الهند هى التى حاولت تغيير وضع الحدود بالقوة ، وأن الصين هى التى قدمت كل اقتراح سلمى ، وأن الهند هى التى أثارت كل صدام مسلح .

إلا أن القادة السوفيت أغمضوا أعينهم عن كل هذه الحقائق الواضحة . ولم ينبسوا ببنت شفة علناً يوبخون بها الهند خلال السنوات التى أثار فيها الرجعيون الهنود استفزازات مسلحة متعددة ، وقضموا خلالها الأراضى الصينية وشنوا أخيراً هجومهم الشامل . وعندما أجبرت الصين على رد الهجوم للدفاع عن النفس ، أثاروا الضجيج مفترين على الصين بصورة وحشية ومصرين على القول بأنها « أرادت تسوية نزاع الحدود مع الهند بقوة السلاح » . وأى أساس لديهم فى إلقاء هذه التهمة ؟

يقول خروشوف : « أنا أعرف ما معنى الحرب . وطالما قتل عدد من الهنود فإن هذا معناه أن الصين هى التى هاجمت الهند . »

إن هذا كلام لا يتفق مع المنطق إطلاقاً . وهو يرقى إلى درجة القول بأنه على المرء فى وجه هجوم المعتدين أن يتحمل الضرب ولا يرد على المعتدين بالضرب ، لأنه إذا فعل عكس ذلك فقد يقتل بعضهم وهكذا يصبح هو نفسه معتديا . وكيف بوسع إنسان ذى ضمير نقى أن يتلفظ بمثل هذا الحديث .

يقول خروشوف : « لا يسعنا أن نفكر بأن الهند أرادت الحرب

مع الصين . » ويقول القادة السوفيت أيضاً : « إنه مما يجافى الموقف الجاد أن يظن المرء أن دولة مثل الهند التى هى أضعف بكثير من الصين عسكرياً واقتصادياً تحاول فعلا شن هجوم عسكرى على الصين وتعتدى عليها . » وبمعنى آخر ، يرون أنه لأن الصين أقوى كان هناك احتمال وحيد هو أن تشن الصين الهجمات العسكرية على الهند وتعتدى عليها ، لا العكس .

وهكذا تخونهم الحجة مرة أخرى . وكل من يعرف أبجديات الماركسية اللينينية يدرك أن كل الرجعيين ذاتيون وغالباً ما يخطئون الحساب فيما يتعلق بتوازن القوى واتجاه التطور .

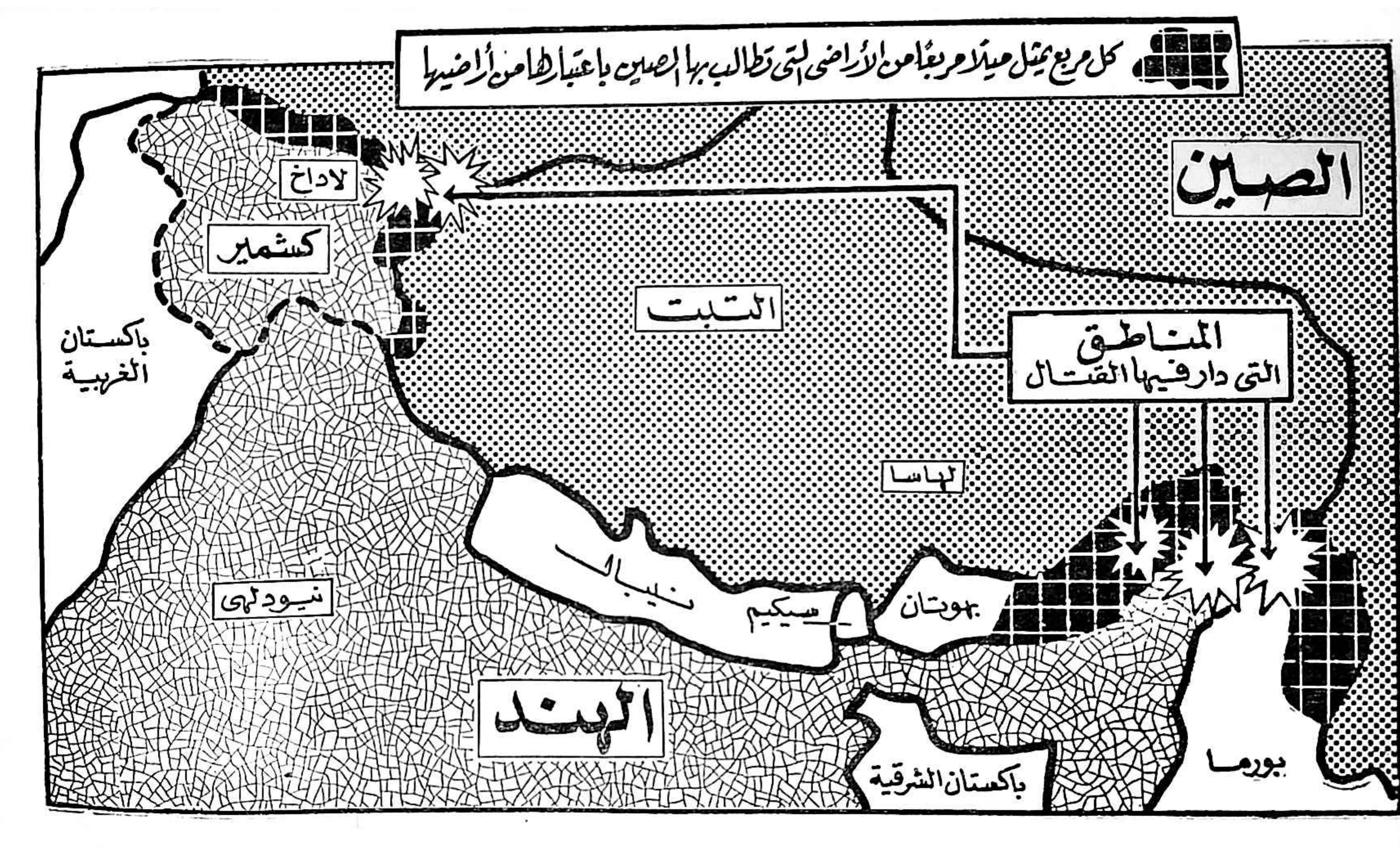
ولا يشذ الرجعيون الهنود عن هذا القانون . فقد ظنوا أن تحمل الصين لمدة طويلة دلالة على أن الصين ضعيفة ويمكن إرهابها ، وقد ظنوا أنه بفضل مساندة المستعمرين وتأييد القادة السوفيت لاحاجة بهم إلى الخوف وأنه حالما يبدأون أعمالهم سوف تضطر الصين إلى التقهقر فتتحقق دعواهم فى احتلال الأراضى الصينية . وعلى أساس هذا التحليل الخاطىء وسوء الحساب شنوا هجومهم المسلح الشامل على الصين . إن القادة السوفيت ، بدلا من تذرعهم بالشجاعة لمجابهة هذه الحقائق ، لجأوا بدون تعقل إلى اعتبار أن قوة قطر ما هى حجر المحك فى ما إذا كان هذا القطر معتديا أم ضحية للاعتداء . فهل هنالك ذرة من الماركسية اللينينية فى هذا الموقف ؟

لقد كسب وقف إطلاق النار والانسحاب اللذين بادرت الصين إلى اتخاذهما الترحيب الحماسى والمدح الحار من قبل جميع الأقطار والشعوب المحبة للسلم فى العالم . ولكن خروشوف ، انطلاقا من دوافع خفية ، هاجم الصين بمواربة قائلا : بالطبع كان جميلا أن أمرت الصين بوقف إطلاق النار من جانبها وحدها وسحبت جنودها . غير أنه ، أما كان أجمل لو أن القوات الصينية لم تتقدم على الإطلاق من مواقعها الأصلية ؟

يبدو أن هذا سؤال ذكى للغاية . ولكن بودنا أن نسأل القائد السوفياتى ، « لماذا لم تسأل نهرو ، ما إذا كان أفضل له لو أنه لم يأمر بالهجوم ؟ » وهل كان يمكن حدوث هجوم مضاد إذا لم يكن هنالك هجوم ؟ أليس هذا أمراً يسهل فهمه حتى على تلميذ صغير !

نود أن نقول للقائد السوفياتى ما يلى : لقد تقدم حرس الحدود الصينية فى أثناء هجومه المضاد الدفاعى إلى الأراضى الصينية جنوب خط مكماهون غير الشرعى بغرض القضاء قضاء تاماً على هجوم الرجعيين الهنود وتحطيم خطتهم الرامية إلى تعديل وضع الحدود كما كان عليه بالقوة المسلحة . ثم بادرنا بوقف إطلاق النار وإلى الانسحاب لكى نثابر على موقفنا الدائم — موقف عدم تعديل وضع الحدود كما كان عليه بالقوة المسلحة ، ولخلق الظروف المواتية للتوصل إلى تسوية لقضية الحدود عن طريق المفاوضات . وليس هناك شىء غامض لا يفهم فى هذه الخطوات التى اتخذناها . وكما تبين الحقائق ، فإن السبب الذى جعل الرجعيين الهنود يتعقلون بعض الشىء هو أننا رددنا على هجومهم ، بذلك خف توتر الحدود الصينية الهندية بصورة أساسية .





مناطق القتال بين الصين والهند على الحدود المشتركة

للتـــاريخ ..!

« مصدر خطير للتوتر فى آسيا ضد الصين »

المقال الذى نشرته « البرافدا » فى ١٩ سبتمبر — أيلول — عام ١٩٦٣

إن عقد معاهدة لحظر التجارب النووية والتزام أغلبية أقطار العالم بها ، كانا من الخطوات الحيوية فى خلق جو عالمى يتسم بالصحة أكثر . وهذه حقيقة معترف بها عالمياً ، وهذا أيضاً تقدير الرأى العالمى لمعاهدة موسكو . وقد نشأت بذلك آمال جديدة فى تسوية القضايا العالمية البارزة تسوية سلمية عن طريق المفاوضات ، وفى القضاء على مصادر التوتر التى ما تزال فى العالم .

ولسوء الحظ ما زالت على كوكبنا مواد ملتهبة تهدد بالانفجار فى أى لحظة وتصبح مصدر خطر عظيم على السلم . وأحد مصادر التوتر هذه هو مسألة صدام الحدود الصينية الهندية المزمنة فى منطقة الهملايا ، التى ما زالت حادة حتى الآن .

لقد طفحت الصحافة الصينية مؤخراً ، بسلسلة كاملة من التصريحات — « بيان ناطق بلسان وزارة خارجية جمهورية الصين الشعبية » وافتتاحيات

ومقالات من هيئات التحرير ، خصصت كلها لصدام الحدود الصينية الهندية . والصفة المشتركة لهذه التصريحات هى رغبتها بكل سبيل ممكن فى تبرير كل عمل أقدمت عليه الحكومة الصينية فى صدام الحدود ، والتشهير بسياسة الدول الأخرى . إن هذه البيانات تفيض بالتخرصات الافترائية حول موقف الحكومة السوفياتية فيما يتعلق بصدام الحدود الصينية الهندية .

لقد ذهب القادة الصينيون إلى حدود سخيفة فأنبوا الاتحاد السوفياتى على « التعاون مع الاستعمار الأميركى » و « التعاون مع الهند فى العراك ضد الصين » . وهم يتهمون الحكومة السوفياتية بأنها تعد الهند جزءاً « من قطاع هام فى منطقة للسلم » . وهكذا يتجاهلون تجاهلا تاما الرأى الذى ورد فى تصريح عام ١٩٥٧ والذى أكد أن دول آسيا وأفريقيا المحبة للسلم ، تشكل عاملا حيويا فى النضال لمنع الحرب و « تشكل منطقة شاسعة للسلم » مع الأقطار الاشتراكية . إن أعمال الحكومة الصينية فيما يتعلق بالصدام الصينى الهندى تناقض الخط العام الذى اتفقت عليه الأحزاب الماركسية اللينينية حول التعايش السلمى وتأييد حركة التحرر الوطنى .

لقد ذهب المندوبون الصينيون فى اجتماع اللجنة التنفيذية لمنظمة التضامن الآسيوى الأفريقى الذى انعقد مؤخراً ، بتشويههم طبيعة العون السوفياتى إلى الهند ، إلى حد الادعاء الوحشى بأن الاتحاد السوفياتى « يحرض الهند على الصدام بالصين » . إن هذا قول سخيف ، وبالطبع لم تؤكده الحقائق . وهذا شىء مفهوم لأن حقائق كهذه لا وجود لها . إن الحكومة الصينية تعرف جيداً أن طبيعة العون السوفياتى للهند هى بالضبط كطبيعة العون الذى يقدمه السوفيت إلى عدد كبير آخر من الدول الحديثة التطور .

إن موقف الاتحاد السوفياتى من الصدام الصينى الهندى ، مهما حاول القادة الصينيون تشويهه ، كان وما يزال فى جوهره موجها نحو المساعدة

لتسوية هذا النزاع بأسرع ما يمكن . ومن الطبيعى التطلع إلى أن يجد هذا الموقف الفهم والتأييد بين القادة الصينيين . ولكن من الغريب أن بكين فعلت كل ما فى وسعها لتشويهه . وفيما يتعلق بالتصريحات الأخيرة التى أدلى بها القادة الصينيون حول موقف الاتحاد السوفياتى من مسألة نزاع الحدود الصينية الهندية ، من الصعب فهم العامل الذى يسيطر هنا — هل هو العداوة تجاه أول قطر اشتراكى أم الرغبة فى الحط من سياسة التعايش السلمى التى تثابر عليها الحكومة السوفياتية ، أم هو محاولات مستترة لإخفاء انسحابهم من الخط الذى اتفقت عليه الأحزاب الشيوعية والعمالية فى العالم حول مسألة سياسة الأقطار الاشتراكية تجاه الدول الحديثة الاستقلال .

من المعروف جيداً أن شعبى الهند والصين المتجاورين قد عاشا فى سلم وصداقة لقرون عديدة . ولم تكن بينهما حروب ولا نزاعات حول المشاكل الإقليمية .

وبعد أن نال الشعب الهندى استقلاله فى عام ١٩٤٧ وبعد نجاح الثورة فى الصين عام ١٩٤٩ ، تأسست بين الهند والصين علاقات صداقة وحسن جوار . وبقيت الحدود بينهما كما كانت عليه فى الماضى ولم ينشأ صدام للحدود . وفى عام ١٩٥٤ وضعت حكومة جمهورية الصين الشعبية وحكومة جمهورية الهند توقيعهما على المبادىء الخمسة الشهيرة للتعايش السلمى — « بانش شيلا » .

وقد أكدتا برزانة فى مؤتمر باندونج مع بقية دول آسيا وأفريقيا المحبة للسلم ولاءهما لهذه الأفكار العظيمة .

لقد بدأت الصدامات المسلحة الأولى على الحدود الهندية الصينية فى وسط عام ١٩٥٩ . وأصبح الوضع حرجا بصفة خاصة فى الخريف الماضى . ونشبت معارك ساهمت فيها وحدات عسكرية كبيرة بين الصين والهند مما أدى إلى جرح آلاف الجنود وقتلهم وأسرهم .

لقد أثارت اصطدامات الهملايا شعوراً عظيما بالقلق بين الجمهور المحب للسلم . وقد قلق الشعب السوفياتى وشعوب الأقطار الاشتراكية الأخرى بصفة خاصة بالتقارير التى وردت حول هذه الصدامات . وقد أشار بيان « تاس » المعروف فى ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٩ الذى عبر عن وجهة نظر الحكومة السوفياتية إلى العواقب الخطيرة التى قد تتمخض عن هذا الصدام على مصير السلم فى آسيا والعالم أجمع . وجاء فى البيان « قد عبر فى الدوائر القيادية السوفياتية عن الثقة بأن حكومة جمهورية الصين الشعبية وحكومة جمهورية الهند سوف لا تسمحان للقوى التى لا ترغب فى تخفيف توتر الوضع العالمى بل تسعى إلى زيادة توتره وتسعى إلى الحيلولة دون تخفيف التوتر الذى بدأ يظهر فى العلاقات بين الدول ، باستخدام هذا الحادث لأغراضها الذاتية . »

لقد كان هذا وما زال فى الحقيقة الموقف الوحيد الصحيح لحل هذه المسألة ، موقف تؤيده جميع الدول المحبة للسلم . وفى الفترة التى أعقبت ذلك دعت الحكومة السوفياتية فى عدة مناسبات إلى وضع حد للتوتر القائم فى منطقة الهملايا وإلى تسوية النزاع على أساس مقبول للطرفين . وقد انطلق الاتحاد السوفياتى من حقيقة أن هذا النزاع لا يفيد إلا قوى الاستعمار والرجعية التى يهمها الحفاظ على مصادر التوتر الدولى .

إلا أن القادة الصينيين لم يرضوا بموقف الاتحاد السوفياتى السلمى . وقد يكون أنهم أرادوا تسوية نزاع الحدود مع الهند بالسلاح وأملوا فى الحصول على تأييد الاتحاد السوفياتى فى هذا الأمر ؟ وإذا كان هذا ما أراده قادة بكين ، من الطبيعى إذن أن يكون لهم من الأسباب ما يدعو إلى « سخطهم » على موقف الاتحاد السوفياتى . ولكن مهما يقولوا فى بكين ، فإن الحكومة السوفياتية التى تدين بالولاء لسياسة السلم اللينينية ، قد فعلت دائماً وسوف تفعل كل شىء لإطفاء مواقد التوتر الدولى بدلا من إلهابها ،

ولدفع السلم بحزم وصيانته وتدعيمه . لقد اعتبرنا دائماً ولا نزال نعتبر أنه ما من سبب يدعو لإثارة نزاع للحدود بين الهند والصين ولا سيما لإيصال هذا النزاع إلى درجة الصدام المسلح .

لقد أثار صدام الحدود فى الهملايا قلقاً بالغاً فى الدول الناشئة الأفريقية والآسيوية التى تدرك من خبرتها الخاصة أن إضعاف وحدة الدول المستقلة الناشئة ، والاحتكاك ، والخلاف بينها أمر لا يفيد منه غير المستعمرين والحكام الاستعماريين . وعندما بلغت الصدامات العسكرية ذروتها فى خريف ١٩٦٢ على الحدود الهندية الصينية دعا الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، وبن بيلا رئيس الحكومة الجزائرية ، وبورقيبه رئيس تونس ، وشيرماك رئيس وزراء جمهورية الصومال وعدد كبير آخر من قادة البلدان الأفريقية والآسيوية البارزين جمهورية الصين الشعبية والهند إلى وضع حد لإراقة الدماء ، وإلى بدء المفاوضات وتسوية النزاع بصورة سلمية .

وبعد وقف إطلاق النار على الحدود الهندية الصينية فى أكتوبر (تشرين الأول) الماضى نظراً لمبادرة الصينيين ، أمل كل الناس ذوى النوايا الطيبة بأن يسوى النزاع بسرعة ويوضع حد لهذا الفصل المؤلم فى تاريخ العلاقات بين الهند والصين إلى الأبد . وقد ازداد الأمل نظراً لأن الحكومة الصينية قد وجدت سبيلا لتسوية القضايا الإقليمية التى لم تسو مع غيرها من الأقطار المجاورة . وقد تم التوصل إلى اتفاقيات للحدود مع نيبال وبورما وبالإضافة إلى هذا ، كما قال تشوان لاى رئيس مجلس الدولة لجمهورية الصين الشعبية « فإن قضية الحدود بين الصين وبورما كانت أكثر تعقيداً بكثير من قضية الحدود الصينية الهندية » .

لقد اتخذت الحكومة الصينية عدداً من الخطوات نحو تسوية علاقاتها مع الباكستان التى هى معروفة عموما بأنها تنتمى إلى كتلة حلف جنوب

شرق آسيا (سيتو) وحلف سنتو ، الكتلتين العسكريتين السياسيتين اللتين أقامتهما الدول الغربية .

إن القادة الصينيين يعلنون فى بياناتهم أن الشعوب الإفريقية والآسيوية كما يقال « مستهزئة » بموقف الحكومة الهندية من صدام الحدود . إلا أنهم يلتزمون الصمت عن حقيقة أن الشعوب فى هذه الأقطار إما أنها تعبر عن دهشتها حول موقف الحكومة الصينية فى هذا الشأن أو تدين موقفها علناً . إن الشعوب فى ذلك الجزء من العالم قلقة بوضع الحدود الصينية الهندية ، وهى تعتقد بأنه إذا توافر حسن النية والرغبة فى تسوية نزاع الحدود فى محادثات مائدة مستديرة ، لأمكن منذ وقت طويل إيجاد السلم والاستقرار على الحدود الصينية الهندية . إلا أن هذه الآمال لم تتحقق بعد .

من المعروف أنه انظر لمبادرة سيريمافو باندرنايكه رئيسة وزراء سيلان وضع قادة ست دول من الدول غير المنحازة « هى سيلان والجمهورية العربية المتحدة وغانا وبورما وأندونيسيا وكمبوديا » فى مؤتمر كولمبو فى ديسمبر (كانون الأول) الماضى مقترحات ترمى إلى تسوية النزاع تسوية سلمية . وقد أمل المساهمون فى المؤتمر بأن تكون اقتراحاتهم دافعاً لتدعيم الهدنة وبأن تعبد الطريق للمحادثات بين ممثلى القطرين إذا ما نفذت . وجدير بالاهتمام أنه بالرغم من أن حكومة جمهورية الصين الشعبية تحاول إلقاء كل اللوم نتيجة وقوع الصدام على الحكومة الهندية ، إلا أن البلدان الأفريقية والآسيوية غير المنحازة التى حضرت مؤتمر كولمبو ، كانت ترى من الضرورى توجيه النداء لا إلى أحد سوى الحكومة الصينية لسحب قواتها مسافة عشرين كيلومترا عن الخط الذى وجدت نفسها فيه نتيجة العداوات الواسعة النطاق التى شنت فى خريف عام ١٩٦٢ .

إن مقترحات كولمبو لم تعبر عن شىء أكثر سوى الرغبات الودية للدول التى تسعى بإخلاص لإيجاد حل مقبول من الطرفين لنزاع الحدود .

إن بكين لسوء الحظ لم تصغ لصوت الحكمة الذى يعبر عن إرادة شعوب آسيا وأفريقيا .

فماذا حدث ؟ ما الذى حدث وحال دون تسوية النزاع تسوية سلمية ؟

ليس هنالك سبيل إلى أدنى شك فى أنه إذا كان الجانبان قد جلسا و ناقشا دعوى كل منهما بهدوء وتعقل دون تحيز لكان من الممكن إزالة النزاع منذ وقت طويل كما كان من الممكن القضاء على مصدر التوتر إلى الأبد فى ذلك الجزء من العالم . وكما تشير صحافة أقطار عديدة أنه بينما قابلت الحكومة الهندية بصورة إيجابية مقترحات مؤتمر كولمبو وقبلتها بكاملها بدون أى تحفظ وعبرت عن استعدادها لبدء المحادثات مع جمهورية الصين الشعبية على أساس هذه المقترحات ، فإن الحكومة الصينية لم تقبل بعد مقترحات الأقطار المحايدة الصديقة ولم تظهر استعدادها لبدء المحادثات على الأساس المقترح . لقد وجدت الحكومة الصينية أنه من الممكن لها أن تقصر نفسها على إصدار بيان يعبر عن قبول هذه المقترحات « بصورة مبدئية » . ولم تتخذ خطوات بناءة من قبل الحكومة الصينية .

إن الأقطار الأفريقية والآسيوية تلاحظ حقيقة أن الحكومة الصينية نفسها قد دعت هذه الأقطار مرتين فى أكتوبر (تشرين الأول) ونوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٢ إلى « المبادرة » وأن « تيسرا » عقد محادثات مباشرة بين الهند والصين . ولكن عندما قدمت هذه المساعدة لم تفد الحكومة الصينية من الخدمات الحسنة التى أدتها هذه الأقطار .

تلاحظ الصحافة فى عدد كبير من الأقطار الأفريقية والآسيوية أن الحكومة الصينية قد أعلنت فى البداية أنها سوف تقبل مقترحات مؤتمر كولمبو « بصورة مبدئية » ، وادعت أخيرا أنها ليس بوسعها أن تقبل هذه المقترحات بكاملها لأنها « ليست واضحة كلها » وطالبت بالتوضيح . وعندما

قدمت التوضيحات قالت الحكومة الصينية أنها قدمت من قبل بعض أعضاء مؤتمر كولمبو فقط وبالتالى كما قالت « جينمينجيباو » إنها « ليست وثائق مؤتمر شرعية » ، كما تظهر على الصحافة الصينية أيضا حجج أخرى تشكك فى صلاحية مؤتمر كولمبو .

لقد ادعت الحكومة الصينية فى بيانها بتاريخ ٢٥ أغسطس (آب) مرة أخرى بأنها كانت على استعداد لقبول مقترحات كولمبو « بصورة مبدئية » . ولكنها لا تذهب أبعد من هذه التصريحات العامة .

وليس من الغريب أن كثيرا من الناس بدأوا يقولون إن الحكومة الصينية ، بينما ترفع مبادرة الأمم غير المنحازة مدحا إلى السماء وتعلن أنها « تقدر » خدماتها الطيبة و « تعطيها حظها اللائق من الاعتبار » ، تتجاهل فى الحقيقة جهودها ولا تبدى رغبة فى الاستفادة من مقترحات كولمبو .

إن الناس فى الأقطار الأفريقية والآسيوية يربطون بين السياسة الحدودية لقيادة جمهورية الصين الشعبية وبين موقفها فيما يتعلق بمحيط أوسع من العلاقات الدولية ويصلون إلى النتائج الخاصة بهم . فعلى سبيل المثال تقول صحيفة « West African Pilot » النيجيرية إن بكين « لاتؤمن بالتعايش السلمى وكلما أدركنا ذلك بسرعة كلما كان هذا أفضل للعالم أجمع » .

إن الشعوب الأفريقية والآسيوية يزعجها إلى درجة عظيمة التلف الهائل الذى يتسبب فيه صدام الحدود الصينية الهندية لقضية تضامن ووحدة الشعوب المناضلة ضد الاستعمار والحكم الاستعمارى ومن أجل التحرر الوطنى والسلم . ولا تعجزها رؤية ما وراء سياسة حكومة جمهورية الصين الشعبية من حرص على وضع الهند فى موضع شقاق مع الدول الأفريقية والآسيوية الأخرى .

ومما يجدر بالملاحظة أن القادة الصينيين ظلوا مؤخرا يدفعون بشدة

دعوى أن حكومة استعمارية وتوسعية تسعى إلى خلق امبراطورية شاسعة ويفوق كبرها حتى الامبراطورية البريطانية . وعلى ضوء مثل هذه الادعاءات يصعب الاعتقاد بأن القادة الصينيين مخلصون عندما يعبرون عن رغبتهم فى تسوية نزاع الحدود مع الهند تسوية سلمية .

إن ما يخطر بالبال هو أنهم فى عاصمة جمهورية الصين الشعبية لا يريدون إدراك من يسعى للكسب من وراء النزاع الحالى الذى حدث وتسبب فى تلف هائل على الشعب ومازال يتسبب فيه . وكما هو معروف فإن المستعمرين استغلوا مباشرة النزاع الصينى الهندى محاولين إلهاب نار الحرب فى الهملايا . وهم يربطون هذا بخططهم البعيدة المدى . إنهم يمطرون المنح على الهند بتقديم الأسلحة وممارسة الأعمال المشتركة العسكرية . ويسر المستعمرين بصفة خاصة أن يكون أحد طرفى الصدام دولة اشتراكية . ويريدون استغلال هذه الحقيقة بغرض الإساءة لأفكار التعايش السلمى لدى الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة وللصداقة والتعاون بين الأقطار الاشتراكية والدول الأفريقية والآسيوية الحديثة الاستقلال . هذا وتكمن خلف كل هذا — الرغبة فى استغلال الصدام بغرض إبقاء مصدر خطير للتوتر فى الوجود .

وفى الحقيقة ، ما الذى أدى إليه صدام الحدود الصينية الهندية وماذا كانت العواقب ؟

لقد أدى هذا الصدام إلى تخريب بالغ لوحدة وانسجام الأقطار الآسيوية والأفريقية فى نضالها المشترك ضد الاستعمار والحكم الاستعمارى . وقد أضر ضرراً عظيما بالوحدة والتعاون بين الدول الحديثة التحرر والأقطار الاشتراكية ، بين الهند وجمهورية الصين الشعبية بصفة خاصة .

وقد تكبدت الصين والهند نتيجة العداوات خسائر عظيمة غير مبررة . إن نزاع الحدود بين القطرين اللذين عاشا قرونا طوالا فى سلم وصداقة لم يؤد

إلى فصم علاقات حسن الجوار الودية الوثيقة بينهما وحسب ، بل أدى أيضا إلى عواقب اقتصادية وخيمة . ويكفى ذكر أن الهند خلال السنوات القلائل الماضية خصصت للأغراض الحربية أربعة أضعاف ما خصصته من قبل . وقد سببت هذه عبئا عظيما على الجماهير العاملة وقد فرضت ضرائب إضافية وإتاوات.

إن القوى الرجعية فى الهند تستخدم الصدام لإثارة العواطف التعصبية ، بغرض شن هجوم على القوى التقدمية للبلاد ، ولدفع الهندية بعيداً عن طريقها الحيادى وجذبها إلى الكتل الحربية — السياسية التابعة للغرب . وفى الاجتماعات والاحتشادات، وفى الصحافة والبرلمان يلهب قادة الأحزاب الرجعية « سوانتراتا » و « جان سانغ » وما يسمى بحرب البراجا الاشتراكى ، وأكثر العناصر الوطنية تطرفا فى حزب المؤتمر الوطنى الهندى الحاكم ، يلهبون بكل سبيل ممكن الدعاية التعصبية المعادية للصين ويقفون ضد المفاوضات مع جمهورية الصين الشعبية ، التى قد تسفر عن تسوية سلمية للنزاع ، ويدعون إلى اتخاذ خط حازم تجاه جمهورية الصين الشعبية ، ومنذ وقت بعيد أعلنت حالة الطوارىء فى البلاد ، وحُدت الحقوق الديمقراطية للشعب . ومئات عديدة من الشيوعيين وقادة النقابات قد اعتقلوا وسجنوا . إن الرجعيين الهنود يطلبون لتخفيض برامج التطور الاقتصادى ولاستخدام المصادر المحدودة للبلاد للأغراض العسكرية ولإنشاء جهاز حربى هائل .

إن أحد بيانات وزارة خارجية جمهورية الصين الشعبية مؤخرا يعبر عن الرضى عن حقيقة أن بعض مرشحى المؤتمر الوطنى الهندى فى الانتخابات الفرعية التى جرت فى البرلمان الهندى فى مايو (آيار) الماضى قد هزموا . ومع ذلك فإن وزارة خارجية جمهورية الصين الشعبية لم تقبل شيئا فى ذلك الوقت حول حقيقة أن كبار الرجعيين المتطرفين كريبالانى وماسانى جاءا على رأس القائمة ، وفى الحقيقة إن القادة الصينيين يصفون نجاح هؤلاء الرجعيين فى الانتخابات بانتصار للديمقراطية الهندية .

كما يظهر أيضا عدم رغبة قادة جمهورية الصين الشعبية فى فهم الوضع من تقديرهم للوضع فى البرلمان. وعلى سبيل المثال تتحدث صحيفة «جينمينجيباو» بفرح لا يخفى حول التصويت بعدم الثقة الذى نوقش فيما يتعلق بحكومة نهرو فى البرلمان الهندى. والصحيفة لم يهمها أن الذين ابتكروا التصويت بعدم الثقة كانوا هم مرة أخرى نفس جماعة المتطرفين من الجناح اليمينى الذين يحاولون تغيير السياسات الخارجية والداخلية للبلاد فى اتجاه رجعى موال للاستعمار. وهنا يبرز سؤال شرعى: ما هى الاعتبارات التى توجه أولئك الذين فى بكين والذين يساهمون بالفعل فى أعمال هذه الجماعة؟

إن الضرر المادى الذى تسبب فيه صدام الحدود للقطرين يمكن تقويمه بالروبيات واليوان معا. ولكن كيف يمكن للمرء أن يقيم الضرر المعنوى والسياسى الذى لحق بقضية الصداقة والتعاون بين الشعبين الصينى والهندى؟ إن هذا لا يمكن التعبير عنه بأى عملة من العملات. لقد تضاعفت جرائم القومية والتعصب السامة بسرعة خارقة خلال الصدام الهندى الصينى. لقد أذكيت المشاعر المعادية للصين فى الهند والمشاعر المعادية فى الصين. والوضع الحاضر يقود بصورة موضوعية إلى زيادة العداوة المتبادلة فى القطرين معا.

لقد ذهبت الأمور فى الظروف الأخيرة إلى درجة أصبح الصدام معها يستغل بغرض تسميم الجو فى منابر دولية مختلفة. وكان هذا ما حدث على سبيل المثال فى مؤتمر التضامن الأفريقى الآسيوى فى موشى وأيضا فى مؤتمر النساء العالمى فى موسكو حيث حاول الوفد الصينى فرض مناقشة هذا الأمر.

تدل كل هذه الأشياء بوضوح على العواقب الوخيمة التى أدى إليها صدام الحدود الهندية الصينية فعلا. ومما دعا إلى القلق بصورة خاصة فى هذا الشأن لا عدم وجود أى مجهود يذكر لتسوية النزاع وحسب بل أيضا تراكم الأدلة على أن الصدام قد يتفاقم مرة أخرى.

إن توتر الحدود الصينية الهندية مشبع بخطر عظيم . وفى الحقيقة ، عندما يقف جنود قطرين متجاورين متواجهين وبنادقهم مستعدة للانطلاق ، فإن خطر رصاصة تنطلق وتسيل على أثرها الدماء يصبح خطرا طبيعيا جدا ، لاسيما وقد دار بينهم قتال عنيف من قبل .

إن كل مؤيدى السلم والصداقة بين الأمم بإخلاص يحق لهم أن يتوقعوا ممن يقع على عاتقهم تسوية النزاع حقا ، أن يترفعوا عن مستوى الشكليات والمركز الأدبى وأن يبدأوا المفاوضات بغرض الوصول إلى حل مقبول للطرفين . إن تسوية النزاع الصينى الهندى تسوية سلمية سوف تفيد شعبى الهند والصين وسوف تزيل هذا المصدر الخطير للتوتر ،وسوف تؤدى خدمة حسنة لقضية السلم فى آسيا والعالم أجمع .

وما من تبرير معقول لإبقاء التوتر فى هذا الجزء من العالم . إن إزالة النزاع الصينى الهندى سوف تدعم السلم فى جنوب شرق آسيا والعالم عموما وتمكن الشعبين من تسخير انتباههما بصورة تامة لقضايا التطور الاقتصادى التى تواجههما .

إن الشعب السوفياتى يرغب فى رؤية إعادة علاقات حسن الجوار بين الدولتين الكبيرتين فى آسيا — جمهورية الصين الشعبية وجمهورية الهند — إلى ما كانت عليه . وفيما يتعلق بنزعات الحدود نتمسك بوجهات النظر اللينينية ونعتقد بأنه ما من نزاعات تستعصى تسويتها بصورة سلمية عن طريق المفاوضات دون إراقة الدماء . ونظرا لهذه الاعتبارات بوجه التحديد ينظر الشعب السوفياتى إلى الأحداث التى وقعت على الحدود الصينية الهندية . أما فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتى فهو يحترم جيرانه ويدرك أن علاقات حسن جوار يمكن إيجادها فقط إذا ما احترمت الحدود القائمة بين الدول .

لقد قدم نيكيتا خروشوف رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتى

تفسيرا واضحا لموقف الشعب السوفياتى عندما عبر فى جلسة مجلس السوفيات الأعلى فى ديسمبر (كانون الأول) الماضى عن الأمل فى أن حكومة جمهورية الصين الشعبية وحكومة الهند « تسويان سوء الفهم على أساس تقدير المصالح المتبادلة فى روح الصداقة التقليدية بين شعبى الصين والهند » . إن موقف الاتحاد السوفياتى هو السياسة الدائمة الأمينة لدى الحكومة السوفياتية واللجنة المركزية اللينينية للحزب الشيوعى السوفياتى والرامية إلى صيانة السلم وتدعيم الصداقة بين الأمم . إن أكثر المفاوضات تعقيدا أفضل من الحرب . ويجب حل النزاعات بالطرق السلمية على المائدة المستديرة لا بالطرق العسكرية . إن الشعب السوفياتى يدعو بحزم إلى تسوية نزاع الحدود الصينية الهندية تسوية سلمية وإلى القضاء العاجل على هذا المصدر الخطير للتوتر الشديد ، فى هذا الجزء من العالم .



المراجـــع

فيما يلى بعض المراجع الأجنبية التى استعنت بها فى إعداد هذا الكتاب :

1. « The other Side of the River »
By : Edgar Snow
2. « Red - Star over China »
By : Edgar Snow
3. « The United States and China »
By : John King Fairbank
4. « The Political Thought of Mao - Tse - Tung »
By : Stuart R. Schram
5. « The Wall has Two Sides »
By : Felix Careene
6. « China »
By : Henri Cartier - Bresson
7. « China Tangie »
By : Herbert Feis
8. « Mao - Tse - Tunh , an Anthology of his writings
By : Anne Ereemantie » 1962
9. « China and her ShaDow »
By : Tibor Mende 1962
10. « Russia and the West Under Lenin & Stalin »
By : George Kannan 1961
11. « The Victory of Marxism - Leninism in China »
By : Liu Shao - Chi 1959
12. « Thirty Years of the Communist Party in China »
By : HU Chiao Mu 1959
13. « The Chinese Revolution and the Chinese Com. »
Party 1959
14. « A Short History of Classical Chineese Literature »
By : Feng Yuan Chun 1958
15. « Proposals of the 8th National Congress C. P. of China »
(58 - 62) .
16. Constitution of the C. P. of China »
By : Teng Hsiao Ping 1956 .
17. « Impatient Giant »
By : Gerald Clark 1960

كتب للمؤلف

◎ « شباب محموم »	(نقد)	١٩٤٩
◎ « خطوات فى بريطانيا »	(نقد)	١٩٤٩
◎ « عندما دخلوا التاريخ »		١٩٥٦
◎ « فلسطين والوحدة »		١٩٥٩
◎ ماذا جرى فى الشرق الأوسط (٣ طبعات)		١٩٦٠
◎ « تذكرة عودة »		١٩٦١
◎ « قصص وأصحابها »		١٩٦٢
◎ « حفنة رمال »		١٩٦٤
◎ « عربى فى الصين »		١٩٦٥

تحت الطبع :

◎ « هذا جرى فى الشرق الأوسط » . !

◎ « صحفى رغم أنفه »